

السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

الشيخ محمد عبده

العروة الوثقى

اعداد وتقديم

سيد هادي خسرو شاهي

تعريف بمجموعة الآثار

للسيد جمال الدين الحسيني

الأفغاني-

## بسم الله الرحمن الرحيم

يقر المؤرخون والباحثون المعاصرون بأن السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغانى، لم يكن له دور رائد فى صحوة الشرق فحسب، بل إنه كان باعث الإصلاحات الاجتماعية ومؤسس الحركات الإسلامية وانتفاضات الشعوب الشرقية المناهضة للاستعمار، فى القرن المنصم والحاضر!...

وقد صرحت شخصيات بارزة كالشهيد الأستاذ مرتضى مطهرى والأستاذ سيد محمد محيط طباطبائى والسيد حسن تقى زاده فى إيران والشيخ محمد خاطر (المفتى) والشيخ عبد المنعم النمر والدكتور عثمان أمين، والدكتور محمد عمارة والدكتور حسن حنفى فى مصر، وعشرات من العلماء والمفكرين والأساتذة الآخرين بحقيقة، أن السيد، وبالنظر إلى خصائصه الذاتية والمكتسبة، قد ترك تأثيراً عميقاً وشاملاً بين الخاصة والعامة من الناس، فى البلاد الإسلامية وبلاد الشرق... فلو قمنا بدراسة دقيقة ومتأنية فى أحداث القرن الماضى، لرأينا فى طليعة كل نهضة إسلامية وتحريرية، أحد تلامذته أو خريجى مدرسته رائداً وقائداً...

طبعاً كان الاتصال المباشر والتواصل الدءوب مع علماء الدين والمتقنين والمفكرين وإلقاء المحاضرات القيمة فى المساجد والمحافل العامة والمراكز العلمية والثقافية فى مختلف البلدان، أحد أهم أساليب السيد فى بث فكرة النهضة والصحو بين الشعوب وقيادتها... إلا أن تأليفات - رسائل ومقالات - السيد، الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، كان لها دور وتأثير أكبر من خطبه ومحاضراته فى انطلاق الحركة وصحو الشعوب واستمرارها. فقد ترك لنا السيد طوال إقامته فى إيران والهند وأفغانستان ومصر وتركيا وفرنسا وبريطانيا، رسائل ومقالات ومحاضرات

دراسية كثيرة، تناول فيها العديد من المواضيع العلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية. وما ينبغي أن نشير إليه هنا، هو أن مقدار ما وصل إلينا من السيد، أقل مما قام بتحريره أو أعده بواسطة أصدقائه وتلاميذه.... فبسبب الصدام والاشتباك الدائم الذى خاضه السيد ضد الاستعمار والأجهزة الحكومية المستبدة والعميلة، فإن جزءاً من تأليفات وآثار السيد، خاصة ما نشر باسم مستعار أو بدون اسمه، لا يمتلكه اليوم عامة الناس!... أو لأن النسخ الخطية، بقيت مكتومة لدى الأشخاص أو أنها فقدت تدريجياً إثر النزوح والنفى الذى تعرض له السيد عبر أسفاره الإجبارية!... وفى الوقت نفسه، ينبغي أن نقول إن تأليفات وآثار السيد المتوفرة حالياً، هى أكثر مما كان يعتقد ولحسن الحظ وخلال السنوات الأخيرة وبجهود لغير من الباحثين، ثم العثور على جزء آخر من آثار السيد أو تمت ترجمتها من اللغات الأخرى إلى العربية وهذا أمر لافت للنظر.

... وبشكل عام يمكن تقسيم تأليفات السيد جمال الدين الحسينى إلى عدة أنواع:

١ - المقالات والرسائل التى كتبها خلال إقامته فى الهند وإيران، مثل: رسالة الرد على الدهريين ورسالة حقيقة المذهب النيتشرى أو المقالات التربوية والأخلاقية والثقافية، التى نشرت فى مجلة «معلم شفيق» الهندية والمجلات الأخرى - فى الهند وإيران - آنذاك، ثم صدر قسم منها فى مجموعة تحت عنوان: «مقالات جمالية».

٢ - التعليقات والمقالات والرسائل الكلامية والفلسفية والعرفانية... ومعظمها كانت حصيلة إقامة السيد فى أفغانستان ومصر وإيران وتدرسه الفلسفة فى مصر، مثل: «رسالة مرآة العارفين، والواردات، وفلسفة التربية، والعلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار والتعليقات على شرح العقائد العضدية».

٣ - مقالات ورسائل اجتماعية وسياسية، معظمها حصيلة الإقامة فى مصر أو أوروبا، وصدر أغلبها فى صحف مصر وباريس ولندن.

٤ - الرسائل والمكاتيب التى كتبت فى أية فترة وفى أى بلد، حسب قضايا الساعة والأوضاع الراهنة... معظم هذه الرسائل والمكاتيب - حتى إذا كانت ذات صفة

شخصية - تشمل قضايا سياسية واجتماعية خاصة، ويمكن من خلالها مجتمعة،  
التوصل إلى أفكار السيد حول القضايا المطروحة.

و من خلال المصادر المتوافرة والمصادر الخطية في مختلف البلدان، من إيران  
إلى تركيا ومن باريس إلى لندن والقاهرة، قد حاولت في الخمسين سنة الماضية،  
تجميع وتنظيم أو ترجمة مجموعة متكاملة من مقالات وتأليفات السيد، وفي بعض  
الحالات قمت بدراساتها، والآن ثم إعداد مجموعة من عشرة مجلدات تحت عنوان  
عام: «الآثار الكاملة» - أو مجموعة الآثار - للقيام بطبعها ونشرها.

هذه المجموعة تتضمن:

- ١ - العروة الوثقى - بالتعاون مع الشيخ محمد عبده.
  - ٢ - رسائل في الفلسفة والعرفان.
  - ٣ - رسائل ووثائق السيد، السياسية والتاريخية.
  - ٤ - ضياء الخافقين - بالتعاون مع آخرين.
  - ٥ - تاريخ إيران الملخص وتنمة البيان في تاريخ الأفغان.
  - ٦ - رسائل ومقالات - باللغة الفارسية.
  - ٧ - مجموعة المقالات - باللغة الفارسية.
  - ٨ - خاطرات جمال الدين الأفغانى.
  - ٩ - التعليقات على شرح العقائد العنصرية.
  - ١٠ - المستدركات - مقالات ومكاتيب لم تنشر من قبل.
- و هنا نقدم عرضاً إجمالياً حول هذه الآثار:

#### ١ - العروة الوثقى:

«العروة الوثقى» كانت تصدر كمجلة من باريس، صدر العدد الأول منها في ١٥  
جمادى الأولى ١٣٠١ هـ. ق - ١٣ مارس ١٨٨٤ م واستمرت حتى ذى الحجة ١٣٠١  
هـ الموافق أكتوبر ١٨٨٤ م وبلغ مجموع ما صدر منها ١٨ عددًا.

صدرت هذه المجلة بأسلوب ثقافى وسياسى واجتماعى تحت إشراف السيد المباشر، وكان الشيخ محمد عبده «المحرر الأول» أو ما يسمى: «رئيس التحرير»! وتم إصدار المجموعة الكاملة لهذه المجلة عدة مرات، بواسطة أشخاص أو ناشرين متعددين فى العراق ولبنان ومصر وإيران وأوروبا، وقد تم طبعها فى أوروبا - روما وقبل عشرين سنة - مع مقدمتى المسهبة - وفى ٥١٦ صفحة من: «المركز الثقافى الإسلامى فى أوروبا» والذى أسسته حين إقامتى فى إيطاليا - روما، ثم عاد طبعها، قبل سنوات، بمناسبة المؤتمر العالمى حول السيد فى طهران، من قبل وزارة الإرشاد ومجمع التقريب العالمى بين المذاهب الإسلامية.

وحول كيفية إعداد مواضيع «العروة الوثقى» نقل شكيب أرسلان عن الشيخ رشيد رضا بأن الشيخ محمد عبده كان يقول: «كافة الأفكار كانت من السيد، ولكن التحرير كان على عاتقى» وقد نقل أحمد أمين هذا الرأى فى كتابه.

وقد أورد الناشر فى العدد الأول من المجلة، أهدافها الرئيسية بصورة تفصيلية ومن خلال قراءة افتتاحية هذا العدد، يمكن التعرف أكثر على نوعية فكر السيد السياسى.

## ٢- رسائل فى الفلسفة والعرفان:

هذه المجموعة تشمل على ٦ رسائل فى الفلسفة والعرفان. يوجد من الرسائلتين الأوليين نسختان خطيتان فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، تحت عنوان «مرآة العارفين» و«الواردات فى سر التجليات»، أما رسالة «القضاء والقدر» قد صدرت أولاً فى «العروة الوثقى» ثم أعيدت طباعتها بشكل مستقل فى القاهرة. والرسالة الرابعة: «فلسفة التربية وصناعة الفلسفة»، هى عبارة عن محاضرات للسيد، قام بصياغتها الشيخ محمد عبده. أما رسالة «العلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار» صدرت فى صحيفة «الواقائع» فى مصر بعنوان مستعار: «بقلم أحد مفكرى العلوم العقلية» وتم تجميعها بواسطة السيد رشيد رضا.

والرسالة السادسة، رسالة «نيتشرية» ترجمت من الفارسية بواسطة الشيخ محمد عبده وبمساعدة أبي تراب عارف أفندى وطبعت مرات عديدة بشكل مستقل فى القاهرة وتحت عنوان «الرد على الدهريين».

حول الرسالتين الأوليين من المناسب أن نقدم إيضاحات أكثر:

#### مرآة العارفين فى ملتقى زين العابدين:

تم تأليف هذه الرسالة المكونة ٢٢ صفحة صغيرة بخط السيد بالذات فى سنة ١٢٨٣ هـ حيث كتب السيد فى آخرها: «كتبه عبد الله جمال الدين الأفغانى الكابلى فى بلدة قندهار فى يوم الأحد ٢ شهر ذى الحجة الحرام ١٢٨٣».

موضوع هذه الرسالة كما يبدو من عنوانها، بحث فلسفى - عرفانى صرف فى تفسير وتبيين مفاهيم سورة الفاتحة وبسم الله. هذا الرسالة كما ورد فى بدايتها، جاءت ردًا على طلب شخص يدعى «زين العابدين».

#### رسالة الواردات فى سر التجليات:

توجد النسخة الخطية لهذه الرسالة فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران بخط إبراهيم اللقانى، وفى ٥٣ صفحة صغيرة. هذه الرسالة الفلسفية، هى محاضرات للسيد قام بصياغتها الشيخ محمد عبده.

ويذكر محمد عبده فى مقدمه المقتضبة: «عندما كنت أتابع بشغف وشوق العلوم الحقيقة، كان البعض يقول: لا تتناول هذه الأمور؛ لأنها حرام. وفجأة بزغت شمس الحقيقة وأوضحت التفاصيل الدقيقة للحقيقة، وكان هو حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الأفغانى الذى استجاب لطلبى، وكان ذلك فى عام ١٢٩٠ هـ، وأورد هنا مختصرًا عنه...!»

وقد قام السيد رشيد رضا بنقل هذا البحث فى الطبعة الأولى لكتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» بتاريخ ١٣٢٢ هـ، ولكن فى الطبعة الثانية منه، الصادرة فى عام ١٣٤٤

هـ حذف هذه الرسالة وكتب فى الهامش: «وقد حذفنا منها رسالة الواردات لقلة من يفهمها!»... إلا أننا بالإشارة إلى الآية الكريمة: «وقليل من عبادى الشكور»، نقوم بطباعة هذه الرسالة مرة أخرى، فى هذه المجموعة، على أمل أن تلقى اهتماما عند أهل العلم والفلسفة...

### ٣- التعليقات على شرح العقائد العضدية:

«العقائد العضدية» تأليف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، عضد الدين الإيجى المتوفى - فى عام ٧٥٦ هـ من علماء الكلام الكبار وكتاب «المواقف» من مؤلفاته أيضًا، وقد قام جلال الدين الدوانى وهو من العلماء المشهورين فى الفلسفة والكلام، بكتابة شرح لهذا الكتاب، الذى يعتبر من الكتب المهمة فى العلوم الربانية لدى إخواننا أهل السنة.

وكتاب «التعليقات» القيم صدر فى مصر مرة أو مرتين باسم الشيخ محمد عبده، وتاريخ تحريره حسبما جاء فى الكتاب هو سنة ١٢٩٢ هـ أى عندما كان السيد يقيم فى مصر ويدرس الفلسفة، فى حين أننا نعلم جميعًا أن الشيخ محمد عبده فى ذلك التاريخ بالذات، كان لا يزال طالبًا شابًا فى الأزهر ومن تلامذة السيد الممتازين، ولا يعقل أن يقوم طالب فى سن الثانية والعشرين من عمره بتأليف كتاب معتمد ومهم على هذا المستوى العلمى.

ويذكر محمد عبده نفسه كما ورد فى المجلد الأول من «تاريخ الأستاذ الإمام»، بأنه: «تعلم الإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراف وعقائد جلال الدين الدوانى عند السيد....» وهكذا، فإنه يصرح بأن علاقته بهذا الكتاب ستكون فى مستوى تلميذ يتعلم عند السيد ولا يبدو من المعقول أن تكون هذا التعليقات من الشيخ نفسه.

واللافت للنظر، أنه فى بعض الحالات قام الشيخ محمد عبده وبتوقيع منه، بكتابة هوامش على نص «التعليقات» وهذا من المستبعد، أن يقوم المؤلف مرة أخرى وبتوقيعه الخاص، بكتابة هوامش على تعليقاته!

والأهم من كل ذلك، أنه يقول فى التعليق رقم ٤٨ لدى البحث حول الإلهام الإلهى: «هذه القضية تحتاج إلى تفصيل ونحن تناولناه فى رسالتنا حول مسألة الواردات.....» وطبعاً نعلم أن رسالة الواردات هى من السيد جمال الدين الحسينى، وقام الشيخ محمد عبده بصياغتها، كما صرح بذلك فى مقدمتها.

و مما يدعو إلى مزيد من اليقين، هو استخدام الكلمات والتعبير التركية والفارسية والهندية والفرنسية والإنجليزية فى أماكن عديدة من الكتاب، ونحن نعلم بأن الشيخ محمد عبده لم يكن يعرف فى تاريخ تأليف الكتاب، أى من هذه اللغات، بل إن أستاذه جمال الدين الحسينى، هو الذى كان يعرف هذه اللغات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، جاء فى الكتاب: «الوجود، المعبر عنه فى الفارسية بهستى! والعالم ما يعبر عنه فى الفارسية بدانا والله فى الفرنسية ديو، ويزد ويزدان فى الفارسية وخود آينده معناها الوجود بذاته. خود بالفارسية: النفس وآينده اسم فاعل من آمدن، يعنى المجىء....».

و طبعاً فالشيخ محمد عبده نفسه، لم يكن على علم بأن الكتاب سيصدر باسمه فحسب؛ لأن الطبعة الأولى للكتاب صدرت فى عام ١٣٢٣ هـ، أى بعد وفاته ولو كانت صدرت إبان حياته لا شك أنه وكما هى عادته، لم يكن يسمح بنشر الكتاب بدون اسم أستاذه.

ومن المناسب أن نشير إلى أن تعليقات السيد على شرح العقائد العنصرية توقفت فى الرقم ٢٢٢، وإذا انتبهنا إلى القضايا المطروحة بعد هذا العدد نجد أنها تتعلق بالقضايا الفلسفية العميقة والأبحاث الاعتقادية المتنوعة والمختلفة، كالمعاد الروحاني وقضية الصراط والميزان والخلود فى الجنة أو النار ثم قضية العصمة والإمامة بعد النبى (ﷺ) يتضح جلياً لماذا اختتم السيد بحثه؟

أى بعد طرح قضية المعاد الجسماني، ينهى السيد فجأة تعليقاته بهذه الفقرة: «إلى هنا انتهى بنا سير الفكر، فوقف القلم، والحمد لله حيث بالخير تم.. وكان ذلك فى أواخر ذى الحجة الحرام، سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف من الهجرة



المحمدية، صلى الله وسلم على مفتتح تاريخها وعلى آله وأصحابه». فى الحقيقة، ينبغى القول إن أستاذنا الشيخ، نعى السيد جمال الدين، توقف عن الاستمرار فى البحث تجنباً من الخوض فى قضايا خلافية، وبالأخص قضية الخلافة والإمامة، وإلا فإن الخوض فى قضايا كهذه بالنسبة للشيخ محمد عبده وبالنظر إلى معتقداته، أمر سهل ويسير جداً وليس من المعقول أن يتوقف قلمه عنده!...

#### ٤- ضياء الخافقين:

أسست شهرية «ضياء الخافقين» التى صدرت بالعربية والإنجليزية فى لندن، إثر النفى الغادر الذى تعرض له السيد من قبل شاه إيران فى رجب ١٣٠٩ هـ فبراير ١٨٩٢ م. وكانت شركة صحفية تجارية بريطانية، تدعى «كيلبرت» قد تولت إصدار المجلة من لندن، حيث كانت تمتلك مطبعة مستقلة مع إمكانيات الطباعة باللغات الشرقية، والمجلة كانت تهاجم فى كل عدد شاه إيران وسياسته القمعية - الاستبدادية.... لم يصدر من المجلة سوى خمسة أعداد، وحسب تعليق السيد حسن تقى زاده والأستاذ محيط طباطبائي - الباحثين الإيرانيين - فإن إصرار وطلب الحكومة الإيرانية أدى إلى قيام الحكومة البريطانية بممارسة الضغط على الناشر والمطبعة، للتوقف عن إصدارها.

فى هذه المجلة التى صدر القسم الإنجليزي منها فيما بعد بشكل مستقل، وردت مقالات بكل من اللغة التركية ولغة الأردو، من الأقليات المسلمة المقيمة فى بريطانيا. ومع أن مشاركة السيد فيها واضحة بالكامل وصدرت العديد من المقالات فى المجلة بتوقيع صريح كالشيخ جمال الدين الأفغانى، جمال الدين، السيد، السيد الحسينى أو بتوقيع مستعار «كهف، قسط» أو «طالب علم»، إلا أن أشخاص آخرين من بريطانيين أو مواطنى بلدان الشرق الأخرى، لهم مقالات فيها، ومحتويات بعض هذه المقالات ومن بينها مقالة «الحق المر» التى تدافع عن السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط! مما يظهر بوضوح أن كتابها كانوا من الشركة الإنجليزية الناشرة

للمجلة - والتي تريد التسويق في الشرق الأوسط - أو أشخاص آخرين.. ولكن حتى هذا الدفاع عن السياسة البريطانية في الظاهر، لم يتمكن من تجنب المجلة من الاحتجاب الإجباري، حيث احتجبت المجلة وإلى الأبد بعد صدور خمسة أعداد منها.

طبعًا كما أشرنا وخلافًا لما كتبه بعض الباحثين المعاصرين، لم يصدر من هذه المجلة عددان فحسب، بل صدر منها ما مجموعه ٥ أعداد، ولم يكن للملكم خان أو أشخاص إيرانيين آخرين، أي تدخل في إصدارها على الإطلاق.

#### ٥- مجمل تاريخ إيران وتاريخ الأفغان:

كما نعلم، فإن معظم أثار السيد هي «محاضرات» أو «تقارير»، أي ما عدا بضع رسائل كرسالة النيتشرية وتاريخ الأفغان ومرآة العارفين وعدد من المقالات أو مكاتيبه السياسية، في الحقيقة قام بتحرير وصياغة معظمها تلامذته وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده.

ومن أثار السيد التي هي صياغة لأقواله «مجمل تاريخ إيران» الذي وللأسف لم يهتم الباحثون به حتى الآن... حيث ألقى السيد بمحاضراته حول مجمل تاريخ إيران في عام ١٣٠٣ هـ في شيراز، وقام فرصة الدولة الشيرازي، بصياغتها وتقريرها. ويذكر «سيد نصير الدين فرصة الدولة الشيرازي» في مقدمة ديوانه: «دبستان الفرصة» الذي صدر للمرة الأولى في الهند ثم في إيران ما نصه: «في إحدى الليالي اجتمع عدد من الأصدقاء ودار الحديث حول أصالة تاريخ إيران، وكانوا يستفسرون عن ذلك فأدلى سعادة السيد بإيضاحاته نورد هنا ملخصها»...

ثم يورد الشيرازي، بشكل موجز مجمل تاريخ إيران نقلا عن محاضرات السيد... ونحن نقوم بحول الله بإصدار هذا النص في مجلد واحد، مع تاريخ الأفغان، الذي ألفه هو بنفسه ويحتفظ بقسم من مخطوطه في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي بطهران (و الكتاب طبع لأول مرة في القاهرة، قبل قرن).

## ...وأما تاريخ الأفغان:

صدر «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» في عام ١٩٠١ م بشكل كتاب مستقل، وقد جاء على غلافه: «اعتنى بتصحيحه وطبعه على نفقته، على يوسف الكريدلى، صاحب و محرر جريدة العلم العثماني». ويورد الكريدلى في مقدمة هذا الكتاب شرحاً بقلمه حول الأمير عبد الرحمن خان مشيداً به، ثم يقول: «إن علاقتنا مع الشعب الأفغانى المسلم الذى يقدر عدد نفوسه بستة ملايين علاقة دينية، وكان ولا يزال هذا الشعب ذا فضائل على الأمة المحمدية، ولكن للأسف لم يكن فى متناول اليد تاريخ واضح عن هذا الشعب، إلى أن عثرت على كتاب قيم جداً فى هذا الموضوع، تحت عنوان «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» وهو من تأليف: مهبط أسرار الحكمة وفيلسوف الإسلام والمسلمين السيد جمال الدين الأفغانى الشهير - رحمه الله رحمة واسعة - فقررت طباعته ولكى يكون تحت تصرف عامة الناس خدمة للثقافة والعلوم وإظهاراً لفضائل الأمة الإسلامية العظيمة، وتخليداً لاسم المؤلف الجليل - أسكنه الله فراديس الجنان بالفضل والرحمة...» ويوضح الكريدلى فى مقدمته بأنه حصل على نسخة من كتاب السيد صدرت سابقاً لمرة واحدة، إلا أن نسخها أصبحت نادرة أو نافذة.

علاوة على مقدمة الناشر للطبعة الثانية للكتاب، اهتم السيد محمد رشيد رضا بجمع وإصدار ونشر آثار السيد ومقالات أستاذه - الشيخ محمد عبده وجمال الدين - وإذ وعد فى العدد ٣٨ من صحيفة «مصر» بتاريخ ٩ يناير ١٨٧٩ م، الصفحة ٣ بإصدار كتاب السيد حول تاريخ الأفغان كتب يقول: «الكتاب يضم تاريخ وأحوال الأفغانين، وقد وصلنا هذا البحث فى عدة أجزاء تشمل المقدمة وعدة فصول تشكل بمجموعها كتاباً، وبدأنا حالياً إصداره بشكل مستقل، ونأمل أن يصدر قريباً بشكل جميل وفى حوالى مائة صفحة».

هذا النبأ يظهر بوضوح أن الكتاب صدر فى مصر إبان حياة السيد وفى أيام إقامته فى مصر، ثم أصبحت نسخه نادرة تدريجياً، والنسخة التى حصل عليها الكريدلى

أعيد إصدارها في القاهرة مع حذف مقالة أو مقالتين، التي هاجم فيها السيد بشدة، سياسة بريطانيا الاستعمارية في أفغانستان<sup>(١)</sup>.  
و كما أشرنا، توجد في مجموعة آثار ووثائق السيد التي يحتفظ بها في مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، صفحات من هذا الكتاب بخط السيد نفسه ونسخة من الطبعة الأولى والتي فقدت منها للأسف الصفحات الأولى، وتم مؤخرًا إعادة إصدار الكتاب في مصر ولبنان، والنسخة التي نقوم بطباعتها تشمل القسم المحذوف، تحت عنوان: «البيان في الإنجليز والأفغان» والتي لم تصدر في الطبعة اللاحقة.

#### ٦- الرسائل والمقالات:

هذه المجموعة التي تم إعدادها في أكثر من ٢٠٠ صفحة، تشتمل على ٢٢ مقالة ورسالة للسيد باللغة العربية، قام بكتابتها السيد شخصيًا أو ترجمت مؤخرًا من اللغات الأخرى إلى العربية، منها على سبيل المثال: رسالة حول المهديّة، الشرق والشرقيين، الرد على رينان و..... وبعض هذه المقالات صدرت في السنوات الأخيرة في مجلة «اليوم السابع» طبع باريس ومجلة «أوراق» و«العالم» طبع لندن وغيرهما...

وترجمت بعض هذه الرسائل بواسطة كاتب هذه السطور إلى الفارسية، كالرد على رينان أو رسالة القضاء والقدر، وتم إصدارهما مرارًا وبشكل مستقل، تحت عنوان «إسلام وعلم ورسالة قضاء وقدر» في إيران، مدينة تبريز وقم وطهران....

١. سلسلة الأعمال المجهولة، جمال الدين الأفغانى، تحقيق دكتور على شلش، طبع لندن، ١٩٨٦ م ص

## ٧- مقالات السيد بالفارسية:

مجموعة المقالات والرسائل الفارسية تضم أكثر من ثلاثين رسالة ومقالة كتب السيد شخصيًا قسمًا منها وحاضر بقسم آخر منها، وتولى محمد حسن آقا أمين الضرب الثاني كتابتها بخطه... قسم من هذه المقالات الفارسية هي نفسها التي صدرت تحت عنوان (المقالات الجمالية) وصدر قسم آخر منها سابقاً كرسالة النيتشيرية أو (قصص الأستاذ) بشكل مستقل أو في الصحف والمجلات الإيرانية والهندية، وقد قمنا بجمعها كاملة وبعد بحثها ودراستها، وضعناها اليوم تحت تصرف الراغبين<sup>(١)</sup>.

و من الضروري أن نوضح أن (قصص الأستاذ) الذي تم نقلها في هذه المجموعة قد صدرت لأول مرة بواسطة المرحوم أبي الفضل قاسمي - قبل أربعين سنة - ويحتفظ بنسختها الخطية ضمن وثائق السيد في مجلس الشورى الإسلامي، إلا أن أيًا من هذه القصص ليست بخط السيد نفسه، ويبدو أن السيد قد سردها في أوقات

١. صدرت الطبعة الفارسية من مقالات السيد جمال الدين تحت عنوان «مقالات جمالية» في كالكتا بالهند عام ١٨٨٤ م وعلى غلافها جاء وصف السيد جمال الدين بأنه: «حبر فهامة، فيلسوف علامة، حضرة مولانا السيد جمال الدين الحسين الأفغانى المصرى المقيم بمدينة باريس». وقام محمد عبد الغفور شهباز البهارى بوصف السيد جمال الدين الأفغانى بأنه: «أحد أجل علماء مصر وأعز فلاسفة العصر». وقد استخدم السيد جمال الدين بالذات العديد من الأسماء لتوقيع بعض رسائله منها: جمال الدين الحسينى وجمال الدين السعد آبادى وجمال الدين الأسد آبادى وجمال الدين الأفغانى وجمال الدين كايولى وجمال الدين الاستانبولى وجمال الدين الرومى وجمال الدين الطوسى ... ولا أرى داعيًا للنقاش حول مكان ولادة السيد، هل ولد في أسد آباد بإيران أو السعد آباد في أفغانستان؟! فما جدوى أن نبحث في هويته في حين حدد هو بالذات هويته، إذا اعتبر نفسه في توقيعاته: مصريًا/ أفغانيًا/ استانبوليًا/ أسدآباديا/ روميًا وطوسيًا ... إذن، فهو ينتمى إلى الأمة الإسلامية جمعاء، وقد جسد هذا الانتماء في دعواته وأطروحاته. وقد ورد في كتاب «خاطرات» وهو تقرير عن آراء وأفكار السيد جمال الدين بقلم محمد مخزومى باشا بتاريخ ١٣١٠ هـ فى اسطنبول، أنه «مسلم» فقط، مما يقطع الطريق أمام المغرضين بنعته: شيعى أو سنى، إيرانى أو أفغانى؟، لتسميم الأجواء وإبعاد الباحثين عن حقيقة أفكاره.

الفراغ، وكنوع من الممارسة الفكرية وكان أحد تلامذته يقوم بتقريرها؟!... من الضروري أن نشير إلى أن محتويات إحدى هذه القصص، لا تتفق مع بعض أفكار وتوجهات السيد العامة، وعلى أية حال فقد أوردنا هذه القصص أيضاً في هذه المجموعة.

#### ٨- رسائل ووثائق السيد السياسية - التاريخية:

ضمن الأوراق والوثائق المتبقية من السيد، يوجد العشرات من المكاتيب والرسائل من السيد والتي كتبت في طهران وكرمانشاه وبغداد والبصرة وبطرسبورغ وموسكو واسطنبول وباريس ولندن الخ، معظمها ذو مضمون سياسي أو نقدي. وقد اخترت من هذه الرسائل والوثائق ٥٠ رسالة ووثيقة تاريخية للسيد، باللغات العربية والتركية والفارسية، وفي بعض الحالات قمت بترجمتها من التركية أو الإنجليزية ونشرها مع إيضاحات في الهامش...

#### ٩- خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى:

و هذا الكتاب يشمل جزءاً من خواطر وأفكار السيد، جمال الدين الحسينى، والتي تم إعدادها في اسطنبول في عهد السلطان عبد الحميد العثماني خلال الفترة ١٣١٠ إلى ١٣١٤ هـ / ١٨٩٣ إلى ١٨٩٧ م - ولقد كان مقرر هذه الخواطر هو محمد المخزومي باشا، والذي كان يحضر يومياً في خدمة السيد جمال الدين طوال فترة إقامة في اسطنبول وفي أوقات فراغه، كان يسجل الموضوعات التي يلقيها السيد، ثم يدونها بعينها، بدون إضافة أو نقصان!

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٣١ م، أي قبل ٧٠ عاماً مضت... واليوم تظهر الطبعة الجديدة المنقحة، بعد اكتمال المراجعة والإصلاح لللازمين وتغيير بعض العناوين وإعداد فهرس الآيات والأعلام والأماكن و... نأمل بأن يحوز تجديد نشر هذا الجزء من تراث السيد جمال الدين الحسينى، اهتمام

واستفادة أهل العلم والفضل.

#### ٠١ - المستدرکات: (مقالات ومکاتیب وهوامش لم تنشر من قبل)

بین أوراق، وأكثر من خمسمائة كتاب مطبوع ومخطوط تخص السيد ويحتفظ بها حالياً في مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران، وفي معظم الكتب التي قام السيد بمطالعتها أو تدريسها - سواء الخطية منها أو المطبوعة - توجد هوامش وإيضاحات مسردة أو قصيرة من السيد، كتبها خلال فترة تدريس في مصر أو أثناء مطالعته في القاهرة وكابول وطهران واسطنبول و... وطبعاً استخراج كافة تلك الهوامش وتبويبها ونشرها، يحتاج إلى أن نشمر عن سواعدنا في فرصة أخرى وبعون الله - سبحانه وتعالى - ينبغي أن نقوم بذلك في يوم ما!.

نشير من جملة هذه الكتب إلى: مطول التفتازاني طبع طهران، فرائد الأصول للشيخ الأنصاري طبع تبريز، خلاصة الحساب للشيخ البهائي وهيأت قوشجي طبع طهران، حاشية سيد على على شرح الشمسية، شرح جامي، شرح جغميني، أخلاق ناصري لنصير الطوسي، إشارات ابن سينا طبع طهران و... حيث للسيد تعليقات مقتضبة لهذا الكتاب، وقد كتب في آخرها أنه كان يدرسها في مصر عام ١٢٩١ هـ. ... سيتم إن شاء الله تنظيم هذه المجموعة من الهوامش العلمية والفلسفية، مع مکتوبات ومقالات قصيرة أخرى متبقية من السيد تحت عنوان «المستدرکات» أو «آثار وتألیفات لم تنشر بعد» وستصدر كآخر مجلد من مجموعة آثار السيد الحسيني - رحمه الله -

وفي دفاتر المذكرات المتبقية من مجموعة وثائق السيد، ترك لنا السيد مواضيع متنوعة وقصائد ورباعيات والمثنوى والغزل، مما يدل على ذوقه الرفيع في عالم الشعر والأدب، وسنقوم بجمعها وإصدارها في آخر مجلد من المجموعة بإذن الله.

\*\*\*

... لقد قمت مباشرة - ومنذ نصف قرن - وعلى قدر الإمكان الفردي، بجمع

وتنظيم ودراسة هذه الآثار - في أسفار المتعددة - وفي كل من: إيران، مصر، لبنان، العراق، إيطاليا، انكلترا، فرنسا، تركيا، باكستان، وأفغانستان... وكنت أمل أن أقدمها كافة إلى «المؤتمر الدولي حول السيد جمال الدين الأسدآبادي» - حيث كانت معدة للنشر - وأهديها إلى العدد الكبير من أصدقاء ومحبي السيد، خاصة أساتذة الحوزات العلمية والجامعات الأفاضل والضيوف الوافدين من البلاد الإسلامية، ولكن للأسف وفي اللحظات الأخيرة حالت البيروقراطية السائدة في بعض الدوائر الحكومية دون تحقيق هذه النية الخيرة!.. على أمل أن نتمكن من التعويض عن هذا النقص في المستقبل بنحو آخر...

ثم قمنا بنشر ٧ مجلدات من هذه المجموعة، من قم، مركز البحوث الإسلامية والذي أسسته وأديره، واليوم نقوم بنشرها كاملة، ومن أرض الكنانة، «قاهرة» المعز... مع الشكر والتقدير للأخ الأستاذ المهندس «عادل المعلم» صاحب «مكتبة الشروق الدولية» حيث قام بإصدار هذه المجموعة الثقافية والعلمية، وبهذه الصورة الممتازة... وفقه الله وإيانا لما يحب ويرضى.

... وفي الختام، من الضروري أن أشير إلى أنني أرى أنه إذا أقام العلماء الباحثون بإلقاء نظرة خاصة في كافة آثار السيد الفكرية، وبالأخص الآثار التي لم تكن في متناول أيديهم حتى الآن، سوف تنضح لهم الأبعاد المتعددة لشخصية السيد الفكرية والعلمية، بشكل أكثر وضوحًا وجلالًا.

مثلاً إن الأستاذ الشهيد آية الله الشيخ مرتضى مطهرى، بعد أن علم بأن السيد كان في العلوم العقلية والفلسفية، من تلامذة «آخوند ملا حسين قلى همدانى درجىنى شوندى» الفيلسوف والعارف الكبير فى حوزة النجف، وكان صديقاً وزميلًا لحكيم وعارف آخر، هو المرحوم آغا سيد أحمد طهرانى كربلائى، والسيد سعيد الجوبى الشاعر والأديب والعارف والمجاهد العراقى الكبير<sup>(١)</sup>، كتب يقول: «إننى منذ أن

١. كما جاء فى إحدى الوثائق التاريخية الموجودة بين أوراق السيد نفسه، والمحفوظة فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى بطهران..



علمت بهذا الأمر عن حياة السيد، أصبحت شخصيته فى نظرى ذات بعد آخر و أهمية أخرى».

وأعتقد، لو أن الشهيد مطهرى كان قد اطلع على الآثار الفلسفية والعرفانية الأخرى للسيد والتي تنشر اليوم، لتضاعفت محبته ولتبني أفكاره أكثر فأكثر... والآن فمن واجبنا أن نحاول تقديم وتعريف هذه الشخصية الإسلامية البارزة والمجهولة والمظلومة، وأن نقوم بنشر أفكاره العالية البناءة؛ لكي نجعل الجيل الحالى والمستقبلى، أكثر وعيًا واستعداد للإفادة من أفكاره وآثاره... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سيد هادى خسرو شاهى

القاهرة: رمضان ١٤٢٢ هـ

## تقديم

### لمجموعة الآثار الجديدة

الدكتور محمد عمارة

### بسم الله الرحمن الرحيم

في منتصف خمسينيات القرن العشرين - وأنا طالب بكلية دار العلوم.. جامعة القاهرة - بدأت علاقتي الفكرية بجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٢١٤ هجرية - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)، فلقد درسنا كتاب أستاذنا الدكتور محمود قاسم (جمال الدين الأفغاني، حياته وفلسفته)<sup>(١)</sup>.. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلميذة في مدرسة الإحياء والتجديد - الديني والحضاري - تلك التي تبلورت من حول هذا الرائد العظيم، الذي تجسدت فيه - بحق - صفات: موقف الشرق.. وفيلسوف الإسلام.. وعندما تفرغت للعمل الفكري، وعزمت على الإسهام في توجيه عقل الأمة إلى معالم المشروع الحضاري النهضوي، التي صاغها رواد اليقظة والإصلاح في عصرنا الحديث، كان الجمع والتحقيق والدراسة والنشر للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني طليعة السلسلة التي أنجزتها - منذ منتصف ستينيات القرن العشرين - والتي ضمت - بعد أعمال الأفغاني - أعمال محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هجرية - ١٨٤٩ - ١٩٠٦ م) ورفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هجرية - ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وعبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هجرية - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) وعلي مبارك (١٢٣٩ - ١٣١١ هجرية - ١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) وقاسم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦ هجرية - ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م).. وكتباً وفصولاً ودراسات وتحقيقات عن عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤ هجرية - ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) والخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧ هجرية - ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م) ورشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هجرية - ١٨٦٥ - ١٩٣٩ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هجرية - ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) وحسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هجرية ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) وسيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هجرية - ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م)

١. طبعة القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٦ م.

ومحمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هجرية (١٨٩٣ - ١٩٦٣ م) وعبد الرزاق السنهوري (١٣١٣ - ١٣٩١ هجرية - ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) وعلي الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هجرية - ١٨٩١ - ١٩٧٨ م) وأمين الخولي - ١٣١٣ - ١٣٨٥ هجرية - ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م) ومحمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هجرية - ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م) ومحمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦ هجرية - ١٩١٧ - ١٩٩٦ م)، وغيرهم من أعلام العلماء الذين ساروا على النهج الإصلاحية والنهوضي الذي بلور معالمه جمال الدين الأفغاني.

وبقدر ما كنت أسعد عندما أرى عطاء هذه المدرسة الإحيائية التجديدية وقد عاد للفعل والتأثير - بواسطة هذه الأعمال الكاملة - في فكر الأمة وعقلها، عبر رسائل الماجستير والدكتوراه، والأعمال الفكرية المتخصصة والجمهورية.. كانت سعادتي غامرة عندما وجدت أعمال جمال الدين الأفغاني قد حظيت باهتمام عالم كبير من علماء الحوزة العلمية بإيران الشقيقة، هو السيد هادي خسرو شاهي، الذي جمعتني وإياه المحبة والتقدير لسيرة وجهاد وفكر جمال الدين منذ سنوات طوال.. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب على العقل المسلم المعاصر، ولا على مكانة جمال الدين.

- فجمال الدين الأفغاني هو واحد من أئمة الإسلام الذين تنازعهم كل أوطان وأقاليم عالم الإسلام، لأنهم عاشوا وجاهدوا في سبيل (دار الإسلام) - كل دار الإسلام - فكانوا أكبر من المعاني الضيقة للوطن والإقليم.

- وهو واحد من أئمة الإسلام، الذين ارتفع بهم الاجتهاد، والإيمان بوحدة الأمة، والوعي بالتحديات الشرسة التي تهدد وجودها، عن ضيق المذهبية وأغلال التعصب المذهبي، فتنازعت شرف انتسابه إليها كل مذاهب الأمة، بينما ظل هو العقل الجامع لعناصر الوحدة الإسلامية، والطاقة الخلاقة ليقظة الشرق، كل الشرق، بكل ما فيه من ملل ونحل ومذاهب وأقوام.. حتى أنني لا أرى له نظيرًا - في هذا الميدان - بترائنا الحضاري - إلا الإمام الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هجرية - ٦٤٢ -

٧٢٨ م) الذي تتلمذ عليه كل أئمة عصره، وخرجت من تحت عباءته كل مدارس ومذاهب وتيارات وثورات ذلك العصر، وازدانت باسمه وبترجمته كل كتب الطبقات التي ترجمت لأئمة كل المذاهب والتيارات!

هكذا كان جمال الدين الأفغاني الذي شرفت وتشرف به كل أقاليم عالم الإسلام.. وشرفت وتشرف به كل مذاهب أمة الإسلام.. والذي أيقظ الشرق، وترك بصماته الفكرية بكل ميادين الإحياء والتجديد لهذه الأمة، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي وحتى وقتنا الراهن.

- وإذا كان ما كتبه جمال الدين عن تاريخ بلاد الأفغان - (تتمة البيان في تاريخ الأفغان) - هو أقدم ما حفظ لنا التاريخ من تراثه الفكري.. وإذا كانت أماليه على محمد باشا المخزومي (١٢٨٥ - ١٣٤٨ هجرية ١٨٦٨ - ١٩٣٠ م) - (خاطرات جمال الدين الأفغاني) - هي آخر أماليه - في الأستانة - حيث انتهى به العمر والمطاف.. فإن إبداعه الفكري وجهاده العملي قد غطى سائر بلاد وعواصم عالم الإسلام.. من الهند.. إلى مصر.. إلى إيران.. إلى العراق.. إلى الأستانة.. إلى روسيا.. إلى الحجاز.. إلى أفغانستان.. إلى السودان.. وحتى لندن.. وباريس..

ولهذه العالمية - التي جسدت عالمية الإسلام - أجاد جمال الدين من اللغات، غير العربية والفارسية والأفغانية، التركية، والفرنسية، مع إلمامه بالإنجليزية والروسية. ومع هذه العالمية، كانت السنوات العشر التي عاشها جمال الدين بمصر (١٢٨٨ - ١٢٩٦ هجرية ١٨٧١ - ١٨٧٩ م) هي أخصب السنوات في تاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية.. فيها ربي نخبة من العقول التي جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين، وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - وشرح من كتب الفلسفة والكلام والمنطق والعرفان ما أعاد للحياة الفكرية قسمة العقلانية الممزوجة باللطائف القلبية والوجدانية، تلك التي غابت عن الثقافة الإسلامية منذ عصر التراجع الحضاري للمسلمين.. ونشأت على يديه مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة - غير الحكومية - وتيار شعبي لمعارضة الاستبداد الداخلي، وللثورة على النفوذ الأجنبي - الاقتصادي

والسياسي والعسكري والفكري - الزاحف على ديار الإسلام.. وكانت له - وهو الذي بلغ الذروة في البلاغة العربية - ريادة تجديد أساليب التعبير والتحرير للعربية - لسان الإسلام والقرآن - وتحريرها من ركافة وسجع عصر الانحطاط.. بل لقد عرفت مصر والشرق على يديه وقيادته، طلائع التنظيمات السياسية - (الحزب الوطني الحر) - في تلك الفترة المبكرة من حياة ونشأة الأحزاب والجمعيات والتنظيمات.

- وإذا كانت قوى الاستعمار الأوروبي وفي مقدمتها الاستعمار الإنجليزي - ومعها قوى الاستبداد الداخلي: ودوائر التقليد والجمود الفكري، قد حولت حياة جمال الدين الأفغاني إلى سلسلة متصلة من (النفى).. و(تحديد الإقامة).. و(رقابة الجواسيس).. و(التأمر).. و(التشريد).. فلقد حول الرجل هذه التحديات إلى إيجابيات، فكانت سياحاته عبر أوطان العالم الإسلامي، بل وفي المنافي خارج عالم الإسلام، فتوحات فكرية وثورية، جعلت كل سنوات حياته طاقات إيقاظ واستنارة وتحويل لشعوب الشرق وأمة الإسلام.. فمن منفاه - في باريس - ومن غرفة شديدة التواضع، فوق سطح أحد المنازل، أصدر - مع الشيخ محمد عبده - جريدة «العروة الوثقى»، لسان حال لجمعية «العروة الوثقى» - السرية - التي غطت (عقودها - خلاياها) أغلب بلاد الإسلام، والتي استقطبت صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين.. فكانت هذه المجلة - التي عالجهما الاستعمار بالمصادرة والتضييق بعد سبعة أشهر - (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هجرية - ٢٦ ذي الحجة ١٣٠١ هجرية - ١٣ مارس ١٨٨٤ م - ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م) - صدر فيها ثمانية عشر عددًا.. كانت أهم مدارس الوطنية الإسلامية والبعث الحضاري الإسلامي، التي تربى فيها وتعلم منها واستضاء بمنهجها دعاة اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد عالم الإسلام.. بل وظلت - حتى بعد توقفها - تنسخ أعدادها ومقالاتها.. وتعاد طباعتها، كدليل عمل لتيار اليقظة والإحياء والتجديد.. حتى ليحدثنا الشيخ محمد رشيد رضا عن دور مقالات العروة الوثقى في الانقلاب الفكري الذي حدث له، فيقول:

«ثم إنني رأيت في محفوظات والدي بعض نسخ (العروة الوثقى)، فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال.. كان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية، ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية.. والذي علمته من نفسي ومن غيري ومن التاريخ، أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرن قبله ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل ولا حد للبلاغة إلا هذا.. لقد تعلمت - من (العروة الوثقى) - أن الإسلام ليس روحياً أخروياً فقط، بل هو دين روحاني جسماني، أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة العدل.. ولقد أحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين، نهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم في الدنيا.. فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات، وجميع مقومات الحياة، فطفقت أستعد لذلك استعداداً»<sup>(١)</sup>.

فإذا علمنا أن هذا (المس الكهربائي) الذي أيقظت به مقالات العروة الوثقى عقل ووجدان وعزيمة رشيد رضا، قد جعل من الرجل - عبر مجلة (المنار) - ترجمان هذا الفكر، ورسول هذه اليقظة على امتداد العالم الإسلامي، لنحو من أربعين عاماً - (شوال ١٣١٥ جمادى الأولى ١٣٦٥ هجرية - مارس ١٨٩٨ - أبريل ١٩٣٥ م).. وأن (المنار) المجلة والمدرسة، التي أحيت (العروة الوثقى) - قد كانت (الرحم) الذي ولدت منه كل جماعات وتنظيمات اليقظة الإسلامية على امتداد عقود القرن العشرين.. أدركنا معنى الريادة والقيادة لجمال الدين الأفغاني في إيقاظ الشرق،

١. (تاريخ الأستاذ الإمام) ج ١ ص ٩٩٦، ٣٠٣، ٨٤ - ٨٧ طبعة القاهرة، ١٩٣١ م.

وإمامة الصحوة الإسلامية، التي غدت الآن أعظم ظواهر العصر الذي نعيش فيه.. وإذا كانت ريادة مصر لتيار اليقظة الإسلامية وثورات التحرر الوطني، على امتداد عالم الإسلام، هي حقيقة من حقائق تاريخ الشرق، الحديث والمعاصر، فإن دور جمال الدين الأفغاني وأستاذيته في هذا (الدور المصري) تشير إليها وتفصح عنها عبارات تلميذه، وأقرب الناس إليه وأخبرهم به، الشيخ محمد عبده، التي يقول فيها: «مال السيد جمال الدين إلى مصر.. فاهتدى إليه كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درًا، وحملوه على تدريس الكتب فقراً من الكتب العالمية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية، طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية، وعلم التصوف، وعلم أصول الفقه الإسلامي.

و كانت مدرسته بيته، من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم، ولم يذهب إلى الأزهر مدرساً ولا يوماً واحداً، نعم كان يذهب إليه زائراً، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة. عظم أمره في نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية.

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك أبواب واستضاءت بصائر، وحمل تلاميذه على العمل في الكتابه وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا، وتقدم فن الكتابة بسعيه، وكان أرباب لقلم في الديار المصرية، القادرون على الإجادة في الموضوعات المختلفة، منحصرين في عدد قليل، وما كنا نعرف منهم إلا عبدالله باشا فكري، وخيري باشا، ومحمد باشا سيد أحمد - على ضعف فيه - ومصطفى باشا وهبي - على اختصاص فيه - ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون في المراسلات الخاصة، وإما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها.

ومن عشر سنوات ترى كتبه في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه



أو عن أحد تلاميذه، أو قلد المتصلين به. ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر<sup>(١)</sup>.  
- ومن لندن - عاصمة الاستعمار الإنجليزي - الذي طارد جمال الدين.. والذي  
حاربه جمال الدين - بالفكر وبالسلح! - سطعت شمس أفكار جمال الدين على  
صفحات جريدة (ضياء الخافقين) (١٣٧٩ هـ - ١٨٩٢ م) فكانت مقالاته - بأعدادها  
الخمس الأولى - الامتداد لمنهجية ومقالات (العروة الوثقى).

\*\*\*

وإذا كان جمال الدين الأفغاني قد وهب حياته وطاقاته وملكاته لإيقاظ الأمة، كي  
تحرر وطنها من الاستعمار.. ودولها من الاستداد.. وفكرها من الخرافة والجمود  
والتقليد - تقليد عصر التراجع والانحطاط.. وتقليد النموذج الغربي الوضعي اللاديني  
- فإن كتاباته وأماله قد مثلت - ولا تزال - الأسس والمنطلقات للمشروع الإسلامي  
لإنهاض الشرق بالإسلام، وتجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين.  
- ففي مواجهة الاستلاب الحضاري، والتغريب للثقافة ومشروع النهضة.. دعا  
الأفغاني إلى إسلامية المشروع النهضوي، وإلى الإصلاح بالإسلام، لأن استقلال  
الهوية والفكر والثقافة هو الشرط الأول لاستقلال الوطن والأمة.. بينما التقليد  
لنموذج الغربي هو طريق التبعية التي تؤيد وتؤبد الاستعمار.. فكتب عن إسلامية  
مشروع النهضة والإصلاح يقول:

«إن الذين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو  
السبب المفرد لسعادة الإنسان.. إنه سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس  
للمدني بدون الدين البتة.. وأنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد  
ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن  
هذا الطريق. وإن ما تراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ  
بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط، لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم

١. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٢ ص ٣٤٢، ٣٤١، طبعة القاهرة - دار الشروق ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.

الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الأعجاب بالإيجاب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي.

وإن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها.. والتمدن الغربي هو، في الحقيقة، تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني.. ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطائع الجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

وإن الظهور في مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، ولا ضرورة في إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائل وسلوك المسالك التي جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وقر<sup>(١)</sup> أعجزها وأعوزها.

إنني أرسل فكري إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نباهة.. وأطلب أسباب نهوضها الأول.. إنه: دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان في مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.. فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت، وعنهما صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً، ففلاحها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.

١. الوقر: الثقل.

ومن يعجب من قولي - إن الأصول الدينية الحققة تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة. وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنهي بها إلى أقصى غاية في المدنية - فإن عجبني من عجبه أشد.. ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت العالم.

ولا سبيل لليأس والقنوط من العودة إلى هذا الطريق، فإن جرائم الدين متأصلة في النفوس والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططاً.. ولن يزيدها إلا نحساً، ولن يكسبها إلا تعساً..».

هكذا أعلن جمال الدين الأفغاني أن سبيل الإصلاح في هذه الأمة هو الإسلام.. وأنه هو طريق التغيير، ونموذج التقدم والنهوض.. وأن استعارة النموذج الغربي في التمدن والنهوض، هو طريق التبعية وتأييد العبودية لمركزية الغربيين الغزاة.. وأن المقلدين للنموذج الغربي هم عملاء الحضارة الغربية الذين لا يلبثون أن يفتحوا للغزاة الأبواب ثم يثبتون لهم الأقدام.

قال الأفغاني ذلك قبل أكثر من مائة عام.. وصدقت تجاربنا مع التغريب والمتغربين على هذا الذي قال!

\*\*\*

وإذا كان التنوير الغربي - الوضعي العلماني واللا ديني - قد أقام - باعتراف أهله - قطيعة معرفية مع الموروث الديني، وذلك عندما أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والكنيسة واللاهوت.. وأضفى الإطلاقية على القدرات العقلية، فرفع شعار: (لا

سلطان على العقل إلا للعقل)، فأحل العقل الإنساني محل الله، ذي العلم المطلق والكلي والمحيط.. واعتبر الدين مرحلة ناسبت طفولة العقل البشري.. وفرغ - بالتأويل - المصطلحات الدينية من مضامينها الدينية، فأُسنس الدين، وفرغه من جوهره ومحتواه!.. وبنص عبارة هؤلاء (التنويريين - الغربيين):

«بعد أن كان المسيحي حريصاً على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فأيدولوجية التنوير قد أقامت القطيعة (الإپستمولوجية) (المعرفية) الكبرى، التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس (توما الأكويني)، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعداً راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعاً لحكم الوعي البشري، الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر ولكنه لم يد يومهم أحداً، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني!..»<sup>(١)</sup>.

إذا كان هذا هو صنيع التنوير الغربي - الوضع العلماني - مع الدين، فإن جمال الدين الأفغاني قد أهال التراب على هذا التنوير اللاديني، ورآه دهرية تقف بالإنسان عند ظواهر الحياة الدنيا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]، وحيوانية تجرد الإنسان من الروح التي نفخها الله فيه، وتقف به عند الجانب الطبيعي الحيواني!.. ومن ثم، فإن هذا التنوير الطبيعي اللاديني يفتح أمام الإنسان الأبواب الواسعة لغرائز اللذة والإباحية والقوة المفترسة والمروق والضلال..

كشف جمال الدين الأفغاني هذا الوجه القبيح لهذا التنوير اللاديني.. ثم تألفت شجاعته الجسورة عندما شن الهجوم على هذا التنوير، وعلى الثورة الفرنسية - التي

١. إميل بولا.. (الحرية، العلمنة.. حرب شطري فرنسا ومبدأ العدالة) منشورات سيرف. باريس ١٩٨٧ م نقلاً

عن: هاشم صالح - مجلة الوحدة - الرباط. عدد فبراير - مارس ٩٢ م. ص ٢٠، ٢١.

كانت تجسيداً لفلسفته - وذلك في الوقت الذي كان فيه المتغربون - من الليبراليين واليساريين - يتعبدون في محاريب الثورة الفرنسية وفلسفة الأنوار الغربية، ويوم أن كان جمهور المثقفين والساسة في كل أرجاء الأرض يتحدثون بإعجاب تخالطه القداسة عن فلاسفة التنوير الغربي - من أمثال (قولتير) (١٦٩٤ - ١٧٧٨) و(روسو) (١٧١٢-١٧٧٨ م) - كتب جمال الدين عن هذين الفيلسوفين، وعن فلسفتيهما يقول: «لقد ظهر قولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول، فنبشاً قبر (أبيقور) الكلبي<sup>(١)</sup> (٣٤١-٢٧٠ ق.م) وأحييا ما بقي من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف ديني، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع عقيرته بالتشنيع على الأنبياء.. فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين.. فنبذوا الديانة العيسوية.. وفتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (في زعمهم)، شريعة الطبيعة. ولقد بذل نابوليون الأول جهده في إعادة الديانة المسيحية إلى الشعب، استدرأكا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل!».

فالإسلام هو الحل.. وهو سبيل الإصلاح.. وطريق التقدم والنهوض.. وليس هذا التنوير اللاديني، الذي عرفته الحضارة الغربية كرد فعل لاستبداد الكنيسة ولا عقلانية لاهوت نصرانيته.

\*\*\*

وفي مواجهة العقلانية اللادينية، التي دعا إليها التنوير الوضعي الغربي، ذلك الذي انطلق فلاسفته من دعوى الثنائية المتناقضة بين (العقل) و(النقل).. دعا الأفغاني إلى إحياء العقلانية الإسلامية المؤمنة، لأن الإسلام وحضارته لم يعرفا هذه الثنائية المتناقضة التي حكمت التنوير الغربي في هذا الميدان..

١. أبيقور: فيلسوف يوناني، أنكر العناية الإلهية، وجعل السعادة الإنسانية في اللذة.

فالنقل الإسلامي - القرآن الكريم - هو الذي يعلي من مقام العقل، ويحتكم إليه، ويجعله مناط التكليف.. بل إن هذا النقل الإسلامي هو، قبل كل شيء، معجزة عقلية، تحتكم إلى العقل، وليس معجزة مادية تدهش العقل وتشله عن التدبر والتفكير.. ثم إن المقابل (للعقل) - في العربية والإسلام - ليس (النقل)، وإنما هو (الجنون).. فلا مكان لهذه الثنائية في فكر الإسلام، ومن ثم فإن للإسلام عقلانية المؤمنة، التي تأخت مع الشرع، فتزاملا كسبيلين وهدايتين للإنسان، وهما، مع (التجربة) و(الوجدان) يمثلون الهدايات الأربع التي بشرها الله، سبحانه وتعالى، للإنسان، عند ما استخلفه لعمارة هذا الوجود..

دعا جمال الدين الأفغاني إلى إحياء هذه العقلانية الإسلامية المؤمنة، التي ترفض جمود الوقوف عند ظواهر النصوص، كما ترفض الغلو في التأويل، ذلك الذي يفرغ الدين من الدين!.. ويقف بالإنسان عند ظواهر الحياة الدنيا.. وكتب عن هذه العقلانية فقال:

«فهذا الدين الإسلامي يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب العقل، وكلما حاكم إلى العقل، تنطلق نصوصه بأن السعادة من نتاج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. فالعقل مشرق الإيمان، ومن تحول عنه فقد دابر الإيمان، وإن هناك فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من عتباره، لا يتعلق به عقد من عقود..

فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

إن أول ركن بني عليه الدين الإسلامي: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة

الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستارا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجليه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع..

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس.. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.. وعقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقدا لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا، فلا يكون مؤمنا.. وأولئك المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم.

هذا هو الإسلام.. وقلما يوجد من الأدينان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة..».

\*\*\*

وفي مواجهة نظام الإقطاع الزراعي، المنتشر في ممالك الشرق.. وفي مواجهة الرأسمالية الغربية المتوحشة، الزاحفة على عالم الإسلام، تنهب الثروات، وتقتل الاقتصاد الوطني، وتدعم الاحتلال العسكري، الذي تحتمي به.. دعا جمال الدين الأفغاني إلى قسمة من قسومات المشروع النهضوي الإسلامي، وهي وسطية الإسلام في العدل الاجتماعي.. وسطية الاشتراك في الثروات والأموال، المؤسس على فلسفة الاستخلاف، التي تجعل المالك الحقيقي - مالك الرقبة - في الثروات والأموال هو الله، سبحانه وتعالى، خالق وواهب ومفيد ومسخر هذه الثروات والأموال.. بينما

الإنسان - مطلق الإنسان - وليس (الفرد) أو (الطبقة) - مستخلف في هذه الأموال والثروات، له فيها ملكية الحياة، والاستثمار، والاستمتاع، في إطار بنود عقد وعهد الاستخلاف.. في إطار التكافل بين سائر أعضاء سد الأمة الواحد..

ولقد ميز الأفغاني بين هذه (الاشتراكية الإسلامية)، التي دعا إليها الإسلام، وبين (الاشتراكية الغربية)، التي هي نزعة انتقامية فوضوية، مثلت إفراط المستغلين، ضد تفريط ملاك رأس المال المستغلين.. فكتب - وكأنه يتنبأ بما حدث للمنظومة الماركسية بعد قرن - يقول:

«إن ما تراه الاشتراكية في الغرب، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب، في شكله الحاضر، وأسسها، وتخطيط واضعي مبادئه، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع..

فالاشتراكية الغربية، ما أحدثها وأوجدتها إلا حاسة (الانتقام) من جور الحكام والأحكام، وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء، الذين إنما أثروا من رواء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم في الخزائن، واستعملوا ثروتهم في السفه، وبذلوها في السرف والتبذير والترف، على مرأى من منتجها، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها، وبالاختصار، ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران.

فكل عمل يكون مرتكزاً على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط.. أفرط الغربيون (الأغنياء) ببذخ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبي حقوق الأمة، بالمناصب ومسببات الحياة، فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم في الاشتراكية فوضى، ولسوف ينعكس أمرها!

أما الاشتراكية في الإسلام، فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكننا الأخذ بها، لأن الكتاب الديني، وهو القرآن، أشار إليها بأدلة كثيرة، منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيعلم أن للخلق ربا واحداً وهو مع سائر



الخلق من المربوبين على السواء.. ومنها أن القرآن قد بين حقوق المستضعفين من الأمة، الذين لم يتمكنوا من لاشتراك مع أرباب القوة ورجال الحرب، فجعل لهم نصيبًا، إذ قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ الْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]..

وفي موضع آخر جاء القرآن مقررًا لمن يكتزون الذهب والفضة، ثم حبز وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة.. وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في آيات القرآن تترى..

وكان الإخاء الذي عقده المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بين المهاجرين والأنصار أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً..

فكل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام، لا تكون نيتها إلا ملحمة كبرى، وسيل الدماء ولا سيل لعرم من الأبرياء، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ينتفع به أحد من الخلق.. فاشتراكية الغرب كلمة حق يراد بها باطل.. واشتراكية الإسلام هي عين الحق، والحق أحق أن يتبع..».

\*\*\*

و لأن جمال الدين الأفغاني كان أكبر من فيلسوف.. وأعظم من مجتهد.. فلقد جمع إلى الفلسفة والاجتهاد ملكة التجديد لحياة الأمة ودنيا المسلمين، ومن ثم كان واعيًا بأن المشروع الإسلامي للنهضة، لن يرى النور، ولن يكون له حظ من التطبيق والسيادة والنجاح إلا بالانتصار على العقبات الكبرى التي تحول دون إقامة قواعد هذا المشروع.. وفي مقدمة هذه العقبات الكبرى:

١ - الاستعمار الغربي.. وفي المقدمة منه يومئذ الاستعمار الإنجليزي..

٢ - والاستبداد الشرقي.. الذي يشل طاقات الأمة، فيحول بينها وبين التصدي للاستعمار، وتمهيد الطريق للنهضة الإسلامية.

وإذا كان الكفران بالطواغيت هو المقدمة الضرورية للإيمان بالتوحيد لله، سبحانه

وتعالى، فإن العداء للاستعمار، والجهد في سبيل تحرير الوطن والأمة من كل ألوانه - الفكرية.. والعسكرية.. والاقتصادية.. والسياسية - هو المقدمة الضرورية لإقامة النهضة الشرقية على أساس الإسلام.. ولذلك، كانت حياة الأفغاني كلها صراعاً لا هوادة فيه ضد الاستعمار الغربي، الزاحف على أقاليم عالم الإسلام، وفي المقدمة منه الاستعمار الإنجليزي، الذي كان له نصيب الأسد في البلاد الإسلامية بذلك التاريخ.. وعن هذا الاستعمار كتب جمال الدين فقال:

«إنه لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضرر..! لقد صار الإنجليزي كالذودة الوحيدة، على ضعفها تفسد الصحة، وتدمر البيئة..!

وكيف نرضى، ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته»؟!.

ولقد خاطب جمال الدين أهل الهند - الذين تستعمر إنجلترا بلادهم - داعياً إياهم إلى الثورة على الإنجليزي، فقال:

«يا أهل الهند، وعزة الحق، وسر العدل، لو كنتم، وأنتم تعدون بمئات الملايين، ذباً لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل في آذان كبيرهم - (جلادستون) - وقراً، ولو كنتم، أنتم مئات الملايين من الهنود، وقد نسخكم الله فجعل كلاً منكم سلحفة، وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى، لجررتموها إلى القعر، وعدتم إلى هندكم أحراراً؟!».

ودعا أهل مصر إلى الثورة الشعبية على الاستعمار والاحتلال الإنجليزي، كما ثار الأفغان على هذا الاستعمار.. فقال:

«ذلك أن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهمزاهم، وما جري لحكومة

إنجلترا مع الأفغانيين أفضل شاهد على ما نقول..

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكري، واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ في البلاد، فلما قام الأهالي من كل صقع، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة إنجلترا، بعد تسلطها ستين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني، إلى ترك البلاد..

و إن على المصريين أن يقتدوا بالأفغانيين لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب.. وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة، وإنما ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من حشائه، وهي سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة.

وعلى المصريين عمومًا، وعلى الفلاحين خصوصًا أن يجمعوا، أمرهم على أن يمنعوا الحكومة (الإنجليزية) كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين: لا نطيع إلا حاكمًا وطنيًا.. فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارًا، بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه..».

إن مهادنة الاستعمار هي الخيانة بعينها (فلسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببًا في خطوة سيخطوها العدو على أرض الوطن، بل من يدع قدمًا للعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها..

\*\*\*

- ولم يكن الاستقلال، عند جمال الدين الأفغاني مجرد (عَلَم) و(نشيد).. بل ولا هو الاستقلال السياسي وحده. وإنما كان، مع الاستقلال السياسي.. والفكري، الاستقلال الاقتصادي، الذي يحرر ثروات الأمة وعالم الإسلام من استغلال ونهب الشركات والحكومات الاستعمارية ورءوس الأموال الأجنبية:

«فغاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هي: ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم، ينعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهي: نفص اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس أموال إسلامية. وفوق جميع هذا، هي: تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك والعقود، التي ما دامت خارجة من أيدي العالم لإسلامي فهو يظل عالة على الغرب»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وم الاستعمار - بتجلياته المتعددة - كان الاستبداد - بأشكاله المختلفة - الركيزة الأساسية، والتحدي الأخطر لنهضة الأمة وتحررها، وانعتاقها من قيود المآزق الحضاري الذي تردت فيه.. ولقد أولى جمال الدين الأفغاني هذه الجبهة - جبهة الاستبداد - عناية كبرى في سيرته الجهادية - الفكرية والعملية - فكتب - ضمن ما كتب - يقول:

«إن من الخير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاء له من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص..! وأن الفلاح والعامل والصانع في المملكة أنفع من عظمة الملك ومن أمرائه.. ولقد رأينا أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ولكن لم ير ملكاً عاش بدون أمة ورعية..!

وإن مصر لا تحيا، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويا عادلاً، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة.

فخير صفات الحاكم (القوة والعدل)، ولا خير بالضعيف العادل، كما أنه لا خير في القوي الظالم..

١. لو ثروب ستودارد (حاضر العالم الإسلامي) مجلد ١ ص ٢٨. ترجمة: عجاج نويهض، وتعليقات: شكيب أرسلان، طبعة بيروت الأولى.

وحكم مصر بأهلها إنما أعني به: الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح.. والقوة النيابية لأي أمة كانت، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوى أجنبية محرّكة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها..

إن إرادة الشعب غير المكره، وغير المسلوبة حريته، قولاً وعملاً هي قانون ذلك الشعب المتبع، والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له، أميناً على تنفيذه.. وعلى الحاكم أن يقسم لأمنه على صون الدستور وأن تتوجه الأمة على هذا الأساس، فإن حث بقسمه، وخان الدستور، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس..!!».

وإذا كان جمال الدين الأفغاني قد رفع شعار «الجامعة الإسلامية» ودعا إلى وحدة أمة الإسلام، وترابط أوطان المسلمين، وأقام في سبيل ذلك التنظيمات السياسية والفكرية التي جسدت «الأمة الإسلامية» مثل «جمعية العروة الوثقى» أصار لهذا الصحف والمجلات.. ومارس العمل في هذا الميدان حتى وافته المنية.. فلقد قدم لهذه «الجامعة الإسلامية» تصوراً «واقعياً..عصرياً» راعى فيه (التمييزات الوطنية) و(القطرية) و(القومية)... فتحدث عن:

«اتصال أوطان الدول الإسلامية في الأراضي، واتحاد شعوبها في العقيدة فكلهم يجمعهم القرآن»

ثم تسأل:

«أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟!

ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق في أصلو دينهم».

ثم مضى ليقول:

«لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته

بحياته وبقائه ببقائه. إلا أن هذا يعد كونه أساساً لدينهم، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى بعض معالم المشروع الحضاري النهضوي، الذي جسده حياة هذا المصلح الناصر، والناظر في سبيل الإصلاح.. والذي كانت كتاباته وأماله، وكوكبة العلماء والقادة والثور الذين صنعهم على عينه، في مختلف ربوع العالم الإسلامي، مكرسة جميعاً لهذا المشروع.. إنها من المسلمين بالإسلام.. وتجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا الشرق وحياة المسلمين..

وإذا كنا قد سبق وعقدنا لترجمات المستفيضة والدراسات الموسعة عن سيرة ومسيرة وأفكار جمال الدين الأفغاني - في التقديم لأعماله الكاملة.. وفي الكتب التي أصدرناها عنه.. فإننا نختم هذا التقديم:

«هو السيد محمد جمال الدين، بن السيد صفتي، من بيت عظيم من بلاد الأفغان.. حنيفي.. وهو، وإن لم يكن في عقيدته مقلداً، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية.. يمثل لناظهر عربياً محضاً من أهالي الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين سكينة الحجاز.. وكان مقصده السياسي، مدة حياته: إنهاء دولة إسلامية من ضعفها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيرة والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدین الحنيفي مجده..

أما أخلاقه، فسلامة في القلب سائدة في صفاته، وحلم عظيم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أودينه فينقلب الحلم إلى غضب

١. جميع النصوص التي أوردناها للأفغاني - في هذا التقديم - مصدرها الطبعتان التان سبق أصدرناهما لأعماله الكاملة.. طبعة القاهرة ١٩٦٨ وطبع بيروت - ج ١، ٢ - ١٩٧٩ م، ١٩٨١ م.. ولقد صدر لنا عنه أيضاً كتابان هما: (جمال الدين الأفغان - موقف الشرق وفيلسوف الإسلام) طبعة القاهرة ١٩٨٨ م، و(جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض) طبعة القاهرة ١٩٩٧ م، هذا إلى العديد من الدراسات والأبحاث في العديد من المؤتمرات العلمية والدوريات الفكرية المتخصصة.

تنقضُ منه الشهب! فبينما هو حلیم أواب إذا هو أسد وثَّاب!  
وهو كريم، يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله، لا يبالي ما تأتي به صروف  
الدهر. عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه.  
طموح إلى مقصده السياسي.. إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه -و  
كثيرا ما كان التعجل علة الحرمان.  
وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور،  
عزوف عن صغارها، شجاع مقدام، لا يهاب الموت، كأنه لا يعرفه.  
إلا أنه حديد المزاج - وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعت الفطنة - إلا أنه صار في رسو  
الأطواد وثبات الأوتاد.  
فخور بنسبه إلى سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، لا يعد نفسه مزية أرفع ولا  
عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر..  
ولو قلت: إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما  
قدر لغير الأنبياء، لكنك غير مبالغ!.. فكأنه حقيقة كلية، تجلت في كل ذهن بما  
يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يشاكلة!  
لقد أوتيت من لدنه حكمة أقلب بها القلوب، وأعقل بها العقول! وأعطاني - حياة  
أشارك بها محمدا ﷺ، وإبراهيم، والأولياء والقديسين! <sup>(١)</sup>.  
ذلكم هو جمال الدين الأفغاني... موقظ الشرق.. وفيلسوف الإسلام.. والمشروع  
النهضوي الإسلامي، الذي يجده الباحثون والقراء في آثاره الفكرية التي قدمنا بين  
يديها هذه الصحف.. الآثار التي قام بجمعها ودراستها والتعليق على بعضها، العالم  
الكبير والشهير، **السيد هادي خسرو شاهي**، وهي حصيلة جهوده المستمرة منذ  
نصف قرن، نضعها اليوم بين أيدي الجميع  
والله نسأل أن ينفع بها، طاقة خلاقة في إيقاظ الأمة.. إنه سبحانه وتعالى خير  
مسئول وأكرم مجيب.

القاهرة في غرة محرم ١٤٢٢ هـ

١. انظر هذه الترجمة كاملة في: (الأعمال الكاملة للإعلام محمد عبده) ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٤٥. دراسة  
وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٣ م.

٤٠ □

---

٢٦ مارس ٢٠٠١ م

اكتور / محمد عمارة



جمال الدين الحسيني

حياته ونضاله

سيد هادي خسرو شاهي

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

حين تغفو بعض الأمم لفترة من تاريخها يعبث بمصيرها أبالسة جهنم وزبانية سقر ولا تستفيق حتى يمن الله عليها برجال يعرفون الحق ويتبعون سواء السبيل حاملين في أعناقهم رسالة تدعو إلى الإصلاح والتوحيد للنهوض بهذه الأمة من جديد، محاولين تخليصها من تسلط العتاة وتحكمهم تجبر المستكبرين واستعلائهم معيدين لهذه الشعوب تصورها الصحيح للعقيدة عبر صراع شديد وطويل مع الفئات الباغية، كي تستوي كلمة الحق وتعلو بعد أن تنهار الممالك والعروش التي قامت خلال هذه المدة من الزمن.

وكلما بعث الله مبشراً ونذيراً قام له مناوئون وكلما جاء رجل صالح هبّت لمحاربته زبانية من عبدة الطاغوت حتى إذا اكتملت الصورة بدأ الصراع بين الخير والشر واضحاً مجسداً برجل بسيط مؤمن قد هداه الله الصراط المستقيم وبين مؤسسات وأجهزة وسلطات وعروش لا يهمها سوى عرض الدنيا ولا تحسب للآخرة أي حساب.

ولقد جاء التاريخ بأمثلة كثيرة وأنبت رجالاً كثيرين وشهد صراعات مريعة لا تنتهي بين الخير والشر. لا تنتهي لأن الحملة المسعورة التي يشنها الفجّار تبقى مستمرة حتى بعد موت الصالحين، ويبقى همّ المستكبرين تحطيم الصورة المثلى للقدوة الصالحة كي لا يكون له أدنى تأثير على الأجيال التالية بعد موته؛ لذلك تعمد الفئة الباغية دائماً على تفتيت الأرضية الصلبة التي خلفتها الدعوة لله، وذلك من خلال التشكيك بصاحبها من جهة والافتراء والتزوير في أعماله وأقواله من جهة

أخرى.

من هؤلاء واحد تعرض في حياته لما تعرض، ويتعرض بعد موته وفي الخمس سنوات الأخيرة من أيامنا إلى حملة افتراء منظمة، تحاول النيل من تاريخه الجهادي وتراثه الفكري ومنهجه الإسلامي بالاستناد إلى معلومات ملفقة ووثائق مزورة من جهة، وبالتشكيك في سلوكه السياسي وعلاقاته المتنوعة من جهة أخرى.

لقد امتدت يد الإثم مرة أخرى إلى العالم المناضل السيد جمال الدين الأفغاني فحاولت أن تنسب إلى اسمه وأصله ومكان ولادته تشويهات ما أنزل الله بها من سلطان إلى درجة إصدار كتاب عنه تحت عنوان «إيراني غامض في مصر»!! ونحن في هذه المقدمة لا يهمنا على الإطلاق أن يكون الأفغاني من مواليد إيران أو أفغانستان، لأن الحكم على الرجل يأتي من خلال جهاده الطويل وفكره السليم ودعوته المستمرة لتحقيق وحدة المسلمين.

ولكن يهمنا أن نعلن وبصراحة بأن هذه الأقسام المحسوبة على الإسلام والممعة في نبش تاريخ أعلام الثورة الإسلامية - وخاصة جمال الدين - لا تريد إلا ضرب الصحو الإسلامية - في كل مكان، ولكن كيف وبأي وسيلة؟

فالهجوم على شخصية السيد جمال الدين الحسيني وجهاده، تحت ستار «الدراسة الأكاديمية»! ثم تعريب ونشر أكاذيب الكاتبتين: الأمريكية «نيكي كدي» والإيرانية «هما ناطق»، لا يأتي إلا لأجل تشويه سمعة السيد بين الشباب المؤمن المسلم، فهم لا يبعون إلا أن يقولوا للشباب بأن النهج - الذي تسرون عليه ليس بأصيل، بل إنه يمتد إلى جذور «ماسونية»!!

وليقولوا للمسلمين في كل مكان، بأن أطروحة السيد، في الكفاح ضد الظالم والمستبد والمستغل لا تمثل طموحاتكم في تحقيق العدالة الاجتماعية.

ويقولوا للمسلمين العرب بأن السيد كان شيعيا إيرانيا غامضا! وعلى من يريد انتهاج درب جمال الدين أن يفهم أنه يرتبط بحركة إسلامية غير سنية! ويقولوا للإيرانيين، بأن السيد كان أفغانيا سنيا! فما بالكم بالاهتمام به

وبأفكاره...؟! ولكن الأسئلة المتتالية، قد تبقى في ذهن الشباب، وفي كل مكان: إذا كان السيد ماسونيا فلماذا كانت تطرده الطواغيت من كل بلد؟ وإذا كان طائفيا فكيف كان مع الشيعة في إيران والعراق، ومع السنة في أفغانستان والهند ومصر و...؟ وإذا كان إيرانيا طائفيا غامضاً! فلماذا كان يفكر في وحدة المسلمين؟ وإذا كان أفغانيا سنيا فكيف يحرض علماء الشيعة في إيران والعراق للقيام بالثورة ضد الطواغيت والاستعمار؟ وإذا...

والشباب، شباب الصحوة الإسلامية يجيبون على هذه الأسئلة وغيرها بأنفسهم، رغم ما يكتبه «كتاب السلاطين»:

فالسيد الحسيني لم يكن إيرانيا ولا أفغانيا ولا مصريا ولا عراقيا ولا... ولا... بل كان عالماً مجاهداً، أسد أباديا وكابوليا وإسلامبوليا كما جاء في توقعاته المتعددة - لأنه وقف ضد الطغاة في كل مكان، وطالب بإقامة الحكم الإسلامي والوحدة الإسلامية، ودعا لنصرة المسلمين في أفغانستان والهند ومصر والسودان وتركيا وإيران و...

وكان مصريا وسودانيا أيضاً، حيث واجه الاحتلال البريطاني لمصر والسودان (راجع مقالاته في العروة الوثقى)، وقبل وبعد هذا كله فهو كان حسينيا كربلائيا، لأنه رفع راية الرفض ورفرف علم الحرية وقد تسلمها من جده الشهيد الإمام الحسين (رضي الله عنه) وبذلك كان السيد الحسيني أسلامياً يدافع عن كل العالم الإسلامي، ولأجل هذا فهو حي في ضمائر الشباب في كل من مصر والعراق وإيران وأفغانستان والهند وباكستان وتونس والمغرب... وفلسطين وفي كل خلية تنبض بالرفض لكل أنواع التبعية والاستعمار.

أجل، أيها الإخوة، سوف يبقى جمال الدين الحسيني الرمز النائر بين الشباب، رغم الأفلام الفاسدة التي تريد اغتيال فكره وجهاده - بعد اغتياله جسدياً بواسطة عملاء الطاغوت - لتنتزعه من قلوب الشباب الواعي؛ لأنه كان يرجو المسلمين بأن: «يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين» ولأنه كان يعلم دائماً: «فلا بد

إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخره...». ... يريدون اغتياله نهائياً، لأنه قال: «خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال» وهذا ما يخشاه الاستعمار والطواغيت! وتريد الأقلام المرتزقة نفيه على الإطلاق وإلى الأبد!

... وإذا كان السيد الحسيني قد توفي دون تحقيق حلم الوحدة بين المسلمين، وإعلاء كلمة الإسلام في البلاد، فإنّ الفكرة بقيت حية عند الضمائر الحية، تتطلع لها قلوب المسلمين في كل مكان.

\*\*\*

واليوم وبعد مرور الذكرى المئوية لصدر جريدة «العروة الوثقى» وهي المجلة الإسلامية العالمية الأولى التي أصدرها الأفغاني بالتعاون مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكرد على حملات التشويه والافتراء، نعيد طباعة المجموعة الكاملة (١٨ عدداً) مع نبذة صغيرة عن حياة العالم المناضل وأفكاره، وذلك كهدية للعالم الإسلامي ودفاعاً عن الحق والعدل وخدمة للتاريخ.

\*\*\*

### حياة الأفغاني ونضاله

في حياته كان مائلاً للدنيا وشاغلاً للناس، وبعد ما يقرب من قرن على وفاته لم يزل بتوقّده وتوجهه مائلاً للدنيا وشاغلاً للناس. في حياته كان صديقاً للعامة، للفقراء، وكان قريباً من الحكّام والوجهاء والقادة، وبعد قرن على وفاته، لم يزل في صف الناس - عامة الناس - وإن اختلف حوله القوم ومن يمثلهم.

عاش حياته القصيرة محلّقاً كنسر شرقي، يطوف بالبلاد والحواضر، وطموحه يكاد يحيط بكل البلاد والحواضر، حمل هموم الأمة وكأنّها عائلته الصغيرة، وعمل لمشروع نهضتها وصعودها في كل دقيقة من عمره وكأن ما يعمل له كان قاب قوسين

أو أدنى، ومات كأبطال الأساطير بعد أن أثقلته أحزان الإحباط والفشل والوحدة. كان حراً شريفاً ألبياً. وما يثير الحزن أنه مات متألماً وحيداً ولم يكن يدري أن مشروعه ما كان ينتهي، بل كانت تلك بدايته فقط... أو لعله كان يدري. إن الرجل الذي يدين له كل الإسلاميين اليوم من «أرخبيل الملايو» إلى «وادي الذهب» بأنه حامل بذرة البداية وحاضنها وناثرها في كل البلاد، إنه السيد جمال الدين الأفغاني - الأسد أبادي.

### الصقر المحلق

كان مولده في أسد آباد حوالي ١٨٣٨ م، وفي السنين الأولى من عمره كان يجلس في النجف للدراسة، وبعد خمس سنوات يعود إلى بلده وفي نيته الذهاب للهند لإكمال دراسة العلوم والمعارف التي لم يستطع دراستها في العراق وقد سأله والده البقاء والاكتفاء بما تعلم ولكن طموحه العظيم كان يدفع به إلى قدره، قال: «إنني كصقر محلق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقاً لطيرانه! وإنني أتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيق الصغير».

كان القرن التاسع عشر قد بدأ في قطع سنوات نصفه الثاني حين بدأ جمال الدين رحلته الطويلة المرهقة، وكانت أوروبا قد سارت شوطاً هائلاً في مشروعاتها التصنيعية الداخلي ومشروعاتها الاستعمارية الخارجي، لقد زحف الغرب الاستعماري على العالم فاحتل معظم أجزاء إفريقيا والهند وشمال إفريقيا الإسلامي - ما عدا ليبيا - وكان يطمح إلى أن يدمر ما تبقى من الوطن الإسلامي بتدمير الدولة العثمانية، وبالتالي بسط هيمنته على كل العالم القديم. وفي كلكتا حيث قضى الأفغاني حوالي العام في العلم والدراسة، كان واقع الرحلة يحيط به من كل الجهات. وقد مضى من الهند إلى جدة حاجاً وهو في حوالي التاسعة عشرة من عمره، ومنها إلى النجف وكربلاء، ثم إلى بلده أسد آباد وإلى طهران ثم خراسان ومنها قرر التوجه إلى أفغانستان حيث استقر في كابول وبدأ حياته العامة هناك كما يقول د. محمد عمارة - ألف أول كتبه

حول تاريخ أفغانستان، وقد كتبه بالعربية وسماه (تتمة البيان في تاريخ الأفغان). كانت أفغانستان في ذلك الوقت ميداناً للدسائس الإنجليزية، حيث كان الاستعمار البريطاني يأمل في السيطرة عليها بإذكاء الصراع بين أمرائها وشحن أحدهم ضد الآخر، وقد دخل الأفغاني إلى حمى الصراع الذي كان طرفاه حينها الأمير دوست محمدخان، وثيق الصلة بالاستعمار البريطاني، والأمير محمد أعظم خان الذي كان معادياً للإنجليز. وقد انحاز الأفغاني للجانب المعادي للإنجليز وكان ذلك أول موقف سياسي له وأول خيار واع لازمه حتى نهاية حياته.

استمرت حياة الأفغاني في أفغانستان حتى ١٨٦٨ م. أثناءها تولى منصب الوزير الأول - كما يقال! - في حكومة الأمير محمد أعظم خان، وخاض حرب ١٨٦٢ م ضد دوست محمدخان وجماعته. وقد انتقل التأييد الإنجليزي بعد وفاته، إلى شير على خان الذي استطاع أخيراً إيقاع الهزيمة في معسكر محمد أعظم، وكان ذلك مقدمة الشدة على الأفغاني الذي عزل من كل مناصبه وعاش محاصراً مراقباً في كابول إلى أن وافقت الحكومة على طلبه بمغادرة البلاد مشترطة عدم ذهابه إلى إيران حتى لا يلتحق بمحمد أعظم خان الذي كان يعيش منفياً فيها.

ولم يكن أمامه من طريق إلا الهند، حيث كان الإنجليز يحتلون البلاد ويحتفظون له بملف عداثة ومحاربتة لنفوذهم في كابول. ورغم استقبال العلماء والوجهاء وقادة الرأي من المسلمين الهنود له، ورغبتهم في لقائه والالتفاف حوله وهو الذي سبقته أخباره إليهم، إلا أن حكومة الهند البريطانية لم تكن مطلقاً على استعداد لتحمل بقاءه، وبعد أشهر فقط من وصوله إلى الهند، كان الإنجليز يضغطونه على إحدى سفنهم المسافرة إلى مصر سرّاً حتى لا يثور الناس.

وفي عام ١٨٦٩ م وصل السيد جمال الدين الأفغاني إلى القاهرة، وكانت تموج يومها بالأحداث والتيارات، ما بين أوروبا الزاحفة ببريق مدنيته وصعودها المادي والأستانة حيث الانتماء التاريخي السياسي وحلم بقاء الإسلام والمسلمين، وما بين أمة تريد حقوقها في الحرية الحقيقية والعدالة وقصر الخديو المتردد بين الخوف

على السلطة وأحلام الإمبراطورية التي غذتها جغرافيا مصر ومركزها العظيم. وفي القاهرة التّفّ حوله الناس، من طلاب الأزهر إلى كبار رجال الدولة والسياسة، ولكن مشروعه كان يتبلور في ذهنه، والصقر المحلّق الساكن روحه، يدفعه إلى موقع آخر، كان جمال الدين الأفغاني قد بدأ يدرك آفاق أزمة الأمة وتخلّفها وتكالب دول الغرب عليها، ووجد أن الأمل في الإصلاح، إن كان ما يزال هنالك وقت لذلك! لا بد أن يبدأ من المركز من الأستانة.

وهكذا بعد أربعين يومًا فقط من الإقامة في القاهرة، كان السيد جمال الدين يحمل كتبه التي رافقته إلى كل محطات رحلته ويبحر إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن السلطان عبد الحميد قد تولّى الحكم بعد.

وقد استقبلته الأستانة في استقبالا حارًا وعيّن هناك عضوًا في «المجلس الأعلى للمعارف» وبدأ نشاطه الواسع، ثقافيًا بشكل أساسي وسياسيًا بشكل ثانوي، وكان في محاضراته وندواته وأحاديثه يركّز على تحرير الإسلام من التواكل والفكر من الخرافة و يدعو إلى عقلانية الفكر الإسلامي وبرهانيتيه. ولكن الأمور لم تجر مجرى حسنًا، فقد بدأ الوهج الذي أحاط به يثير الحسد والغيرة في عاصمة كانت تعيش آخر مراحلها وقد تحوّلت من عاصمة للقوة والفتح إلى مركز للتأمر والدسائس والأطماع من كل جهة.

وكانت محاضراته التي ألقاها في دار الفنون - مثل كلية للتكنولوجيا في وقتنا الحاضر - والتي تحدّث فيها عن «الصناعات» موضعًا أفكاره حول النهضة، كانت تلك المحاضرة بداية لعاصفة كبيرة كانت نذرها تتجمع حوله منذ زمن، وقد تطورت الأمور إلى أن انقسمت الأستانة إلى معسكرين، أحدهما مع الأفغاني والثاني مع شيخ الإسلام الذي كان يمثّل السلطة الرسمية الدينية في الدولة التي تسيطر عليها المتصوفة والفكر الصوفي منذ زمن بعيد. ومع اشتداد الهجوم عليه طلب منه السلطان مغادرة الأستانة لفترة مؤقتة ريثما يهدأ الضجيج المثار حوله، فغادرها ليصل القاهرة مرة أخرى في آذار (مارس) ١٨٧١ م.



## مؤازرة محمد عبده

يقول الشيخ محمد عبده صديق جمال الدين ورفيقه وتلميذه لفترة طويلة من الزمن واصفًا مصر في تلك الفترة ووصول الأفغاني إليها: «إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٧ م كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكًا لحاكمهم الأعلى، ومن يستنبيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته.. ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيًا يحق له أن يبديه في إرادة بلاده.. أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحًا لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصروفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربهم عليه، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي إلى ذلك التاريخ الذي ذكرناه ١٨٧٧ م، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الإسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبها، ومع إسماعيل باشا أبدع «مجلس الشورى» في مصر سنة ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم وأن لهم رأيًا يرجع إليه فيها، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية.

.. هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يؤمر به! هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له، أو الوجهة التي يتوجه إليها الحاكم! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خير من ذلك؟ هل كان يمكنه أن ينطق بما حدث به فكره؟ كلا فإنه كان، بجانب كل لفظ نفي عن الوطن، أو إزهاق للروح، أو تجريد من المال.

... وبينما الناس على هذا، لا كاتب ينبههم ولا خطيب يعظهم، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه، وإن كان مما جرت به السنة الإلهية في كل زمان.

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع، جم المعارف جريء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال

الدين الأفغاني، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية.. وكان طلبة العلم يتنقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة».

### أخصب السنوات

في مصر أمضى جمال الدين أخصب سنوات حياته وأكثرها إنتاجاً وأثراً، فقد اهتم بالإسلام علماً وتراثاً، وكشف أمام من التفوا حوله واستمعوا له قيمة أن يبعث تراث الأمة في عصرنا المزدهر من جديد، وقيمة أن تتمثل الأمة تاريخها وتراثها لتنهض في مواجهة الاستعمار الغربي، وقد أدرك أن حالة الهبوط والانحطاط قد أصابت كل أدوات الحضارة بما فيها اللغة وأسلوب الخطاب. ومن حول الأفغاني نشأت لغة جديدة وبلاغة جديدة، وفي فترة قصيرة أخذ أصدقاء وتلاميذ جمال الدين يصدرون الصحف والمجلات التي أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة الفكرية والسياسية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد بدأ العمل بإصدار صحيفة «مصر» التي ترأس تحريرها أديب إسحاق، ثم «التجارة» باسم إسحاق وسليم النقاش معاً، و«امرأة الشرق» التي أصدرها تلميذه إبراهيم اللقاني.

وكان الأفغاني يدرك أن حسم قضية مصر لن يكون في نهاية الأمر إلا باستنهاض شعب مصر، وفي كل ندواته ومحاضراته كان يوجّه حديثه مباشرة للمصريين، كل المصريين، لأن يقفوا من أجل حقوقهم ضد طبقة المترفين من الشراكسة وباقي المماليك، وأن يعوا أطماع المستعمر الأوروبي التي كان يراها تهدد كل مستقبل مصر. وبعد زمن قليل كان الأفغاني يؤسس أول وأهم أحزاب مصر الحديثة «الحزب الوطني» الذي ضم معظم وجوه الرأي والفكر وأحرار السياسة والجيش في مصر. وقد كان هذا الجيش هو الأب الشرعي لثورة عرابي عام ١٨٨١ م.

ولكن قنصلي الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا أدركا بعد زمن قصير أي

عاصفة تلك التي تتجمع تحت عباءة السيد جمال الدين، وبدأت حملة من الدس والتحرّيش لدى الخديو توفيق الذي لم يكن بحاجة إلى كثير من التحريض. فالرجل - الأفغاني - كان خطرًا على مصالح الاستعمار الأوروبي بالدرجة نفسها التي كان يشكّل فيها خطرًا على أدوات الاستعمار، ولم تكن تجربته في أفغانستان ببعيدة عن أذهان كل الأطراف.

وفي ليل حار من ليالي القاهرة في ٢٤ آب (أغسطس) ١٨٧٩ م، اقتيد الأفغاني وحيداً من أمام منزلة إلى مركز الشرطه، ومع أول شعاع للفجر أخذ إلى قطار السويس، وفي ميناء المدينة أركب أول سفينة مغادرة بر مصر. في القاهرة كان الخديو ورجاله يغطون فعلتهم بسيل من الاتهامات والطعن في ظهر الرجل الذي كان قبلها بأيام قليلة فقط نجم مصر في الفكر والسياسة. كان ما حدث في ذلك الصيف القاهري الحار انقلاباً حقيقياً قامت به السفارات الأجنبية والقصر على قيادة الشعب المصري الجماهيرية لإجهاض حركته المتوقعة، ولكن الانقلاب لم يكن كاملاً، فبعد عامين فقط كان تلاميذ الأفغاني يتصدّون لتوفيق ويضيئون تاريخ مصر الحديثة في ثورة عرابي.

وصلت سفينة الأفغاني إلى بومباي التي قضى فيها حوالي العامين عاملاً بجهد لا يوصف من أجل توثيق علاقانه بكل القوى والفعاليات السياسية في البلاد، وعندما بدأت الحركة العرابية في مصر، ضيق عليه الإنجليز الحصار خوفاً من أن تؤدي اتصالاته إلى تصعيد في الحركة، وقد نقل من بومباي إلى كلكتا، وعندما وصلته أخبار فشل العرابيين في مصر واحتلال الإنجليز لأرض الكنانة، بدأ مشروع الأفغاني الكبير في النضوج، والذي تمثل فيما بعد بتشكيل إسلامي عالمي تحت اسم «العروة الوثقى»

ضم الكثير من قادة ورجال الأمة الإسلامية في العالم.

## الهجرة إلى باريس:

اختار الأفغاني في تلك الفترة باريس مركزا لنشاطاته السياسية بسبب عوائق وقفت في وجه نشاطه السياسي في غيرها. إذ كانت مصر البلد الإسلامي الوحيد الذي يحظى بحرية الصحافة وتتركز فيه النشاطات الثقافية والسياسية، احتلها الإنجليز إبان الثورة العراقية عام ١٨٨٢ م واعتقلوا المفكرين والثوار وسجنوا منهم بعضًا ونفوا البعض الآخر وأغلقت الجرائد والصحف وحجروا على الحريات العامة. وأما الهند فقد كانت مستعمرة بريطانية منذ عام ١٨٥٧ م وغير ملائمة لأي حركة موقظة. وفي طهران لم يستطع الشاه أن يحتمل آراء جمال الدين الثورية. وأما إستانبول وبالرغم من وجود أصدقاء ومريدين للأفغاني، فقد كانت هنالك تيارات وشخصيات عديدة لم تسمح له بحرية العمل.

كما أن البلدان الأخرى قد سقطت، أما القسم الآخر فقد سقط تحت الحكم الاستبدادي، ولم يبق للأفغاني خيار إلا أن يسافر إلى أوروبا لكي يستأنف من هناك نشاطه، وكان طبعًا أن يختار الأفغاني باريس وليس لندن، حيث كان كفاحه السياسي الرئيسي موجّهًا ضد الإنجليز واستبدادهم وجرائمهم في البلدان الإسلامية.

وصل الأفغاني إلى باريس بعد عام من فشل ثورة عرابي في مصر، والتحق به تلميذه وصديقه محمد عبده، الذي كان منفيا في بيروت. وفي غرفة صغيرة على سطح إحدى عمارات شارع «مارتل» أصدر الأفغاني مع صديقة محمد عبده الأعداد الأولى من الجريدة التي تركت بصماتها على كل ذلك الجيل، والتي أخذت اسم الجمعية السرية (العروة الوثقى) التي سبق للأفغاني أن أسسها واختار أعضائها من صفوة المفكرين الملتزمين من مختلف البلدان الإسلامية ومن أصدقائه ومريديه.

وقد أخذ اسم الجمعية من الآية القرآنية الكريمة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ويدل اسم الجمعية على أهدافها الوجودية الإسلامية، وعلى تمسكها

بالدين ونضالها ضد الطواغيت. وكان اهتمام الجمعية موجّهًا للدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة، وبصورة خاصة عن المصريين بعد أن احتل الإنجليز بلدهم. يقول الأفغاني: «إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحتلها سواها، نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع». وحاولت الجمعية كذلك أن تتصل ببعض السياسيين الأوروبيين لحفظ حقوق المسلمين: «إن الجمعية قد عقدت الروابط الأكيدة مع الذين يتلملون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهل أوروبا». وأما سرية الجمعية فقد كانت أمرًا فرضته عليها الظروف السياسية في الشرق حينذاك.

\*\*\*

## العروة الوثقى

### فجر الصحافة الإسلامية

وحصل أن اتفق أعضاء جمعية العروة الوثقى على إصدار جريدة عربية كما تشير المقالة الافتتاحية للجريدة: «واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وأن تكون في مدينة حرّة كمدينة باريس؛ ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيهًا للغافل وتذكيرًا للذاهل».

وقد كُتب على غلافها: (بسم الله الرحمن الرحيم. العروة الوثقى لا انفصام لها).  
مدير السياسة: جمال الدين الحسيني الأفغاني.  
المحرر الأول: الشيخ محمد عبده.

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية.  
من شاء أن يبعث إلينا بتحرير أو رسائل في أي موضوع كان، رغبة نشره في الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان: 6Rue Martela Paris.

### مساهمات القادة السياسيين

وتشير بعض المصادر إلى مساهمة سعد زغلول باشا (١٨٥٧-١٩٢٧) في العمل. كما أنه توجد في بعض الوثائق الأخرى إشارة إلى مساهمة إبراهيم المويلحي (١٨٤٦-١٩٠٦). ومن المعروف أن الأفغاني ترك حقيبة من الوثائق والأوراق عند صديقه الحاج محمد حسن أمين الضرب في إحدى رحلاته إلى طهران. وقد نشرت جامعة طهران قسمًا من هذه الوثائق قبل سنوات. وتوجد ما بين الوثائق مقالة بقلم

الكاتب المصري إبراهيم المويلحي، حوالي عام ١٨٨٦ م حيث يشير فيها المويلحي إلى وصوله إلى الأربعين من العمر، ويتحدث في مقاله عن خلافه مع رياض باشا الذي أجبره على ترك مصر والإقامة في أوروبا. وفي عام ١٨٨٣ م كان يعيش في إيطاليا وهناك سمع خبر قدوم الأفغاني إلى باريس. وكانت بينهما صداقة وطيدة في مصر. ويقول: «بعد أن الأفغاني قد جاء إلى باريس من الهند كتبت إليه أن ننشر جريدة العروة الوثقى».

والظاهر أن المويلحي كغيره من أصدقاء ومريدي الأفغاني، كان عضواً في جمعية العروة الوثقى، ولم تكن له مساهمة مباشرة مستمرة في المجلة. ولم تكن هيئة تحرير المجلة تضم إلا الأفغاني وعبد و مترجم، كما يشير إلى هذا محمد رشيد رضا في «تاريخ الأستاذ الإمام» بقوله: «لم يكن محرر سواه، إلا من كان يترجم بعض الأخبار من الجرائد الأوروبية ويلقيها إلى الشيخ ليصححها وينفخ فيها روح البشر».

### توزيع الجريدة مجاناً

كانت الجريدة ترسل إلى البلدان الإسلامية مجاناً، وقد كتب في الصفحة الأولى من كل عدد: «ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية مجاناً. وقد عينت أجرة البريد خمسة فر نكات في السنة لمن تسمح بها نفسه». وكذلك ذكر محرر الجريدة في مقالته الافتتاحية في العدد الأول: (أن المجلة) ترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل؛ ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلى أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده».

وكان المصدر المالي للمجلة يأتي من جمعية العروة الوثقى. وقد تساءل بعض الباحثين عن احتمال أن يكون السلطان العثماني قد أرسل مساعدات للمجلة؛ لأن المويلحي يقول في ترجمته الذاتية: «وأنشأ الأفغاني الجريدة في باريس ودافع عن حقوق الدين، ودعا المسلمين للوحدة باسم أمير المؤمنين (أي: الخليفة العثماني)

وأبغض هذا الخديو». والظاهر أنه لم تكن هناك مساعدة مباشرة من الأستانة رغم أن السياسة الوحودية الإسلامية للمجلة تصب لصالح السلطان. ومما يؤيد ذلك كثرة المشكلات المالية التي واجهت المجلة بعد ثمانية أشهر وأدت إلى توقف نشرها.

### مكانة «العروة»

صدر العدد الأول من العروة الوثقى في يوم الخميس ١٣ آذار (مارس) عام ١٨٨٤ م (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ) واستمرت حوالى ثمانية أشهر حتى توقفت بعد صدور العدد الثامن عشر والأخير منها في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٨٤. برغم أعدادها القليلة وفترة حياتها القصيرة، فقد احتلت العروة الوثقى في تاريخ الحركة والصحافة الإسلامية الحديثة مكانة مرموقة لم تصل إليها أي جريدة حتى الآن. فقد كانت الصحيفة الإسلامية الوحيدة التي حققت لنفسها عالمية الانتشار؛ إذ كانت توزع في مختلف أنحاء العالم من مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وإيران وإلى أفغانستان والهند. وبفضل انتشارها الواسع استطاعت العروة الوثقى أن تبلغ رسالتها الإيقاظية إلى مختلف الشعوب المسلمة في أقاليم العالم وأدانيه. وكانت في عصرها أعظم صحيفة إسلامية وعربية وأعمق تأثيراً حيث تجاوز مدى تأثيرها زمن نشرها القصير، بل وقرنها كله. ولنعرف درجة تأثير العروة الوثقى على العقول يكفيك أن نشير إلى قصة محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) منشئ مجلة «المنار» والتحول الذي أحدثته العروة الوثقى في نفسه بحيث غيرت مسيرة حياته. كان محمد رشيد رضا في مطلع شبابه زاهداً متصوفاً وفي عام ١٨٩٣ م وعمره ٢٨ سنة رأى في محفوظات والده بعض نسخ «العروة الوثقى». ويصور هو نفسه ذلك الانقلاب الروحي الذي اعتلج في داخله بقوله: «فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور ومن حال إلى حال. وكان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية». ويقول رشيد رضا:



«إن الإسلام ليس روحانياً أخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل».

أنشئت العروة الوثقى لهدف إيقاظ الشعوب الشرقية عموماً والمسلمين خصوصاً والدفاع عن حقوقهم والتنبيه إلى خطط المستعمرين وتدخلاتهم في البلاد الإسلامية والدعوة إلى المقاومة. وتشير المقالة الافتتاحية للعروة إلى سياسة الجريدة قائلة: «ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.. وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد.. وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهي ما تمسك به أعزّ دولة أوروبية وأمنعها.. تنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية. وتهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آبائهم الأولون.. وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها».

انطلاقاً من هذه الأهداف، تناولت الجريدة خلال أعدادها موضوعات عدّة كان من أهمها:

١ - المقاومة ضد الاستعمار الأوروبي وخاصة البريطاني: تحكي الجريدة عن جرائم الاستعمار في الهند ومصر، وتثير المسلمين ضده وتدعوهم إلى المقاومة والجهاد، «إن السعي لإعلاء كلمة الحق وبسط الممالك وعموم السيادة واجب المسلمين. فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهي داعية إليه جاهرة بمطالبة

المسلمين بالجدّ فيه حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض عنه»، «يا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا...». وإلى جانب ذلك كانت هناك انتقادات عديدة للسياسيين ورجال الدين المصريين كالشيخ المير غني، الذين نادوا بوجوب طاعة الإنجليز وبترك المقاومة، كما تنتقد الجريدة السياسيين العملاء وغير الوطنيين كتوفيق باشا ونوبار باشا. ويتحدّث الأفغاني عن حركة المهدي في السودان وجهاده ضد الإنجليز ويؤيد مواقف المهدي وصموده ضد الاستعمار ويهاجم بلا تردد السياسة البريطانية والحاكم الإنجليزي للسودان چوردون، ويدعو الدولة العثمانية ألا تشارك بجيش مع الإنجليز ضد المهدي، ومن المعروف أن بريطانيا عجزت عن أن تنال من ثورة الأفغاني وهجومه الرهيب على الاستعمار والمستعمرين رغم نفوذها، فلجأت إلى سلاح المال والملك، وأرسلت إلى الأفغاني تدعوه لزيارة لندن لتسأله رأيه في حركة المهدي ولتحصل من على فتوى شرعية تناهضه بها، ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة: «إنها تعلم مقدرته، وتقدر رأيه حق قدره، ولأنها تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك المودة والولاء!». وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية: «لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهّد لإصلاحات بريطانية فيه».

ورفض الأفغاني أن يقع في الفخ البريطاني وسخر من العقلية الإنجليزية قائلاً: «إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف في عرشه». ويذكر الأفغاني في عدد آخر رضى السلطان العثماني عن حركة المهدي.

٢ - الوحدة الإسلامية: وكانت من أهم المسائل التي اهتمت بها العروة الوثقى. وقد دعت العلماء والشعوب إلى الوحدة وترك التعصبات الطائفية. «من الواجب على العلماء بحق الوراثة التي شرفوا بها أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية». «إن أقوى رابطة تربط بين المسلمين هي الرابطة الدينية.. وما توجهت عناية الإفرنج إلى بثّ

الأفكار السابقة (أي: الأفكار الإباحية والإلحادية) بين أرباب الديانة الإسلامية إلا لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها إربًا وشُعبًا. «الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين».

ويدعو الأفغاني المصريين إلى الوحدة ضد عدوهم المستعمر ويدعو العثمانيين إلى مساندة مسلمي الهند. كما أنه يدعو الإيرانيين والأفغانيين أن يتحدوا ضد الإنجليز. إن الوحدة الإسلامية عند الأفغاني لم تكن قضية سياسية مرحلية فحسب، بل اعتبرها جزءًا من الأصول الأساسية التي يدعو إليها الإسلام وهي أمر ضروري سياسيا ودينيا وحضاريا: «هل آن الأوان ليصبح العالم الإسلامي من أدنة إلى بيشاور دولة إسلامية متصلة بالأرض متحدة العقيدة يجمع أهلها القرآن؟! أليس لكل واحد منهم أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله من قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فيقفون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب؟! لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا. فإن هذا ربما كان عسيرًا ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين.. ولكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه».

**٣ - أسباب تخلف المسلمين:** ناقشت العروة الوثقى أسباب تخلف المسلمين وتحدثت عن بعضها، كتفرق المسلمين وتشتت قواهم وعقيدة بعضهم بالجبر وجهل الحكام وعدم المعرفة بحقائق الإسلام والتمسك بالأوهام وإهمال العلم. وانتقدت نظر الشرقيين إلى الغربيين: «أن نظر الشرقيين إلى الأوروبيين بغير الحقيقة جعلهم وهما وهم بهذا الظن يستسلمون لأعدائهم كرهًا ويجارونهم في أهوائهم نفاقًا». كذلك انتقدت بعض الأدباء المسلمين وشعرائهم لأنهم «يحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة وقصص هزلية.. ورجاؤنا فيهم أن يسلكوا مسالك أدباء الأمم المتقدمة. وأن يأخذوا في منشآتهم وأشعارهم طريقًا ينهضون فيه الهمم الخاملة

ويحرّكون القلوب الجامدة ويحيون مكارم الشيم ويوردون الأمة مورد سابقها من الأمم».

وكما اعتقد الأفغاني وأصحابه أن الله جعل «بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل بتبدل الأجيال والفضائل مثل الاستقامة في الرأي والصدق في القول والعدل والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته..».

### وتوقفت أخيرا

ظهرت جريدة العروة الوثقى في فترة حسّاسة كان الاستعمار فيها ذروة كبريائه و مدّه، ونظرًا إلى تأثيرها العميق الواسع على عقول المسلمين ومواقفها الإسلامية الصارمة ضد الاستعمار البريطاني، فقد حاول الإنجليز منذ البداية دفع هذا الخطر الكبير. وحتى قبل إصدارها بعد أن تبلورت فكرة نشر الجريدة أدرك الاستعمار عظمة الخطر. يحكي محرّر العروة الوثقى: «عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية فكتبوا عنها قبل صدورها غير مستبينين لمشربها ولا كاشفين عن حقيقة مسيرها. فلما وقف على الخبر محرّر والجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الإنجليز ونفوذها في البلاد الشرقية، ولجوا في إغرائها وألحوا عليها أن تعدّ كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول إلى البلاد الهندية والبلاد المصرية، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا».

### عقوبة شراء الجريدة

وبعد أن انتشرت الجريدة واكتشف الاستعمار مدى تأثيرها، بدأ يخلق مشكلات عدّة. إلا أنه لم يستطع منع طبعها في باريس وحاول أن يجد طرقًا أخرى، وذلك

بتعقّب قرائها واضطهادهم وكذلك منع دخولها البلاد. فأصدرت الحكومة الهندية البريطانية قانوناً يعاقب بموجبه من يجوز عددًا من العروة الوثقى بالحبس لمدة سنتين وبغرامة مقدارها ١٠٠ جنيه. وكذلك ألزم الإنجليز مجلس الوزراء المصري بإصدار قرار يمنع العروة الوثقى من دخولها إلى البلاد المصرية، كما أن حيازة الجريدة حسبت جريمة «وكل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغًا من ٥ جنيهات إلى ٢٥ جنيهًا». وهذه العقوبات التي فرضها الإنجليز على قراء العروة الوثقى أو جدت خوفًا في قلوب المصريين حيث امتنع كثير منهم من استلام أعداد الجريدة كما يشير إليه محررها: «إننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا من بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يُرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفًا ورهبة، مع أنهم أحقّ الناس بالإقدام على أمور عظام في هذه الأوقات. فإنّ الآمال في خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة، فكيف يصل ببعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم أذ أهمّ ما فيها الدفاع منهم».

ونجح الإنجليز في معركتهم ضد العروة الوثقى، وبعد أن مُنعت من الدخول إلى الهند ومصر، لم تستطع الجريدة أن تصل إلى قرائها المشتاقين وتبلغ رسالتها. وفرضت هذه الظروف عليها التوقّف؛ فتوقفت نهائيا بد صدور العدد الثامن عشر في ١٦/١٠/١٨٨٤ م ٢٦ من ذي الحجة ١٣٠١ هـ.

ولكن المناضلين الأفغان وعنده قالوا: «لا يعجزنا بثّ أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بأيّة وسيلة أخرى إذا دعا الحال فإنّ أنصار الحقّ كثيرون». يقول الأديب والعالم اللبناني الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ - ١٩٠٩) عن تأثير العروة الوثقى: «إنه ما كان أحد ليشك في أنّ جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابًا عظيمًا في العالم الإسلامي لو طال عليها الزمان..». وكان الزعيم العراقي سليمان الكيلاني يقول كلما شاهد عددًا من أعدادها: «يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا!».

\*\*\*

### أفكار الأفغاني تعمّ الأمة

في عام ١٨٨٦ غادر جمال الدين باريس إلى إيران ومنها إلى روسيا ثم إيران ثم لندن لحوالي عام.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ/ ١٨٩٢ م عاد ثانية إلى إستنبول، فوجد حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد الذي كان قد تولّى الحكم في سنة ١٨٧٦ م، وكان قلقاً مهموماً وهو يدرك خطر أوروبا على السلطنة التي صمدت وحمت حدود الوطن لأكثر من ثلاثة قرون، وقد جاء الزمن الذي طغت فيه سلبيات تكوينها على إيجابياتها فيما أوروبا في أوج قوّتها وصعودها وأنظارها تكاد تلتهم الدولة العثمانية بما فيها. كان عبد الحميد يدرك أن إنقاذه البلاد لن يأتي إلا إذا استطاع أن يعيد توحيد الأمة والبلاد حوله، توحيداً حقيقياً نهضوياً أكثر منه توحيداً سياسياً. وكان عبد الحميد يعرف تاريخ الأفغاني ونضالاته واتصالاته الوثيقة بكل أجزاء الوطن الإسلامي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، هكذا بدأت العلاقة القصيرة المضطربة بينهما.

الأفغاني من جهته كان مناضلاً واقعياً، يدرك ما في الدولة العثمانية من سلبيات وعوامل تدهور، وكان يعرف أثر الإرث التاريخي لالتفاف الأمة حول سلطانها، وحتى قبل أن تبدأ علاقته المباشرة بعبد الحميد، كان واضحاً في «العروة الوثقى» وهو يبدي تأييده للسلطان ويدعو للالتفاف حوله في الوقت الذي كان يوجّه فيه الانتقاد لسلبيات الحكم وانحرافاته.

وفي الأستانة بعد قليل من وصوله بدأت الأمور تنكشف أمامه، كان عبد الله النديم الصحفي والأديب والثائر المصري قد سبقه منفياً من مصر إلى الأستانة وكان واحداً من تلامذته في القاهرة، أوضح له منذ البداية أن الأمور لن تكون بالسهولة التي يتصوّرها وأن حاشية السلطان لا تحمل من الإخلاص لا اسماً ولا جوهرًا وأن مشاريعه لإعادة تشكيل النظام السياسي للدولة وآراءه في عقلته الفكر وطموحه في توحيد الأمة لن تجد أذاناً صاغية، وإن وجدت فلن تجد إرادة فاعلة.

كان عبد الحميد «طبيب القلب كثير الأخطاء» وكان يحمل على ظهره كل الخوف

وسلبات تراث التّأمر في عاصمة دولته في الوقت الذي كان فيه مؤمناً واعياً للأخطار التي تهدد الدولة. كان يستمع لجمال الدين من جانب ومن الجانب الآخر يجد العشرات من الدارسين عليه وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادي الشيخ الصوفي السياسي، الذي كان شيخ طريقة وقريباً من السلطان ومن أكبر أقطاب التّأمر في عاصمة الدولة العثمانية.

وشيناً فشيناً ورغم الجهد الهائل الذي بذله الأفغاني في الأستانة وعبر اتصالاته في الهند وإيران ومصر لتوحيد بلاد المسلمين، إلا أن آماله في إنجاز شيء حقيقي بدأت في التلاشي، لم يكن حماسه ولا إيمانه ولا طاقته هي التي نفدت، ولكن تهاوي المرحلة كان أكبر عزمه وإيمانه.

وفي عام ١١١٥ هـ/ ١٨٩٧ م مات الأفغاني عن ٥٩ عاماً بعد أن كان النسر المحلّق داخله قد ذوى منهكاً تعباً. وقد أثير الكثير من الجدل حول وفاته، وقال البعض إنّه مات مسموماً ولكن ذلك لم يعد ذا أهمية كبيرة الآن، فكيفية موته كانت مسألة صغيرة.. صغيرة أمام قانون موته الذي أوضح إلى أي درجة وإلى أي حدّ كان من الصعب أن يوقف الانهيار.

### تراثه الفكري

وقد ترك الأفغاني الكثير من التراث المكتوب، ولكن تكاد مصادره المعروفة اليوم تقتصر على كتابه الأول: «تتمّة البيان في تاريخ الأفغان» وكتابه الثاني: «الرد على الدهريين» ومذاكراته التي أملاها على تلميذه محمد المخزومي والتي طبعت بعنوان «تأملات الأفغاني» ثم مقالاته في العروة الوثقى. ولكن ما جمعناه من آثاره وما سجّله الآخرون ممّن كانوا قريبين منه كان كافياً لتعرف على طبيعة تفكيره، وكان من أهم هؤلاء ما كتبه رشيد رضا مؤرخاً لمحمد عبده وناقلاً عنه معرفته للأفغاني في كتابه «تاريخ الأستاذ الإمام» ولكن الدراسات والأبحاث حول الأفغاني لم تتوقف حتى يومنا هذا، وتكاد لا توجد وثيقة حول حياته باقية ولم يتم كشفها.

وفي الردّ على الدهريين صوّب الأفغاني نقدًا قاسيًا ضد اتباع الفلسفة الطبيعية الانتقائية التي أخذ بها أحمد خان في الهند، وكان قد التقاه فيها سنة ١٨٨٩، ولكن انتقاده كان أوسع من أحمد خان، فقد هاجم أيضًا ديموقراطيس ودارون وأنكر عليهم إنكارهم لوجود الله تصريحًا أو تلميحًا.

وقد عمد إلى التذليل على الدور العظيم الذي لعبه الدين في المدنية والرقى الإنساني. وقال الأفغاني إن الدين علّم الإنسان وأعطاه طبيعته الروحية التي جعلته أشرف المخلوقات، مما أوصله إلى الترفّع عن الانقياد لميوله البهيمية وإلى العيش بسلام مع أقرانه، وقال إن الأمة الإسلامية قامت أصلاً على أسس دينية وخلقية راسخة إلا أنّ قيام الدهرية (الفلسفة الطبيعية) في مصر وبلاد الفرس في القرن العاشر تحت ستار الإسماعيلية لم تلبث أن قوّضت أسس العقيدة، وزرعت بذور الشك في نفوس المسلمين. وأكد على «أن فقدان الشكيمة الخلقية لدى المسلمين كان أهم الأسباب وراء الضعف الذي دبّ في نفوسهم فاستطاعت جماعة الإفرنج أن تكتسح بلادهم وأن يقيموا فيها».

وقد وجّه الأفغاني كذلك مآخذ حاسمة إلى اتجاهات الفلسفة الأوروبية في عصره ابتداء من العدمية إلى الاجتماعية والاشتراكية. وقال إنّ هؤلاء «بحجة مساعدة الفقراء والضعفاء أرادوا إلغاء الامتيازات الإنسانية كافة وإباحة كل الممتلكات».

### حوار مع المستشرقين

وفي الردّ على المستشرق الفرنسي أرنست رينان عالج الأفغاني النقطتين الرئيسيتين في محاضرة رينان العنصرية: الأولى: أن الديانة الإسلامية كانت - بما لها من نشأة خاصة - تناهض العلم. والثانية: أن العرب أمة غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة، ولا للفلسفة.

قال الأفغاني في مقالته التي نشرتها صحيفة «ديبا» الفرنسية في ١٩ أيار (مايو)



سنة ١٨٨٣ م: «فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها، أصدَرَ هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها، أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم؟ أم أنَّ أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام، وعاداتها وملكاتنا الطبيعية هي جميعًا مصدر ذلك؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصَّص للمسيو رينان قد حال دون جلالة هذه النقطة.. فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد، كما أعلم، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة)».

وقال عن النقطة الثمانية: «صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسَّعوا نطاقها، ووضَّحوها ونسَّقوها تنسيقًا منطقيًا، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدلُّ على سلامة الذوق، وتنطوي على التثبيت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن روما وبيزنطة بُعد العرب عنها، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ولكنهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدينة العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوئه وبهائه على الغرب، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمَّص الصورة العربية، ولم يكونوا يكفرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم».

### العراك بين الشرق والغرب

وفي حياة الأفغاني تصاعدت الأطماع الاستعمارية الأوروبية في الشرق الإسلامي، حيث أطلق على الدولة العثمانية لقب «الرجل المريض» وأصبح مصطلح «المسألة الشرقية» إشارة إلى التداول الدائر في العواصم الاستعمارية حول خططها واتفاقاتها ومشاريعها للهيمنة على المنطقة، ولكن الأفغاني كان يفهم المسألة الشرقية فهمًا آخر، كتب يقول: «مختصر المسألة الشرقية، هي العراك بين الغربي والشرقي، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعًا من الدين..»

إن فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العظيمة، من قبل السلطان محمد الفاتح هي التي ولدت الحق في الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها، لمناسبة الدولة العثمانية، وتعمل على إذلالها وضعفها، وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة، وفي كل سانحة وفرصة. والأكثر في الحروب والتغلب، والانتصار فيهما، إنما يكون بالقوة والعلم، ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست، أو من يوم ما استقلت به، وراقبت حركات العالم الغربي، وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية والحضارة، وقرنت إلى فتوحاتها المادية، القوة العلمية، على نحو ما فعلت اليابان أقله، لما كان ثمة مسألة شرقية، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً، وهو تحكّم الجاهل بالعلم، أو حكومات جاهل تحكّم حكومات علم، ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم».

### الإسلام والاستعمار

وقال: «التزم الأتراك، والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاء عالمون عاملون بحقيقة الإسلام وأحكامه، فعدلوا في الرعية، وأمنوا من دخل في ذمتهم، وسهّلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون (بافتح) من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجاهل غيرهم في تلك الأعصر».

فظل النصارى في طاعة العثمانيين، وظلوا في كل المعاني رعية لهم ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين، القوة والعلم في الحاكم، والضعف والجاهل في المحكوم. حتى إذا انعكس الأمر وبان الجاهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة في الأمم المحكومة، نهضت للتخلص من ربة الاستعباد لمن دونهم في العلم، واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها. وقد سهّل عليهم

كل صعب في هذا السبيل، إقرار الدولة لهم جامعاتهم الكبرى، من دين ولسان وتاريخ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة أكبر نعمة، ولا مناص لها من تحمّل أعباء ذلك، وهي سنّة الوجود».

وكان جمال الدين كبير الاهتمام بالتدهور والضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية وبلاد المسلمين، وقد أشار إلى سببين رئيسيين أدّى إلى ذلك الضعف: أولهما: «لو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، بأن يتّخذ اللسان العربي وهو لسان الدين، لساناً رسمياً، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت في أمان قوّة وآمن حصن من الانتقاص والخروج عن سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، إذا فكّرت بتتريك العرب، وما أسفها سياسة وأسقمه من رأي، لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي، على جهل باللسان العربي، جعل لهم في القلوب منزلة.. فما قولك لو تعرّبت.. وزال داعي النفور والانقسام (بالتركي والعربي)».

### الحيّات والشورى

على أن دفاعه عن الحريات والشورى ومشاركة جماهير الناس في الحكم وإرادة البلاد، كانت السمة التي طغت على كل أفكار، ودعوة الأفغاني في كل البلاد التي طافها أو أقام بها. يروى الأفغاني في خاطراته حواراً دار بينه وبين خديو مصر إذ قال الخديو: «إنني أحبّ كل خير للمصريين ويسرّني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح، ولكن أكثر الشعب خامل جاهل.. إن دروسكم وأقوالكم المهيّجة ستودي بالشعب والبلاد في التهلكة».

فردّ الأفغاني بأدب: «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصري كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراد. ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعامل أيضاً، فبالمنظار الذي تنظرون به إلى الشعب المصري.. ينظر به لسموكم..! وإذا قبلتم نصحي وأسرعتم لإشراك الأمة

في حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسنّ القوانين.. فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وقد سأله شاه إيران غاضباً: «أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين؟!».

فردّ الأفغاني: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأثبت مما هي الآن. لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية؟».

وفي لقاءاته بالسلطان عبدالحميد، كان جمال الدين يحثّه على فتح الأبواب من حوله وتوثيق علاقته المباشرة بالناس ويوضح له الصلة الوثيقة بين الشورى والقرآن وحكمة تنظيم أمور البلاد على أساس دستوري ثابت:

«ولا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشد لمسلمين ميسوراً وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام، مثل الفاتح أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم، غير عسير..».

وشرح السبب الثاني الذي كان يراه لا يقل في تأثيره عن الأول بأن جعلت القسطنطينية عاصمة للدولة، وهي أرض فُتحت حديثاً وليست في مركز الدولة، و«لأن المستعمرة مهما عظم موقعها وطاب هواؤها، لا يصح أن تُتخذ قاعدة أو عاصمة للملك، لأسباب أهمها: أن المستعمرة كالثوب العارية، قابل للاسترداد، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاءها إلا من ضعف السلطان في عواصمها، ومنها، بعد المستعمرة، على الغالب عن مجموع القوة وإحاطتها بأعداء الملك وأعدائه..».

### الرؤية السياسية

ومع إدراكه لفوات الأوان في إصلاح ما سبق من أخطاء، إلا أنه كان يملك رؤية لتغيير واقع الحال، وكانت رؤيته تعتمد على فهمه التاريخي الواقعي والاجتماعي

لبلاد المسلمين، وقد ذكر في تأملاته التي أملاها على المخزومي أنه اقترح على السلطان عبدالحميد مباشرة، أن يعيد التشكيل الإداري للدولة العثمانية من ولايات إلى خديويات، بحيث يصبح العراق وشمال الشام خديوية، والمثلث الضام لدمشق وبغروت حتى القدس خديوية، والحجاز خديوية أخرى.. إلخ. بحيث تتمتع هذه المناطق بما يشبه الإدارة الذاتية كما كانت الأمور في مصر قبل الاحتلال البريطاني. وكان الأفغاني يرى أن هذا الوضع سينعش الأوضاع في أجزاء الدولة ويجعلها أكثر قدرة على التحرك والنهوض وأن ذلك في النهاية قد يدفع بإيران وأفغانستان إلى اللحاق بالاتحادية الإسلامية الناهضة.

ولكن عبدالحميد - كما يذكر الأفغاني - رفض الفكرة وأبدى عدم قناعته بها. لا يمكننا - على الإطلاق - أن نقول إن الأفغاني عاش حياة، وترك رؤية، صائبتين بلا أخطاء، فقد كان مثله مثل كل عظام التاريخ، أخذ قيمته من أن عموم مسيرته ورؤيته كانت صحيحة إلى حد كبير، وأنه حاول حتى الرمح الأخير أن يحقق ما آمن به.

لقد فهم الأفغاني جوهر الغرب الاستعماري فقاتل ضده بصلافة، في الهند ومصر وإستنبول وإيران ومع الحركة المهدية في السودان، وأدرك أهمية وحدة الأمة من جديد فحمل راية الوحدة في كل قطر حلّ به وأمام كل حاكم التقاه. وأدرك سرّ التخلف والتهاي في العالم الإسلامي؛ ولذا فقد كان نقدياً متقدماً وحضارياً مبدعاً. كان بلا شك مدافعاً صلباً عن الحرية وعن دور الشعوب في إدارة شئونها.

### أستاذ الرواد

ويستطيع الباحث اليوم أن ينظر إلى القرن الأخير من تاريخ أمتنا فيجد أن جيلاً بأكمله من رواد النهضة الإسلامية الحديثة من محمد عبده إلى عبدالعزيز جويش وعبدالله النديم ومصطفى كامل كانوا جميعاً من تلاميذه، وأن الثورة العربية في مصر

و ثورة الدستور في إيران كانتا أثرًا من آثاره، بل إننا نستطيع القول إن النهضة الإسلامية المعاصرة، من إيران إلى مصر، تنتمي جميعها إلى الأفغاني انتماءً شرعيًا. وفي أوراقه التي وجدت بعد وفاته بسنين عديدة، كشفت بعض القصائد الشعرية التي كتبها جمال الدين ولم يهتم بنشرها في حياته وفي إحداها يقول:

«طغاة إيران يحرقون

مني الجسد والروح

سأحزم أمتعتي وأرحل

صوب أرض تركيا

أرحل مرهقًا حزينًا وشقيًا

طالبًا العدل

في محكمة السلطان

فإن لم يخفف السلطان

عن قلبي المثقل

فسوف أرحل

طالبًا العدل

في محكمة الله».

وقد مات أو استشهد السيد جمال الدين وحيدًا في إستنبول مع نهاية القرن التاسع عشر، تقيسًا بئسًا وكأنه ينظر إلى النهاية الآتية. كانت صرخاته أكبر من أن يستجيب لها عصره ومعاصروه.. فذهب، وبعده بسنوات قليلة كانت الدولة العثمانية كلّها تنهار وتذهب، وتنتهي بنهايتها مرحلة تاريخية بأكملها، وليحتدم الصراع داخل الأمة بين عشرات المتناقضات وهي تتجهز للمرحلة المقبلة.

\*\*\*

### الافتراء

هكذا كان السيد الأفغاني: رجل الصحة الإسلامية، في كل مكان يزرعها وفي كل قلب، له من كل حادثة عبرة، ومن كل وقت منطلق، وفي كل ساحة صراع مثير ضد عتاة الأرض وطواغيث البشر، وكل من تجلى فيهم الكبر والاعتداء.

لقد ركّز السيد الشهيد على محور المشكلة التي كانت الأمة تعانيها وتئن من آثارها، وما كان هذا المحور إلا تشكيلاً من عنصرين وربما كان أحدهما عاملاً في خلق الآخر:

هذان العنصران هما التحريف في التصوّر، والميوعة في الإحساس. وفي هاتين النقطتين كمن سر الداء العضال لهذه الأمة مما أورثها ضعفاً هائلاً في الثقة بالنفس، وتمييعاً فظيماً في المواقف، وهزيمة نفسية أمام الغزو المعادي.

ومن هنا انطلق رحمه الله ليعيد للأمة تصوّرها الصحيح عن العقيدة، وعن تلاحم العقيدة مع العمل، ويحرك فيها إحساس الصحة المتفاعل مع العقيدة والمنطلق على أساسها.

وتكفي نظرة سريعة على أقواله وأفعاله وكتاباتهِ وخططه لنحكم بالتالي على الرجل بأنه كان مسخّراً حياته للقضاء على محور الداء في هذه الأمة، واقفاً نفسه لتطويق آثار الداء عاملاً على التوعية المطلوبة به الآثار.

وفي هذه السبيل نسي السيد كل انتساب قومي أو عرقي أو نسبي أو أرضي ليحقق امتداده العالمي، وثار على التقاليد البالية التي منعت رجل العلم الديني من الخوض في غمار السياسة لينغمس كلياً في عالمها باعتبارها أحد الميادين الرئيسية التي يجب أن يجاهد فيها العلماء.

وراح يعلنها بالتالي دعوة كريمة، وصرخه مدوية تدعو إلى الإصلاح والوحدة، وهما مفهومان يتلاحمان في شخصيته وسيرته ودعوته العالمية.

فإذا انضم لكل هذا الوعي الإخلاص فإن من الطبيعي أن يتبعه التفاني والتضحية ونسيان الراحة، وكل ما يمت إليها، وحينئذ يأتي النصر الإلهي المؤزر لعباده

الصالحين.

وهكذا كان لأمر، وسرت النيران لتعصف بالعروش في إيران وتركيا ومصر وهكذا تساقطت العروش الكرتونية التي حملت في أمخاخها العمالة والاستكبار، ومشت دعوة جمال الدين في الأفئدة الحرة لتصوغ مصلحين من أمثال محمد عبده هذا الرجل العظيم الذي خلد أستاذه في كتاباته وأعماله معًا.

\*\*\*

ومضى الزعيم المسلم إلى ربّه بعد أن غرس روح الصحوة في مجمل الحياة الإسلامية لتتفرّع بعد ذلك بما يحقق أهدافه السامية. وظن الاستعمار أنه مات وماتت معه أفكاره، وربما ظن أنه يستطيع أن يستخر شخصيته لتعظية بعض عملياته هو، راح يزرع عملاء هنا وهناك آمنًا. إلا أن فوجيء بعد مدة بالعملاق الإسلامي يتحرك فيهرّ الأرض تحت أقدام العملاء بل وينطلق من أرض كان يعتبرها جزيرة الأمان، من إيران، فإذا بأكبر قلعة استعمارية تهتز، وأعتى متكبر يسقط بكل حقارة في قمامة التاريخ. وقد لاحظ أن ثورة إيران تحمل ملامح واضحة تتشابه مع ملامح شخصية الأفغاني ولكن بشكل أروع وأجلى وأبعد تأثيرًا. إلا أنه بعد أن استعاد صوابه، راح يخطط لضرب الثورة في الصميم، ومذ فشلت مخططاته لضرب الثورة راح يضرب تأثيرها ويحاول الفصل بينها وبين جماهيرها بشتى الأساليب التشويهية.

وكان ضرب الأفغاني الثائر جزءًا من الخطة لتحقيق الأهداف الاستعمارية وذلك على يد العملاء والرجعيين والمغفلين والمتعصبين.

وعدنا نسمع عن الرجل كل التهم تكال كيلاً حتى ولو كانت في إطار ما يسمى بالتحقيقات العلمية الموضوعية، فإذا بالأفغاني البطل المتفاني يتحوّل إلى بابي، رافضي، بهائي، ماسوني، رجعي، قومي، مهادن للعملاء يحب الشهرة، والمغامرة، بل راحت تتهم الشيخ محمد عبده بأنه كان يعلم الكثير عن أستاذه إلا أنه أخفاه تقيّة!!



وهكذا نسيت كل مواقفه الرائعة في إيقاظ الشعوب والأمة الإسلامية وأعرض هؤلاء عن الشهادات والأوسمة الحقيقية التي حملتها هذه الشخصية الرائعة، وعن الآثار العلمية والسياسية والحماسية التي تركها نوراً يضيء الدرب للأجيال، وعن الزهد الذي طبع مجمل حياته.

كل هذه الحقائق التي لا ريب فيها نسيت في سبيل تحقيق تلك المآرب الرخيصة.

### قصة الحملة المسعورة

أما كيف بدأت الحملة لتشيويه صورة الأفغاني وكيف جرى الإعداد لها، فهو ما كشفته مصادرنا من خلال وثيقة نشرتها مجلة «الشهيد» الإيرانية نوردها مع بعض التصرف:

«إنه قرار المخابرات الأمريكية.. والهدف (إسقاط شخصية المجاهد جمال الدين الحسيني)، المعروف بالأفغاني.. وبالتالي إسقاط اعتبار الحركة الإسلامية المتصاعدة التي يعتبر اسيد المجاهد أحد رموزها وملهميها..».

ومع اعتقادنا أن السيد المجاهد يعيش في قلوب الناس بجهاده وتاريخه الرائع.. إلا أننا لا نخوض في بعض تفاصيل هذه الحملة، لكي نتكشف لنا وبصورة أوضح حقيقة دور الأنظمة الحاكمة على الإسلام وقادته المخلصين ونتركه لمجال آخر... بعد تنامي الوعي الإسلامي واتساع الصحوة الإسلامية في العالم، أخذت أقلام جاهلة، تصب كل جهودها في إطار كيل التهم والافتراءات على ماضي الشخصية الإسلامية الفذة، الشهيد السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني.

حينما تقرأ ما جاء في كتاب نيكي كدي الأمريكية، ترى أنهما تحاولان أن تقولاً للمسلمين إن السيد جمال الدين الحسيني لم يكن إلا ألعوبة بيد السلاطين والملوك.. ولم يكن يملك من أمره وإرادته شيئاً..

في الواقع أن السيد الحسيني كانت له عدة علاقات مع هؤلاء السلاطين، ولكن علاقته كانت في نطاق إسداد النصيحة لهؤلاء السلاطين.. وحينما يصدر منهم

الانحراف يقف بوجههم ليقوم ذلك الانحراف، وعندما لا يذعن السلطان لذلك يأخذ السيد الحسيني في لومه، وبعض هذه العلاقات كان السيد الحسيني يرتجي من ورائها خدمة الإسلام كطلبه من المسلمين مؤازرة سلطان الأستانة في تركيا ضد المؤامرات الإنجليزية، إذ ما دام الخطر قادمًا من الخارج وعلى يد قوات ترمي من احتلالها للدول الإسلامية ضرب الإسلام، فإن الموقف يتطلب كما كان يرى السيد الحسيني أن لا يترك المسلمون نصرة سلطان الأستانة لئلا تقع الأمة الإسلامية أسيرة الاستعمار.

ولم يكن عمل السيد هذا بمنقصة، إنما كان الأسلام في خطر، وهذا الموقف يذكرنا بموقف المرجعية الإسلامية في العراق عندما طلبت من المسلمين أن ينضموا ضمن صفوف القوات المسلحة العثمانية ضد قوات الغزو الاستعماري البريطاني فالخطر على الإسلام كان داهمًا..

أما عمله السياسي الجاد ضد الاستعمار البريطاني في مصر فقد أرادت كاتبة إيرانية وكاتبة أمريكية، استندتا على كتاب ما سمي بالوثائق وبحث لكاتب مصري تشوييه:

فالكاتبان تقولان: «يخطيء المرء إذا أراد أن ينسب إلى جمال الدين مذهبًا، وأن فيه عقيدة متجانسة...»

... «وأهم من كل هذا أنه بنى لنفسه وبنيت له في مصر أسطورة حتى غدا الناس في مصر يقدسونه دون أن يقرءوله، ويضعونه فوق مستوى النقد...».

فمن الضروري أن نشير إلى أن السيد الحسيني قد أعار نفسه ووقته وعقله لله وللشعب المصري، إذ لم يرتح له بال وهو يحس بأقدام الاستعمار البريطاني توغل في صدره، فانطلق يحرض الشعب المصري المسلم على الثورة والانتفاضة ضد الاستعمار البريطاني فراح ينادي في أهل مصر.. «فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسًا، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم

ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يُبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحقّ بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة..».

وفي المقال الافتتاحي، لأول عدد من جريدة (العروة الوثقى)، يصوّر جمال الدين حادث الاحتلال البريطاني لمصر على أنه كارثة في العالم الإسلامي، وقد أهاب المسلمين - بباعث من دينهم - أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال. يقول:

«..إن الخطر الذي ألمّ بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وانكلمت به قلوبهم، ولا تزال الأمة تستفزهم ما دام الجرح نقارا، وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملية أقوى من رابطة الجنس واللغة، ومادام القرآن يتلى بينهم، وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئه فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم..».

وما يُضحك أن يتهم كاتب السيد الحسيني باستلام أموال من الحكومة الفرنسية؟! فإذا كان السيد غايته المال، لما احتاج لأن يجهد نفسه ويدخل في طرق وعرة وشائكة من أجل خدمة المسلمين، ولما احتاج إلى أن يعرض نفسه للهجرة أو الإهانة من قبل الأنظمة الحاكمة كما حدث له في إيران، عندما هاجمه خمسمائة من المسلحين وأخذوه جرّا على الرغم من مرضه الشديد، حتى قال جمال الدين الحسيني في ذلك:

«كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب، العزيز الحسب، العظيم الجاه، العالي المنزلة في دينه وشرفه وعقله، ورغبته في الخير؟! كيف يرجوه الشاه أن يأتي بلده ويعده أن ينفذ إصلاحه، ويعلي كلمته، ثم يعامله معاملة العبد يطرد، والذليل يصفع، والحقير يهان؟!».

ولكي تقول الهجمة الشرسة ضد السيد الحسيني بأنه ماسوني، فإن كاتب البحث لكي لا يربط الحديث به يذهب إلى أحد الكتاب الموجودين الذي أخذ عن كتاب (مجموعة وثائق..) فيقتبس منه العبارة التالية:

«وفي مصر أيضًا جرّته - الحسيني - تطورات الأحداث وتغلغل الأجانب في آخر عصر إسماعيل إلى النزول في معمرتها فنشط في المحافل الماسونية..».

قبل كل شيء لا بد أن نعرف ماذا تعني الماسونية؟

الماسونية تركز على ثلاث ركائز كما يزعم أصحابها، والركائز هي: حرية، مساواة، إخاء، ولكن في الواقع هي بعيدة عن ذلك، و«الجمعيات الماسونية» أو التنظيم الماسوني، هو من أدق وأعقد الأساليب الخفية المستترة في استقطاب حركة المجتمعات وتوجيهها.

وقد عرف عن التنظيمات الماسونية أنها ضد الإسلام الحنيف، وضد كل شيء يتّصف بالخير، وما شعاراتهم إلا لذر الرماد في العيون، وهي يافطة يرفعونها لإغواء من يروم الخير والسعادة البشرية، وأيضًا يافطة لتشويش الرؤية والبصيرة على الآخرين.

نعم إن السيد تعرّف على الماسونية حينما كانت تتلبس لباس الخير والإصلاح، وعندما لمس من أول وهلة أنها معادية لمصالح الشعب المصري المسلم، أخذ يعرّيها ويوضح للشعب المصري المسلم حقيقتها الهدامة المناصرة للنظام الحاكم، فيذكر السيد الحسيني بهذا الخصوص ما يلي:

«أول ما شوقني للعمل في (بنية الأمراء) عنوان كبير خطير: حرية، مساواة، إخاء، وأن غرضها: (منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق) ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيّل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية! إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حرّ، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشيد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة».

هذه العبارات الصادقة التي توضح حقيقة السيد جمال الحسيني وموقفه الحازم

من المحافل الماسونية تتغافى عنها الأفلام المحمومة، وما همها، سوى قذف السيد بأباطيل محبوكة.

إلا أن كل المحاولات لتشويه سيرة جمال الدين باءت بالفشل، ولم تنطل الحيلة على المفكرين الواعين وبقي الأفغاني بطلاً عظيماً تفتخر به الأمة وتعتزّ، بعد أن قدّم لها أروع الأمثال في الإيمان والوعي والجهاد والتضحية والإخلاص.  
قال تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾  
[التوبة: ٣٢].

\*\*\*

وإننا كما أشرنا أولاً، وفاءً لذكرى الرجل الكبير واحتفالاً بالذكرى المئوية لإصدار مجلة «العروة الوثقى» من باريس - نقدّم المجموعة الكاملة لهذه المجلة للقراء في العالم الإسلامي والعربي. سائلين المولى العليّ القدير أن يبعث في جماهيرنا الإسلامية صحة راشدة وتحسساً للأهداف الكبرى وشوقاً صنّاعاً للغد الأمثل.  
والله الموفق

سيد هادي خسروشاہی

محرم ١٤٠٦ هـ أكتوبر ١٩٨٥ م/روما - إيطاليا<sup>(١)</sup>

١. ملخص من المقدمة التي نشرت في الطبعة الأولى الأوروبية

العروة الوثقى  
للسيد جمال الدين الأفغاني  
والشيخ محمد عبده  
الطبعة الأولى - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا صدرت الجريدة<sup>(١)</sup>

﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]

هذا ما تمدّه العناية الإلهية من قول الحق، متعلّقاً بأحوال الشرق، على الله المتّكل في نجاح العمل.

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت، بدأت على طريق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم<sup>(٢)</sup> حتى أذهلوهم عن<sup>(٣)</sup> أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية.

ذهب أقوام إلى ما يسوّله الوهم، ويغري به شيطان الخيال، فظنوا أنّ القوّة الآلية و إنّ قلّ عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتّفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجرم الغفير، في النزر اليسير، وهو زعم ياباه القياس بل يبطله البرهان، فإنّ تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملّة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال.

١. صدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م، وبلغ ما نشر

منها ثمانية عشر عدداً، وصدر العدد الأخير منها في ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ، وانتهت بسبب محاربة

الإنجليز لها.

٢. في الأصل: لبابهم.

٣. في الأصل: على.

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الإنساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أيقظتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها، هرعت إلى استبقاء الموجود و رد المفقود، ولم يجد بدا من طلب النجاة من أي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتثام أفرادها، والتحام آحادها، وإن الإلهام الإلهي والإحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت، إذا كثرت عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كثرت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتسمر ثعلبها، والتمست خلاصها ولن تعد عند الطلب رشادًا.

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلّة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراز من الوقوع في مثله، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة، وإن الحركة التي تنبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيم عليها، ومدبر لسيرها، لا يكفي في توقيف سريانها، أو محو آثارها، قهر ذاك القيم وإهلاك ذاك المدبر، فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه.

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به. لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبًا تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب.

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في



الجنسية والمشرّب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزّب للجنس والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشدّ من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسّنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الأيام. كلّ يطلب خلاصًا ويتبغى نجاة ويتحلّ لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والفن، وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلى، كان هذا أمرًا ينتظره المستبصر وإن عمي عنه الطامع وليس في الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه، بل ما يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصًا في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورًا وذوو حقوق في الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأغزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحو سقامًا، وأسود تحوّلت أنعامًا، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسّها الضرر من إفراط الطامعين في أطماعهم خصوصًا من جرّاء الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطاعم فيها. جلبوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها وشدّوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطعم؛ فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب، بل طوفان المطائب، على تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهمّوا بما لم ينالوا.

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفُتِح باب كان مسدودًا وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين، بل هي بقية

آمالهم ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدري أن مسببها في حيرة من تلافيها، نعم إنهم غرسوا غرسًا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلًا ويطعمون منه زقومًا. لا جرم أن هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ويغلغل في حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتهم أو اقتناء فائدتهم لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحوّل عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدّد لقلوب المعتدين. فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عمّ الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعزّ عليهم الصبر فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم.

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية، إن الخطر الذي ألمّ بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولا تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارًا. وما هذا بغريب على المسلمين، فإنّ رابطتهم المليّة أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم. إن الفجيعة بمصر حرّكت أشجانًا كانت كامنة وجددت أحزانًا لم تكن في الحسبان وسرى الألم في أرواح

المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكّار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمل أن يصير التنفس زفيرًا بل نغيرًا عامًا بل يكون صاخة تمزّق مسامع من أصمه الطمع.

إنّ أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداواة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع من ممالكهم ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواقي مصالح المغلوبين فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما لا يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكر النظر. وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكتنتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته وإن المغيظ لا يبالي في الإيقاع بمنائيه أسلم أو عطب فهو يضر ليضر، إن مسه الضر.

إلا أن غشية التهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرت أسماعهم من حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر والكثير<sup>(١)</sup> الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم المسترسلين في جفوتهم.

إنّ الرزايا الأخيرة التي حلّت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحوّلت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدّت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا إلى معالجة

١. الكريم: صوت في الصدر كصوت المختنق.

الحق وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف. وإن في الحاضر منها لهنزة تغتم وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور.

تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ويوحدون كلمة الحق في كل صقع لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته.

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتلملون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج العام في كل عام يجتمع إليه الشرقي والغربي ويتآخى في موافقها الطاهرة الجليل والحقير والغني والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب إلى الظفر يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق. طلبوا عدّة طرق لنشر أفكارهم بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وأن تكون في مدينة حرّة كمدينة باريس<sup>(١)</sup> ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبّى رغبتهم، بل نادى

حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الإجابة، حمل الثاني على الامتثال، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال.

### الجريدة ومنهجها

سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت.

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومناشئ العلل التي قصرت بهم، إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت<sup>(١)</sup> وضل المرشد، حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة.

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوسوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء دائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بلغت حدّها.

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وإن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار على المطلوب وهو تحت الجنح ويكفي في الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة.

وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهي ما تمسكت به أعزّ دولة أوروبية

١. الخريت: الدليل الحاذق بطرق الأرض.

وأمنعها ولا ضرورة في إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلوكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أقر نفسه وأمتة وقرًا أعجزها وأعوزها.

وتنبه بأن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدبج بأشكال المجاملة شفافاً ينم عمّا وراءه وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات.

ويهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آبائهم الأولون، ولا تهن في تبليغ الشرقيين ما يمسه من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في تبليغ الشرقيين ما يمسه من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء الثابت.

وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم، وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

ومع كل هذا، فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا ولا تنجد إذ غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق في أزلى علم الله هدايته، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها، الأمير والحقير والغني والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده والله الموفق.

## الجنسية والديانة الإسلامية

إن استقرار حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجليّ النظر ودقيقه وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم، وإن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيهِ ويغضب لما يمسّهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبيه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان، حتى ظنّ كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربى فيها إلى أن عقل ولم يذكر له مولده، فإنّا لا نرى في طبعه ميلاً إليه بل يكون خالي الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما كان ألف لمرباه وأميل إليه والطبيعي لا يتغيّر. ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على النفس ترسمها على ألواحها الضرورات. فإن الإنسان في أي أرض له حاجات جمّة وفي أفراد ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصبغوا بتربية زكية، وسعة المطمع إذا صاحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان؛ فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر. فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالاً إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة، حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعوا أمماً، كالهندي والإنجليزي والروسي والتركمانى ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراد المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر، ثم يجاوزوا في ذلك حدّ الضرورة كما هي عادة الإنسان في أطواره، فذهبوا إلى حدّ أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه، علماً بأنه لا بدّ أن يكون جائراً إذا حكم ولئن عدل فإن قبول حكمه ذلّ تحسّ به النفس وينفعل له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية، تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام، وهو مبدأ الكل وقهّار السموات والأرض، ثم يكون القائم من قبله

بتنفيذ أحكامه مساهمًا للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين. فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به، اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها فمُحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير.

هذا هو السرّ في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبية ما عدا عصبية الإسلامية، فإن المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده، يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد.

لأن الدين الإسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئها، وتحديد السلطة الوازنة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها، حتى لا يكون القابض على زمامها لا من أشد الناس خضوعًا لها ولن ينالها بوراثته ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية، وإنما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة. فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم، إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها.

وكل فخار تكسبه الأنساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرًا في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحققة، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا من دعا إلى عصبية وليس منّا من قاتل على عصبية وليس منّا من مات على عصبية» والأحاديث النبوية والآيات



المنزلة متضافرة على هذا، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى - اتباع الشريعة - ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث المُلْك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها إليهم على حسب امتثالهم للأحكام الإلهية واهتدائهم بهديها وتجردها عن الاعتلاء الشخصي، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أبهته ورفاهة معيشتة، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذاك الوازع.

هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربي لا ينفرد من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها، نعم إذا نبا في سيره عنها وجار في حكمه عمّا نصّت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقه، انصدعت منه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس وأصبح وإن كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم.

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها.

ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجاफी عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة، لأمكنه أن يجوز بسطة في الملك و عظمة في السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة

بأرباب هذا الدين، ولا يتجشّم في ذلك أتعباً ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية... ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى في الديانة الإسلامية القويمة، ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة. أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الإسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكن مع ذل أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا، والنعيم في الآخرة وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى إن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعزّ عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق، فمثالهم كمثل من يريد الفتك بنفسه، حتى إذا أحسّ بالألم ورجع واسترجع، وإن بعض ما يطرأ على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق، إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القومية التي بنيت عليها الديانة الإسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين، فإن منابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشدّ ما يكون ضررهما بالسلطة العليا، فإذا رجع الوازعون في الإسلام إلى قواعد شرعهم وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزّة بالراشدين أئمة الدين وفقنا الله للسداد، وهدانا طريق الرشاد.

## ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها<sup>(١)</sup>

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم انشق عنها عماء العدم فإذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوي الأركان شديد البنيان، عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مديريها عقد المشكلات. نمت فيها أفنان العزة بعدما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة، فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهولها بدن عامل.

وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتشر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصى وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقداً وانقضت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة، وإنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر إليه صحواً، وذبول يظنه المغرور زهواً وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة التهم والرضا بكل حال، ولئن تنبّه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً أو يعيد إليها مجداً، عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال

١. أكثر عناوين المقالات مأخوذة عن تاريخ الإمام (رحمه الله) - طبعة مجلة (المنار) الإسلامية.

وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشتة ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس فتغلّ يده عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحسّ بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك وي طرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى. وا أسفا ما أصعب الداء وما أعزّ الدواء وما أقلّ العارفين بطرق العلاج؟! كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه..؟! أستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشدّ أعضائه اتّصلاً به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه. نعم ربما التفت كل إلى ما هو في فطرة كل حيّ من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أيّ وجه يحصلها ولا بأيّة طريقة يكون في أمن عليها، كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمناً غير قصير إلى معاليها، هل من السهل ردّ التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه خصوصاً بعدما استدبر المقصد وفي كل خطوة يظن أنّه على مقربة من الخطوة. كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه وفي أذنه وقرّ وفي ملامسه خدر، هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناهى أطرافها وتباین عاداتها وطبائعها، هل من نبأ تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعدما تراكم جهل واران غين وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعمر، وأيم الله إنه لشيء عسير يعيي في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير.

هل يمكن تعيين الداء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض

التي طرأت عليه؟ إن كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيراً من الأمراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها، كلا إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟! لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت. كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين، فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحوّل الدواء داء والوجود فناء. فمن له حظ في الكمال الإنساني ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي، لايجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها، وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علماً أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء.

ظن قوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وأنها تكفل إنهاءض الأمم وتنبية الأفكار وتقويم الأخلاق. كيف يصدق هذا الظن؟ وإننا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يصدقون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض، فبعد ما غم الدهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكتابون لا تجد لها قارئاً ولئن

وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يُراد منه لضيق في التصوّر أو ميل مع الهوى فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً. على أن الهمة إذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث، إن هذا وحقق لعزيز.

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرّق أهوائها وأخلادها إلى ما دون رتبها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، بل لمن كان خاضعاً لسيادتها راضحاً لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعمّ المعارف جميع الأفراد في زمن قريب، ومتى عمّت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة. وما أبعد ما يظنون، فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجنّي ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة. وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

فإن قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر.

على أنّا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدّة من الزمان تكفي لبثّ تلك العلوم في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرّج يفيد فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمته؟ واعجباً كيف يكون هذا وإن الأمة في

بُعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها؟! وكيف بذرت بذورها؟! وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟! وبأي ماء سقيت وبأي تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وإن وصل إليها طرف من ذلك فإنما يكون ظاهراً من القول لإنشاء عن الحقيقة؟! فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم؟!

لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم، يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً. ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتیه، يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على ما بها أضعافاً؟! وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نَقْلَةٌ وَحَمَلَةٌ.

فهؤلاء الصادقون إلا من وفقه الله منهم بعنايته الإلهية يكون مثلهم كمثل والددة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض ويتهني به إلى التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخريات الالتئام، إن كان الفساد أبقي للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما

قصودوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص حتى تعود أبواباً ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني. هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدّموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة؟ وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت في سبيلها، خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الأمم؟

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفهبون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية. أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد. ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلّبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدّوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهات، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأماتوا أرباب الصنائع



من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدد لأنف الأمة يشوّه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها.

علمتنا التجارب ونطقنا مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهبط الوسوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤماً على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهيئون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع إلى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمّد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهّدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يشبّتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم. أقول ولا أخشى لو ما كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنجليز لما بارحوها أبد الأبد. فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم، ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد... أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي، الرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منغضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللأهواء تحكم وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟! ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم؟! بأي سبب يتمكنون ورسل المنيا على أبوابهم؟! لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل. أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيئت بعد المنعة، وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم أحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها إنما هو دين قويم الأصول محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع إلى المحبة مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً وحدوث بدع ليست منها في شيء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد

إليه الدين وعمّا أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر وبارات تقرأ، فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها.

فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثه من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحساً ولا يكسبها إلا تعساً.

هل تعجب أيّها القارئ من قولي إن الأصول الدينية الحقّة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية. إن عجبت فإن عجبك أشد. هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتيان الدنيا والمنكرات حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقوّاها وهذبها ونوّر عقولها وقوّم أخلاقها وسدّد أحكامها، فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة الدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين في شيء

من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها.

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الأقطار وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنيا وبعد الغايات وعلو المقاصد، هي التي هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم، وكفتهم عن معاطاة الرذائل، وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد مضي زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها، فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلاً مستقلاً في آخر عدد إن شاء الله، وهو الموفق للصواب.

### النصرانية والإسلام وأهلها

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

خلق الله الإنسان عالماً صناعياً ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداية للإبداع والاختراع، وقدر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركن وجوده، ودعامة بقائه، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة، وخشونة ورفاهة، وتبدل وحضارة، صنعة أعماله، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة أو قيامه على المشية، وسرايله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً، وأكثانه ومساكنه ليس إلا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع ما يفتن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره، ولو نفى يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفّه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه، بل دفعته إلى هاوية العدم، وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذ يثقفه وهاد يرشده، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته، يعمل ليعلم كيف يعمل، وليقتدر على أن يعمل، فصنعتة أيضاً من صنعه، فهو في جميع شئونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها، حاجته إليها كحاجة العامل لآلة العمل. هذا هو الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الإدراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً: شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفقه وشرهه، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى، وما يودع في نفسه من حوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم، مرامي أفكاره، ومناهج تعقله، ومذاهب ميله، ومطامح رغباته ونزوعه إلى الأسرار الإلهية أو ركونه إلى البحث في الخواص الطبيعية، وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء، أو وقوفه عند بادئ الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون.

وأما هواء المولد والمربي ونوع المزاج، وشكل الدماغ وتركيب البدن، وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية والصفات الروحانية إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية، على ضعف في ذلك الأثر، فإن التربية وما ينطبع في النفس من حوال المعاشرين وأفكار المتقنين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع، نعم إن أفكاراً تتجدد، ومعتقدات عن أخرى تتولد وصفات تسمو، وهمماً تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعاً، فالإنسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي.

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمال البدنية، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان، إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين، ولا أظن منكراً يجحدها:

إن الدين وضع إلهي، ومعلمه والداعي إليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مسكوب لمن يختصهم الله بالوحي، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأفئدة،

وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها، وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل، وأول ما يخط فيه رسم الدين، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده. وما يطرأ على النفوس من غيره، فإنما هو نادرشاذ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال.

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الإسلامية، وهو بحث طويل الذيل وإنما نأتي فيه على إجمال ينبئك عن تفصيل أن الديانة المسيحية بنيت على المساومة والمياسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة، ونبد الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية، ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد وهي فانية، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده، فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار، مع ملاحظة أن لكل خيال أثرًا في الإرادة يتبعه حركة في البدن على حسبه، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي، المنتسبين في عقائدهم إليه، فإنهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها، ويسارعون إلى افتتاح الممالك، والتغلب على الأقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فنا جديدًا من فنون الحرب، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم في بعض، ويصلون بها على غيرهم، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدريب سوقها في ميادين القتال، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها، وإن

أصلو دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم، فضلاً عن الالتفات إلى طلب غيرها.

الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعته، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقر أسورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملّة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القتالة، وإتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرّ الأثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها، والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه، ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرّم المراهنة إلا في السباق والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات، إذ يراهم يتهاونون بالقوّة، ويتساهلون في طلب لوازمها، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفينهم واستكانوا لها، ورضخوا لأحكامها، ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية. وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين، قبل وجودها عند الآخرين! وكيف أحكمت الحصون، ودرعت البواخر، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم، دون أهل الغلبة والحرب!

لَمْ لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا؟! لَمْ لا يقف الخبير البصير دون استكنائه الحقيقة؟! هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في

نفوس المتمسكين بعراهما؟ هل نبذت كل ملّة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من أجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى، واقتفاء سيرة يوشع بن نون؟ هل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تُتلى على منابر المسلمين؟ أو ألقى شيء منها في أمانى معلمهم وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم؟ هل تبدلت سنّة الله في الملتين؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح؟ أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال؟ أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين؟ أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساتير وحل المعميات؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس؟ وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ويتقاربون في الأنساب الدانية. أينسب هذا إلى اختلاف الإقطار؟ وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة. ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار، وأدهشت الأبواب؟! ألم يكن منهم مثل فارس والعرب ولترك الذين دوّخو الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها؟! كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع، فزع لها المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها. ذكر ملكام سرجم «إنجليزي» في تاريخ فارس، أن محموداً القزنونى كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع، وكانت هي الأسباب في انهزامهم على يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها.

فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملّة المسيحية فقَدَمها إلى ما لم يكن في قواعد دينها، وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم؟ مقام للحيرة وموضع للعجب! ويظن أن لا بد لهذا التخالف من سبب، نعم وتفصيله يطول، ولكن نجمل على ما شرطنا أن الدين



المسيحي إنما امتد ظله وعمّت دعوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الأولى، وجاء الدين المسيحي إليهم مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الإقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة، فكان كالطراز على مطارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس، بل كانت مذكورة عند الرؤساء الروحانيين، ثم إن الأحرار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع، وسنوا محاربة الصليب، ودعوا إليها دعوة الدين، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية، وجرت منها مجرى الأصول، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا، وافترقوا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراماً، وتوسعوا في فنون كثيرة، وانفسح لهم مجال الفكر فيها، وكانت براعتهم في الفن العسكري، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون.

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كمال حربي حظاً، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة، وعلوم النزال والمكافحة، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه، وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعد الجبر، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر، ولا تثبتها الحقائق، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبوننها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السمّ القاتل لروح الغيرة، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم. وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في

إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقّة ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة، لعلّ هذا هو العلّة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم وهو ما نسأل الله السلامة منه.

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع. والمنازعة بين الحق والباطل كالمداخلة بين المرض وقوّة المزاج. وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة، فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤه ويقشع سحب الأغيام، ومادام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق. وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم، ومغالبة المعتدين، وطلب المنعة من كل سبيل، لا يعين لها وجهًا، ولا يخصص لها طريقًا، فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم، فيتقدّمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصالاة حفظاً لحقوقهم، وضناً بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع وإلى الله تصير الأمور.

## انحطاط المسلمين وسكونهم

### وسبب ذلك

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

إن للمسلمين شدّة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى اله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشدّ مما يشفقون عليه من الموت والفناء. وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسمة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه، رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقة والاسترجاع. ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه. ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئات من السنين لا يتمالك قبه من الاضطراب ودمه من الغليان. ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأي كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب.

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عندالله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان. وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقدّم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية، بذل الأموال والأرواح وركوب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حدلو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة

من دار حربه. وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحث كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلزم البعض الآخر، ولا يألون لما يآلم له بعضهم فأهل (بلوچستان) كانوا يرون حركات الإنجليز في (أفغانستان) على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولم تكن لهم نعة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون، وإن جنود الإنجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً وتقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائلهم.

تمسك المسلمون بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها، مما يقتضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجماً منه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كان هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مرآة عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل مشهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار، ما دامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو الآخر عماد.

إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند لعقل ولا أثر لها في الاعتصاب

والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، عن تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والري والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدّها، ووجد صاحب النسب من يظاھر في غير نسبة أو ألجأته ضرورة إلى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات. وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الإنساني من حيث ارتباط بعضه ببعض. إذا لم يصحب العقد الفكري ملجئ الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعدّ في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصرته إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها، لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عما يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شئون العالم الأفغاني وهكذا، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر، أما في

هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

كما كانت هذه الجفورة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والساطين من المسلمين. أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عمّ المسلمين حتى صَحَّ أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام. وهذا النوع من الإحساس هو الداعي إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعارضته.

كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه، فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وبقية الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم. كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يراعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور چنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً، وانفرد كل بشأنه أو انصرف إلى ما يليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال، وتلاحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفئات، كما يكون على الأموات من الأرقاب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شُرفوا بها على لسان الشرع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شئون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معقد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزr الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع

أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخافٍ على المستبصرين ما يتَّبِع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل.

إلا أنا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل، وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يثبتوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة، أو ما يخشى أن يمسها بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير.

\*\*\*



## سبات من له حق

### وحراك مَنْ لا حق له

هذه اول أوروبا جميعًا ودولة فرنسا خصوصًا شاخصة الأبصار إلى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها في القطر المصري وأضر بتجاريتها فيه، ولا تبدي حركة ولا يسمع لها صوت، إلا همس خفي في الجرائد، والدولة العثمانية وهي شديدة الأزر قوية العضد بما لها من المكانة في قلوب الهندين، وكل إنجليزي قلبه بين أصابع الدولة العثمانية، وأحشائه مستقرة على أناملها، وفي نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال في الأفطار المصرية، وسيادتها عليها كادت تكون اسمًا، ومع ذلك لا تأتي عملاً ولا تخطو خطوة، سوى أنها اكتفت بإقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة الذي الدول، حتى أبحها الصياح وليس من يسمع ولا من يجيب. وذوو الحقوق في الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم، قد شدت أياديهم بحبال من الآمال، وسلاسل من المخاوف، لا يجدون لهم قرارًا على فكر، ولا ثباتًا على رأي، وإنما هم بين إعصار من الأوهام، وتيارات من هواجس الخيال، يحملقون إلى مواقع الحوادث، حائرين لا يطرف لهم طرف، ولا يغمض لهم جفن، وعامة الأهالي في الديار المصرية بين فقر كاد يفضي إلى قحط، واختلاف في النظام، وضعف في السلطة، وخبط في الأحكام، كادت تؤدي إلى يأس من الإصلاح، وقد أخذهم الدوار من التلفت إلى جوانبهم، طورًا ينظرون إلى حكاهم نظر الآمل في همهم، وحسن تدبيرهم، وآخر إلى ما وعدتهم به الحكومة الإنجليزية من الجلاء عن أوطانهم، وتركهم وما يدبرون لأنفسهم، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم، بدون أن يجعل لهم فيها سهم، كأنما هم عنها أغراب لا يؤبه بهم، ولا يبالى بشأنهم.

نزاع بين رجال السياسة الإنجليزية وبعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر وإعلان السيادة عليها واستلام أزمة أحكامها، وآخرون يقولون هذا مما يخالف

أحكام الأمم، ولا تسوغه شريعة الوفاء، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمنًا يكفي لقضاء ما نريده فيها، ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتم البقاء. عبارات مختلفة، ومعان متشابهة، يتنازعون وهم متوافقون، ويتخالفون وهم متحدون، يذهبون في انتحال الأسباب لما يبتغون مذاهب مختلفة، فبعض الجرائد كجريدة «التايمز» وما على مشربها تعتل بالجنرال چوردون وتهون ما حل به من الفشل وتتقدم إلى الحكومة الإنجليزية بطلب إنقاذه من الخطر ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية، فلهذا الإعلان من القوة المعنوية التي تدافع عن الجنرال ما ليس لجيش عرمرم، أما إرسال الجيوش فهو محال لو عورة السبل وكثرة النفقات وشدة الحرارة، ولئن همت به الحكومة فإنما يكون من أعمال اليأس والقنوط، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصري، فداء لرأس الجنرال چوردون. وفي زعمها أن ما تراه ليس رأيًا يبدیه أرباب الجرائد، بل هو ما تراه الأمة البريطانية بأسرها، وربما لا يكون بعيدًا، وبعض الجرائد وتشاركهم جريدة «التايمز» تتذرع فيما تطب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق على ديونهم، وليس لهم ضمانات ترفع قلقهم، وتسكن اضطرابهم، إلا إعلان السيادة على القطر المصري وقوم آخرون منهم يجعلون حجتهم مصائب الأهالي المصريين ورزاياهم وما حلّ ببلادهم من احتلال، ولا ينقذهم من هذا الشقاء إلا السيادة الإنجليزية، جميعهم على وفاق على أن هذه السيادة هي الجوهر الثمين والسّر المكنون، والإكسير المضمون به على غير أهله، متى أبرزوه لم يبق مريض إلا عوفي، ولا ضعيف إلا قوي، ولا فاسد إلا صلح، كأن في هذا الاسم ما في الرقي والطلاسم، يغني عن الجيوش والأموال والعدة والرجال.

ولا نظن أن يكون في هذا الاسم ما يدعيه الإنجليز من القوة ولا أن تكون في طبه هذه الأسرار العجيبة، ولو أننا فرضنا تنازل أرباب الحقوق عن حقوقهم من الدول الأوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن والولاية، وسوغوا لحكومة إنجلترا أن

تنقش أحرف السيادة في أوراقها الرسمية أو في هواء الديار، فليس من السهل عليها أن تزيد الحامية إلى حد يحفظ ملكاً عظيماً يتأخم بلاد أوروبا وقد ظهرت آثار قوتها مدة الحلول وما عاد منها على البلاد، على أن الأهالي كانوا في سكون تام لركونهم إلى ما تعدهم به حكومة إنجلترا من الجلاء عن أوطانهم، فإذا أعلنت السيادة انفصمت علائق الآمال، وانحرفت القلوب ومالت إلى الدعوة القائمة على القرب منها، وانقلب الكافة إلى الذود على حقوقهم الوطنية أو المليية، ولا يرهبون القوة الإنجليزية في داخل البلاد بعدما علموا شأنها، ويكون هذا حجة جديدة لمحمد أحمد في تأييد دعواه لدى المصريين ولا يرعبه اسم السيادة بعدما لم ترهبه جيوش الجنرال هكس وجراهام، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية إلى إخلاء سواحل البحر الأحمر، فأبي شأن يكون لهذا الاسم الشريف؟! نعم يكون بداية مشكل جديد في مصر والله أعلم بعاقبته.

\*\*\*

### التَّعَصُّبُ

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية، تلوكة الألسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع حتى صار تكأة<sup>(١)</sup> للمتكلمين، يلجأ إليه العيبي<sup>(٢)</sup> في تهتهته<sup>(٣)</sup>، والذملقاني<sup>(٤)</sup> في تفيقه<sup>(٥)</sup> أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماها علّة لكل بلاء، ومنبعاً

١. التكأة: ما يتوكأ عليه.

٢. العيبي: من العبي وهو العجز عن الكلام.

٣. التهتهة: ضرب من اللكنة.

٤. الذملقاني: السريع الكلام.

٥. التفيقه: التوسع والتنطع.

لكل عناء، ويزعمونه حجابًا كثيفًا وسدا بين المتّصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنوانًا على النقص وعلمًا للردائل، والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشّدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال، وإذا رموا به شخصًا للخط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ إفرنجي (فناتيك)<sup>(١)</sup>، فإن عهدوا بشخص نوعًا من المخالفة لمشربهم عدّوه متعصبًا، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشمخوا بأنوفهم كبرًا وولوه دبرًا، ونادوا عليه بالويل والثبور، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدرًا لكل نقيصة، وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبية، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوّته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصف للنفس الإنسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم، وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرّق منها تحت اسم واحد، أو ينشئها بتقدير الله خلقًا واحدًا، كبدن تألف من أجزاء وعناصر، تدبره روح واحدة، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشئونه وسعاداته وشقائه عن سائر الأشخاص.

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناءة العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزّة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ الكلمة، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص. أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة

١. معناها: متعصب.

بقدر ما تسعه الطاقة.

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية. هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنيا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر، أو يئول بها إلى سوء عاقبة، وإن استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها. يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطاً في رتبة الوجود وإنما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلي، وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها، فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الأخرى. (سنة الله في خلقه) إذ ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل، وغفل بعضهم عن بعض، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط، وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضة روح التعصب في نشأة ثانية.

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف، له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء. فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل، لا يعترف له بحق، ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل، فتقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة، بل يتقوض

مجدها، فإن العدل قوام الاجتماع الإنساني، وبه حياة الأمم، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال، وهذا الحد من الإفراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم في قوله: «ليس منّا من دعا إلى عصبية».

التعصب كما يُطلق ويُراد منه النعرة على الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد كذلك توسّع أهل العرف فيه، فأطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضًا، والمتنطعون من مقلدة الإفرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت، ويرمونه بالتعس، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل. فإن لحمة يصير بها المتفرون إلى وحدة، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات، وكسب الكمالات، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنساني، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه، ومعاونته على حاجات معيشتة، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لزمته، فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية، وأوفرها نفعًا وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد، خصوصًا إن كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين. واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الإسلامية، على ما أشرنا إليه في العدد الثاني من جريدتنا.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط، فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والأشكال،

ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو تأصيل المجد وتأيد الشرف، وتخيل الذكر تحت الاسم الجامع لهم. هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني، وشهد عليه التاريخ بعدما أرشد إليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه.

ثغث جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفسد التعصب الديني وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به أخوالهم من ضيم، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يصددهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم، ومن رأي أولئك المثغثين أن لا سبيل لدرد المفسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامي، ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم.

كذب الخراصون، إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدب وأبصر مروّض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والخلائق الكريمة، وقيّمها على جادة العدل، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة، خصوصاً دين الإسلام فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة، وهي الأمة العربية.

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيقضي إلى ظلم وجور، ربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم، وكما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة إلى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب، وكما فعل الإسبانىون بمسلمي الأندلس، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود

في القدس وأحرقهم، إلا إن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة، ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل. أما أهل الدين الإسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعدما تجاوزوا حدود جزيرة العرب، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه، ويدفعون عنه غائلة الدوان، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم: (أن من رضي بدمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا). ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية.

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة، وكان ذلك في شبيبته وكمال قوتها، ولم يزل الأمر على ما كان، وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم، (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم).

لم يسلك المسلمون من عهد قريب المسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم، وتغلغلهم في افتتاح الأقطار، واندفاع همهم للبطشة في الملك والسلطة، وإنما كانت لهم دعوة يبلغونها، فإن قبلت وإلا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب



الفقه الإسلامي، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيا شوكتهم الأولى، فإنهم ما كانوا يطئون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم، والتطوق بدين أولئك المسلمين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسوريا، بل في البلاد الإفرنجية نفسها.

هذا فصل من الكلام ساق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر، وتذكرة لمن يتذكر، ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدده: هل لعقل لم يصب برزينة في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني نقيصة؟ وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدر وأطهر وأعم فائدة؟ لا نخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قرناه فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون؟ أي أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفارقة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل، ويعبرون عنه بمحبة الوطن، وأي قاعدة من قواعد العمران البشري في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها؟

نعم إن الإفرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما في الرابطة الدينية، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية، ولأولئك الإفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها، لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً، فإنهم علموا كما علمنا، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم، وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الأقطار الإسلامية، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة، فمثلهم كمثّل من هدم بيته قبل أن يهيئ لنفسه مسكناً سواء، فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته.

من هذا ما سلك الإنجليز في الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدا بهم وفي دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم، وأرشدتهم البحث في طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة المليية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم، فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام، ويلبسون لباس المسلمين، وفي صدورهم غلّ ونفاق وفي قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجرية - أي الدهريين - فاتخذهم الإنجليز أعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا نائرة غيرتهم، ويددوا جمعهم، ويمزقوا شملهم، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعمّ الضعف في العقائد وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الإنجليز في التسلط عليهم، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم، وغر أولئك الغفّل المتردقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسية (تعمس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذال العيش).

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتنال مطاعمها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الجبال في البلاد العثمانية والعصرية وغيرها من الممالك الإسلامية، ولم تعد صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سدّج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم، ويفسدون شأنهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم

وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء.

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدين ورمي المتعصبين بالخشونة.. الإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه، ومن القواعد الأساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم، وإذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً وهيئات ونياءات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدينة الغربية وينادي جميعهم: ألا قد أملت ملمة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخدوا الأهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية. وتراهم على اختلافهم، في الأجناس وتباغضهم، وتحاقدهم وتنازدهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم، لعثرة الأخرى حتى توقع بها سوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين، وإن كان في أقصى قاصية من الأرض، ولو تقطعت بيته وبينهم الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب، فلا ينبض فيه عرق ولا يتنبه لهم إحساس، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية، وليس من نوع الإنسان الذي يزعم الأوروبيون أنه حماته وأنصاره، وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق، ولكن كثيراً ما تجاوزه. أما إن

شأن الإفرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب!  
يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كجلادستون، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه  
إلا وفيها نقثة من روح بطرس الراهب<sup>(١)</sup> بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه، (انظر  
إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة).

فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها، ودمائكم فلا تريقوها،  
وأرواحكم فلا ترهقوها، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت. هذه هي  
روابطكم الدينية لا تغرنكم الوسوس ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم  
زخارف الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة  
الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي، والفارسي بالهندي،  
والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية، حتى إن الرجل منهم ليألم لما  
يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره، وتقاصت أقطاره.

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزّتكم ومنعتكم وسلطانكم  
وسيادتكم فلا توهنها، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل، فالعدل  
أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، وعليكم أن تتقوا الله  
وتلزموا أوامره في حفظ الذمم، ومعززة الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة وإحكام  
الألفة في النافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان  
المختلفة، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم، كما لا تقوم مصالحهم إلا  
بمصالحتكم، وعليكم أن لا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان، وذريعة لانتهاك  
الحقوق، فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب. هذا ولا تجعلوا  
عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض، بل تضافروا بها على مباراة الأمم  
في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل  
والكمالات الإنسانية.

١. هو داعية الحرب الصليبية.

اجعلوا عصيبتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

### القضاء والقدر

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية، فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الأعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالباً، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقّة استناداً إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تُعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقّة. كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت

من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعفة، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا إليهم أطوارًا، ثم حصروا علَّتْها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثُر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرقت كلمتهم وجعلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبل غفلوا عما يضرهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون في كسور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم، ثم يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزممتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئًا. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا، نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه، ويستعدي عليه جاره، فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية وضعفًا قاتلًا فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددًا ولا عدة، شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفرعون من الهمس، ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم في العزة والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم، مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة، وتنبيه الحمية، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحق منبغي الأقوياء وتسلط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلا

اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزاولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعديًا، ولا ينهضون بتقوية سلطان، أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويركس من طباعهم، حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجنب.

واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة، وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحوّلوا من عالم الوجود إلى عالم العدم. هكذا ظنت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق، ولست أخشى أن أقول: كذب الظان وأخطأه الوهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبًا، لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريًا في أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزاء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهي الربانية، الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارًا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكّه

للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقففة البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة يعدّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبقَ لهم أثر، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقاربه في الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم. وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة. وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الإدراك. والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس. وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله، فضلاً عن عاقل، وإن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزاء له خصوصاً في العالم الإنساني.

ولو فرضنا أن جاهلاً ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنّها الله في خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين، وإن بعضاً من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان في إثباتها، ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بأرائهم.

إن للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والأفكار، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم، وتكوّن الدول، أو فناء



بعضها واندراس أثره.

هذا الفن الذي عدوه من أجلّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر، والإذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات، ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوّض سلطان.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرّد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبراعة، ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمرور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة، كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد، على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية.

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دَوْلِهِمْ فِي يَوْمٍ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الأبواب مما دوخوا الدول وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلادًا، ودكدكوا أطوادًا، ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القسطل، وطبقة أخرى من النقع، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالًا وتلالًا من رءوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريضة، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لا يخشون فقرًا ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذي سهّل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجوهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم، كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانًا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم، وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة، هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الأكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب، يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم.

بكائي على السالفين ونحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضمين يوم الشدة، أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه

خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن يتحل نحلنكم؟ انصرفوا عن سبتكم، وجاروا عن طريقكم؛ فضلوا عن سبيلكم، وتفرقوا فرقاً وأشياءاً، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً، وتحترق الأكباد حزناً. أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم، ولا دفاعاً عن حوزتهم، ألا يصيح من براز خكم صائح منكم ينبّه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضال، إلى سواء السبيل؟ ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

أقول وربما لا أخشى واهماً ينازعني فيما أقول، إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم، ما وجد فاتح عظيم، ولا محارب شهير، نبت في أوسط الطبقات، ثم رقى بهمته إلى أعلى الدرجات فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر. سبحانه الله، الإنسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجملة، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر، وخوض المهالك، ومصارعة المنايا، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه إلى أن المقدركائن ولا أثر لهول المظاهر.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهول هول، ولا توهن عزيمة شدة، وأن إسكندر الأكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وچنكيزخان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان ناپليون الأول بونابرت الفرنسي من أشد الناس تمسكاً بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهيا له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت، نعم إننا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر، وربما كان هذا

سبباً في رزيتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة، ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخلص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل، لا في البطالة والكسل، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، وننبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقّة التي تجمع كلمتهم، وترد إليهم عزيّمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وإن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة - ولا غيرها من العقائد الإسلامية - ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه، بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من چنكيزخان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم، وإن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولي على أمورهم من لا يحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب له الضر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلّة صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا

إليه.

ولكنني أقول - وحق ما أقول - إن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقّة، ويعود الأمر كما بدأ وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدّها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا عبد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الإفرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر.

ثم ارجع البصرتجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب، حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقاً وغرباً وتألفت من خيارهم عصابات للحق كتبت على نفسها نصرّة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد لبث أفكارها، وجمع الكلمة المتفرقة، وضم الأشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يضمّره الأجانب لهم، وأنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً.

\*\*\*

## الفضائل والردائل وأثرهما

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]

قالوا: للإنسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه، وقالوا إنه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل، فما هي الفضائل وماهي الرذائل؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها، فالسرخيان لا يتشاحنان ولا يتنازعان في التعامل، فإن من سجية كل منهما البذل في الحق، والمنع إذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حدّه فيقف عنده، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية، والأعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات، فإن من خُلق كل منهم التجافي عن الشهوة، وفي طبيعته الإيثار بالرغائب، وهكذا إذا استقرأت جميع ما عدّه علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشئ عن تلك الفضيلة فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام في جميع الأعمال والمقاصد أو جلّها، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة. وعلى هذا النحو يكون الأمر في الأشخاص الكثيرة، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد، تميل بكل منهما إلى الآخر، إلى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم، يتحرّك بإرادة واحدة، ويطلب في حركته غاية واحدة، مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فإذا شمل طائفة من نوع الإنسان وقف بكل من آحاده عند حدّه في عمله لا يتجاوز بما يمسّ حقاً للآخر فيه يكون التكافؤ والتأزر، لكل شخص من أفراد الإنسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الإلهية من القوى ما به يحفظ وجوده، وما به التناسل لبقاء النوع، وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان، لكن قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازاً عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر، ووجود أرقى وأعلى، وهو كون الاجتماع، حتى يتألف من أفراد كثيرة بنية واحدة يعمّها اسم واحد والأفراد فيه كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال، وإنما كلّ يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود إليه نصيب

من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية، والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حدّ وظيفة كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الإبصار، والعين بها الإبصار وتميّز الألوان والأشكال، وليس من وظائفها البطش، والكل حي بحياة واحدة، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الإنسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيرة في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها، كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الإنساني، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله.

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدير أمورها، ويسوسها في شئونها إنما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها «من الأعلياء والأوساط بل سائر الأطراف» ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل، ولا يسعى إلى غاية تميل به من غاية الكل، ولا يهمل عملاً يتعلّق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا ترزعه العواصف ولا تدّكه الزلازل، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة، تحفظ بها موقعها، وتدفع بها عن شرفها ومجدها، وتردّ غارة الأغيار عليها، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل، واستعلت فيها مكارم الأخلاق.

إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف، ولا يتغيرون إلا للاتحاد، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم في تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرفي خيطة واحدة (حبل واحد) كلّ أخذ بطرف مع تعادل القوتين، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه، وحفظ لمكان قريبه منه من وجه آخر، فلا يفترقان ولا يتباينان، ولا تفنى منفعة أحدهما في منفعة الآخر، أما إن مسالك الأفراد

من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كأُنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية، وإنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمدُّ البحر لتستمد منه.

يرى كل واحد منهم أن ما تبتهج به النفوس البشرية، وتمتاز بالميل إليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة، إنما يمكن إذا توفر للأمة حظُّها من هذه المزايا فيسعى جهده لإبلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعدادده ليأخذ بسهم مما يناله. فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها. فضلاً عن هيئتها العامة. وإلا فقد خان نفسه؛ لأنَّه أبطل آلة من آلات عمله، وقطع سبباً من أسباب غايته، ولا يحتقر واحداً من الآحاد، ولا يزدري بعمله، ويحسب الشخص من الأمة وإن كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه.

عليك أن تنظر في حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي يَبْنَاهُ: التعقُّل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعقَّة والسخاء والقناعة والدمائة «لين الجانب» والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار «تقديم الغير بالمنفعة على النفس» والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة.

ألا ترى لو عمّت هذه الصفات الجليلة أمة من الأمم أو غلبت في أفرادها أيكون بينها سوى الاتحاد والائتنام التام؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حريين صادقين وفيين كريمين شجاعين رقيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتاً لأحييتها، أو قفراً لأنبتتها أو جدباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها، ولأقامت لها من الوحدة سياجاً لا يخرق، وحرزاً منيعاً لا يهتك، وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم: «إنما بعثت لأتمم



مكارم الأخلاق». الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة، وتحفظها من الانحلال المؤدي إلى الزوال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١٧].

وأما الرذائل فهي كصفات خبيثة تعرض للأنفس، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة «قلة الحياء» والبذاء «التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام» والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق، فأى صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء، وذهبت بهما مذاهب الخلاف إلى حيث لا يبقى أمل في الوفاق، فإن طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق وإما السقوط إلى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملة أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوع من أنواع التعامل، والإنسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها، وإن شئت فتخيّل وقحين بذئيين سفيهين جبانين بخيلين «كل يمنع الآخر حقّه» شرهين حاقدين حاسدين متكبرين «كل لا يستحسن إلا فعل نفسه» لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدّته قاضيًا بانتباز كل من صاحبه وإن لم تكن داعية، وكفي بخُلُقهِ وصفته باعثًا قويا للتناذب.

هذه الرذائل إذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضائها، بددتها شذر مذر، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوّة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر، فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حدّ الضرورة.

هذه صفات إذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، تراهم أعزّة بعضهم على بعض، أذلة للأجنبي عنهم، يدعون

اعداءهم للسيادة عليهم، ويفتخرون بالانتماء اليهم، يمهّدون السبل للغالبين إلى النكاية بهم ويمكنون مخالِبِ المغتالين من أحشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحًا، وكل جليل منهم حقيرًا، إذا نطق أجنبي بما يدور على السنة صبيانهم عدوّه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الأسرار عدوّه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم: ليس في الإمكان أن يكون منّا عارف ومن المحال أن يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفة والفخر الكاذب، ويتنافسون في سفاسات الأمور ودنياتها، يرتابون في نصيح الناصحين، وإن قامت على صدقهم اقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وإن كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكل سبيل، يقيمون في طريقه العقبات، ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ولا تتنظم لأعضائه حركة، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم، فتتفلت أعمالهم عن حدّ الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعًا ومبعثًا للضرر، يصير الواحد منهم كالكلب، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلى بجنون مطبق، أول ما يفتك بمربيه ومهذبه ثم يثنى بطبيبه ومن يعالج داءه، تكون الأحاد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة، يمزقون الأمة قطعًا وجذاذات بعدما يشوّهون وجهها ويشوشون هيئتها، أولئك قوم يسامون في مراعي الدنيا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم، فينتفخون على أبناء جلدتهم، ويدلون لقزم الأجانب فضلاً عن عليتهم، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم، من دونهم، ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الأعداء الألداء من طبقة إلى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى في أمة أو ملّة أخرى، سنّة الله في تبدّل الدول وفناء الأمم ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْىَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، أعادنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمتنا وملتنا من المصير إلى هذه النهاية.

بقيت لنا لمحة نظر إلى ما به تقننى الفضائل، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد «كل مولود يولد على الفطرة» مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه؟! أني يكون لهم حظٌ منها، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم؟! يرشدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد إليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا إذا قام رؤساء الدين وحملتْهم وحفظته بأداء وظائفهم من تبیین أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس إلى العمل بها، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها، أما إذا أهمل خدّمة الدين ووظائفهم أو تهاونوا في تأديهِ أعمالها ضعف اليقين في النفوس، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية، وتسّلت الحاجات المعاشية، ومال ميزان الاختيار مع الهوى، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل، فيحق على الناس كلمة العذاب، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا إليه سابقاً.

هذه علل الخراب في كل أمة، لقد ظهر أثرها في أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الإنسان إلى الآن، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل فيهم، بعدما بدلوا وغيّروا كما في طائفة (الدهير) و(منك) من سكّنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوروبيين بطائفة «باريا» ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]. فالدين وهو السائق إلى السعادة في الدنيا كما يسوق إليها في الآخرة.

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزّهم وألقاها على هامات قوم آخرين، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الإهمال في اتباع أوامر الشرع الإسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقد يكون ذلك، وربما لا ينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد إلا أنهم لا ينجحون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء، وهذا مما يحدث ضعفاً في قوّة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ولهم حسن الإذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لا يبقى وحالاً لا يدوم.

انظر نظرة إنصاف إلى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم، وإلى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله، تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الإسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجّه إلى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وبالحرص الإلهي المفهوم من قوله: ﴿قُلُوا لَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ «المؤمنين» ﴿طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة، لرأيت أن الأمة الإسلامية ناشطة من عقالها، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف، وبيضة دينها من الصدع، كل ذلك في أقرب وقت، ولن تكون إلا صيحة واحدة فإذا هم قيام ينظرون.

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الإسلامي يعلمون أن ما أصيب به

المسلمون في هذه الأزمان الأخيرة، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا، وليس للناس على الله حجة فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه، ومداواة العلة قبل استحكامها، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله، ويحكموا بينهم روابط الإخوة والألفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه، ويبدلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم، ويقنعوهم أنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم، ويوحد وجهتهم، ويقوى فيهم إباءة الضيم، والنفرة من الذل، ويحرك فيهم روح الأنفة، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنية في دينه، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

\*\*\*

### الوحدة الإسلامية

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكاني على حدود الصين، في عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك ظام، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيمهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخياضهم (الأراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الأشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت أهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال لهم المكان الأعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم، وفي الغرب ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين<sup>(١)</sup> وترتعد منها فرائض أعظم الملوك في أوروبا. ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان، وفي الغرب السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم.

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البحار إلى زمان غير بعيد، كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمئة مليون، وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات، فأودع في أفكارهم أصول الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلاً وأنبه ذهنًا وأشد استعدادًا لنيل الكمالات الإنسانية، وأقرب إلى الاستقامة في الأخلاق، وربما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شئون العالم أجمع ولو كره المبطلون، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذي سطوة من

١. فغفور: لقب ملوك الصين.

سواهم، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت. لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه. ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسلياً، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم إليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل.

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذا كَلَّه وقفوا في سيرهم، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم، وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته. هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون؟! هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون؟! هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟! لا. لا. إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاکمة في إرادتهم، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم.

نعم يوجد للتقصير في إنماء العلوم، وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأننا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم، فتعدد المملكة عليهم كتعدد وتعارض الغايات، في قبيلة واحدة، والسلطين في جنس واحد، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع، فضلاً عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها، والإعسار دون الترقى في عوالمها، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا

بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم.

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل.

هذا الذي أباد مسلمي الأندلس، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الإنجليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيتها.

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس، ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشئونهم، ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفساف؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبدى بعد الممات، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم واثلت آحادهم، ولكن وأسفا



تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى. هؤلاء الذين حوّلوا أوجه المسلمين عما ولا هم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب.

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر. إن رعاية المسلمين فضلاً عن علاهم تتصاعد زفرااتهم، وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاءً على ما أصاب ملتهم من تفرّق الآراء وتضارب الأهواء، ولو لا وجود الغواة من الأمراء، ذوي المطامع في السلطة بينهم، لاجتمع شريقهم بغربهم، وشمالهم بجنوبهم، ولبى جميعهم نداءً واحداً. إن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم، إلا إلى تنبّه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار.

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة، هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا وليس في ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية، فهي مصابة بالحاجة والإعواز، غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوروبا. لم يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها، ولم يرتق فيها الفن العسكري إلى حد ما عليه جيرانها، إلا أن هذا لم يقعداها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها، حتى صار لجيشها صولة تخفيف، وحملة تخشاه دول أوروبا.

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا، فيما هو أيسر الأشياء علينا، ونحن أشد الناس ميلاً إليه: من رعاية شرف الملة والتألم بما يحطّ منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها. ما رد الأفكار عن الحركة، وما أقعد الهمم عن النهوض، إلا أولئك المترفون، يحرصون على طيب في المطعم، ولين في المضجع، وتطاول

في البنيان، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون في حرصهم ما بعد يومهم، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد وهزّ الرأس وثني الأعطاف، تعظيمًا وتبجيلًا، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات، هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثيل (جمع ماثل، من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا، يحبسون هذه الأسود عن فريستها، بل يجعلونها طعمة للثعالب، لا حول ولا قوّة إلا بالله.

أيا بقية الرجال، ويا خلف الأبطال، ويا نسل الأقبال، هل ولي بكم الزمان، هل مضى وقت التدارك، هل آن أوان اليأس، لا، لا، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم، إن من أدرنة إلى بيشاور دول إسلامية متصلة الأراضي، متّحدة العقيدة يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونًا، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتفوقوا على الذبّ والإقدام كما اتّفق عليه سائر الأمم؟! ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض؟! أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدافعة عليهم من جميع الجوانب.

لا ألتمس بقولي هذا أن مالك الأمر في الجميع شخص واحد، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه بقاءه، إلا أن هذا بعد كونه أساسًا لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات، هذا آن الاتفاق، هذا آن الاتفاق، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرّقوا، إن البكاء لا يحيي الميت، إن الأسف لا يرد الفائت، إن الحزن لا يدفع المصيبة، إن العمل مفتاح النجاة، إن الصدق والإخلاص سلّم الفلاح، إن

الوجل يقرب الأجل، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف، ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، احذروا أن تقعوا تحت قول الله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] إن القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن أصيب من مقتته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه، وحكموه في أحوالكم وطباعكم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بملافاة أمرهم، قبل أن يقضى عليهم، بما رزى به المفرطون من قبلهم، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة، ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف، والله يهدي من يشاء ولله الأمر من قبل ومن بعد.

### الوحدة والسيادة

#### «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع، والمكلف بسيادة لا توضع. وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع في ضنائه (أصوله) هذين الوصفين الجليين، فأنشأ خلقاً سوياً، ثم استبقى له حياته بقدر ما يكون فيه من الصفتين إلى منتهى أجله. كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد

به بناؤها، فلا بد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض. إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها. إذا أحسست من أمة ميلاً إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم، إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرأنا أحوال الشعوب في وجودها وفناها، وجدنا سنة الله في الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب، وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكائهم، إلا عند لهوهم بما في أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم، ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلًا إلا بعدما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً وعذاباً وبيلاً، ثم فناءً سرمدياً.

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة، ولا يكون همّه بالفكر في هذا أقل من همّه بالنظر في أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظراً عقيماً حائراً بين جدران المخيلة، دائراً على أطراف الألسنة، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الاعتبار، والشئون الخاصة في المنزل الثانية منهما. ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سبلاً من التفكير،

ويخترطون سيوفاً من الهمة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونوادير من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها إلى حدّ العمر اللائق لها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده. وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة.

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذي بيناه، رأيت في الدهماء منهم والخاصة همماً تعلو، وشيماً تسمو، وإقداماً يقود، وعزماً يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم، في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب عن الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون فوزهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج إلا فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر.

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عواقب من مقتته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، جاء في قول صاحب الشرع: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً». وإن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مسّ أحدهما ألم تأثر له الآخر، وجاء في نهيه: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً». وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

هذا كله بعدما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الألهي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وطلب من المخاطبين بآياته إن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد على وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغي، فقال: ﴿وَ

إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴿٩﴾ [الحجرات: ٩]. وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيراً، وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن: «يد الله مع الجماعة»، وكفى بالقدرة الإلهية عوناً إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الإسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية، حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، وعدّ جحوده مروفاً من الدين، وانسلاخاً عن الإيمان، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم: «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم، حيث وفدوا على عبدالله ابن جدعان وتحالفوا على أن يدفعا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمي حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد على حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دُعي إليه، هذا إجماع الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنازعة والمغابنة بين المسلمين، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بدمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم؛ فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

وأما السعي لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهي داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفي السنة

المحمدية والسيرة النبوية، مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عدّها، هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا، كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجرائه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا، هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا ينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين، وأيسر شفاعة إلينا إقامتها وعديدنا أربعمائة مليون أو يزيد، هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

كل هذه الرزايا التي حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرننا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا، هل كان يمكن للأغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا، وهل كنّا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيتهم، وأيدينا على نواصيتهم. إن لأبناء الملة الإسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين؟ ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ٢، ٣]. ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقاً لا كاذباً، وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل، هل يود المسلم لو يعمّر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة هو دليل الإيمان، أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبدّ في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلّا ولا ذمّة، بل أكبر همّه أن يسوق

علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته.

لا.. لا.. إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر؟ المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين. هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لأبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، ونُدعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد.. واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الإسلام.

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه في أعداد ماضية، فآلهامهم عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهموا وما غووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه ولكن لا يهتدي إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحججه ما استطاع، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تُقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب. هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم، وما ضاقت به صدورهم من غارات الأغراب على بلادهم، حتى بلغت أرواحهم التراقي، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن



يكون فعلاً، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد، ويهيئ لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذي ما خاب قاصده، وهو ربي إليه أدعو وإليه أنيب.

\*\*\*

### الأمل وطلب المجد

﴿إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].  
﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سرٍّ عظيم، اختص الله به الإنسان ورفع به على سائر الأكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز ما أعدته له العناية الإلهية من الكمال اللائق به. راجع نفسك، وأصغ لمناجاة سرّك، تجد في وجدانك ميلاً قويا، وحرصاً شديداً، يدفعك إلى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك، ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها، تجد مثل ذلك في كليتها كما هو في أحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها، ذلك أمرٌ فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل إلى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول إليه وعراً في السبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا ينقص ميله، يقطع شعاباً، ويعاني صعاباً، حتى يرقى ذروة المجد، ويتنسم شاهق العزة، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء، ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر، ونسب كل عمل إلى غاية العامل منه، رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف، هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر والنهي، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار، حتى إذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم، تخطى حدود تلك

الطبقة ودخل في طبقة أخرى، ونافس أهلها في الجاه، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بسيط الأرض، ذلك لأن الكمال الإنساني ليس له حدّ، ولا تحدّه نهاية، وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حدا ليست بعده غاية.

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان وماذا ملكت من أهوائه؟ بعده ثمرة حياته وغاية وجوده، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه، أو عند مسه والخوف من سلبه، أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له إذا اعتدى عليه من تطول يده إليه بفعلة تهيئه، أو قذفة تشينه، يغلبه الغضب للدفاع عن المنزل التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به إلى الموت، وإن القذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه، ولا خشنت مضجعه في مبيته، آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم إلى المهالك، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد، جل شأن الله لا يهناً للإنسان طعام ولا شراب، ولا يلين له مضجع إلا أن يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه، كأن لذة التغذية والتوليد إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة، فما ظنك بسائر اللذائذ. كم يعاني الإنسان من التعب البدني وكم يقاسي من مشاق الأسفار. كم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات، وكم يتحمل في الانقطاع عن اللذات، مع التمكن منها، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما أتاه الله منه، ما أجلّ عناية الله بالإنسان لا يعيش إلا ليشرف فيشرف به العالم، وكل لذة دون الشرف فهي وسيلة إليه، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعر يسلكها الحي إلى ما يستطيع من المجد، وفي نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه، آسف الفؤاد على ما قصر عنه.

ما هو المجد الذي يسعى إليه الإنسان بالإلهام الإلهي، ويخوض الأخطار في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله؟! هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد، وتدعن له بالاعتلاء، وتُلقي إليه قياد الطاعة، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته إليه من

ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته إليه وكلمة المتصلين به، والملتحمين معه في شئون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الأولى، فما كان يحسبه طالب المجد عائداً إلى نفسه بالمنفعة، يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين. واه! تلك حكمة بالغة: إذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد. نعم وهل نال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]. ماذا يستطيع المجاهد وحده؟ وماذا يكسبه من سعيه، إن لم يكن له أعضاد من بني قبيله. فمن كان همّه أن يصعد إلى عرش العزة، ويرقى إلى ذروة السيادة فعليه أن يهيئ نفسه والمنتهمين إليه لتحصيل كل ما يعد في العالم الإنساني فضيلة وكمالاً. ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والإلهام الإلهي! وما أشد ما تحمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به! وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل إليه من هذا الأمر الرفيع! ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ويقرب كل بعيد، ويصغر كل عظيم، ويلين كل خشن، ويسليها عن جميع الآلام، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة، فضلاً عن بذل كل نفيس، والسماح بكل عزيز! هذا الباعث الجليل، وهذا الموجب الفعال هو الأمل.

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في بهماء الكروب، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم إذا عرتها فترة، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنية والتشهي للذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب، كأن صاحبهما يروم أن يبدل الله سنته في سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق إليه ما يهيجس بخاطره دون أن يصيب تعباً أو يتلاقى مشقة، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصعبه حمل النفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطئتها لملاقاة البلاء

بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون.

وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات، فإن كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر، فكل طالب ومطلوب، ولم تبلغ سعة العقل الإنساني إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم تزاخموا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين. فإذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هاتين الخليتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف إلى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما).

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم، يحكمون على أنفسهم بالخطية، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنيا ويتعاطون الرذائل، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أيا كان، فتسلب منهم جميع الإحساسات والوجدانات الإنسانية التي يمتاز بها الإنسان عن الأنعام فيرضون بما ترضى به البهائم، فلا يهتمون إلا بحاجات قبحهم وذبذبهم، ثم يا ليتهم يكونون هملاً وسوائب يرعون النبات، ويتبعون مواقع الغيث، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم، فيكونون كالنمل الحمال لا تستفيد مما تحمل شيئاً، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها

ويستريح، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الأعمال الشاقة، ويدأبون بأشدّ مما يدأب العامل لنفسه، ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً، ثمرات كسبهم بأسرها محولة إلى الذين سادوا عليهم بهمهمهم (هذا الذي يتجشّمه الدليل في ذلة من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزّة لأصاب حظّه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة، فإن السائدين يشعرون بحكم البداهة، أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ورضوا لها بما دون حقّها، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الإنساني وإياداعهم ما أودع في أفراد الإنسان فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات، ولنا على ذلك شاهد العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الأجانب.

ونظن أنه يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منّا وليسوا ببعيد عنّا. عجباً كيف تتبدل أحكام الجبلّة وكيف يمحى أثر الفطرة؟! كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة؟! وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل؟! والأمل وحب الكرامة طبيعيان في الإنسان، بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوّته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصدّه بالقهر فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية، وقوته فراها واهنة، فيعترف بوهنه، ويسكن إلى عجزه، فييأس ويقنط، ويذل ويسفل اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل إلى العمل لا ستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع في الشقاء الأبدي، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف

يشاء، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس، وتغتال آماله غائلة القنوط، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة، فيركن إليها في أعماله، ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقاً، فكلما تعاضمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها، وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب، فلا يمل ولا يكل، ولا تدركه السامة، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء، ويلقي قيادهم إلى الأذلاء، وأن يدك الجبال ويشق البحار، ويمكن الضعفاء من نواصي الأقوياء، وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار، فتشند عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الأولى والآخرة، وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وبما حكى من قول نبيه إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر، ومن أين يطرق اليأس قلباً عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة؟!

لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم، ولا يسوغ لهم أيماهم أن يرضخوا للذل، ويرضوا للضميم، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الأمم، فإن لهم ملوكاً عظاماً، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض، وإن من الحق أن نقول إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها، وإن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها والفرص دائماً تمتد أيديها إليهم تطلب إنهاضهم وتنبيه غافلهم وتوقظ نائمهم، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم، فأى موجب لليأس وأي داعٍ للقنوط وبين

أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين، وهل توجد واسطة بين الرشد والغي؟ ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، هل يكون للقائطين فيهم من عذر؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا؟ ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقير وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم، وبغيض شامت، ومقبح غبي، ومشنع دني، ومعير خسيس، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد، ويحكمون بأن محالاً عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم، ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة انسانية؟!

كيف يرضي بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات! أينسون أنهم كانوا في الأرض وما طال على ذلك الزمان، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض؟!

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه، لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم، لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية آمال المسلمين، وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم؟!

بلى إن قومًا شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة، إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعريضهم، ليتمكن الجميع من نصر الله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

## رجال الدولة وبطانة الملك

### كيف يجب أن يكونوا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قالوا تصان البلادو يحرس الملك بالبروج المشيَّده، والقلاع المنيعه، والجيش العامله، والأهـب الوافرة، والأسلحة الجيدة. قلنا نعم هي أحرز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولو رأي وحكمة، يتعهدونها بالإصالح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شئون المملكة، يوطنون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل، ويوقفون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل، ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن له، ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالرحمة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحماية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم، يجدون في أنفسهم منبهاً على ما يجب عليهم، وزاجراً عما لا يليق بهم، وغضاضة وألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر له بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يؤدي أعمال وظائفهم كما ينبغي، ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله إلى فساد كبير في الملك، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.



يسهل على حاكم في أي قبيل أن يكتُب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات، ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم: عقلاء رحماء، وأباة أصفياء، تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم؟ لابد أو يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، ويراعى ناموس الطبيعة، فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلمما يخطيء في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلاً، وجعل له من هديه مرشداً. وإذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الإنساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والرحمة والحمية والنصرة على الملك والرعية، إنما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيع يشد صلته بها، هذه فطرة فطر الله الناس عليها، إن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعي نسبته إليها ونسبتها إليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدفع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيرًا حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام، كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين)، هذا إلى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما تصيبها من الأرزاء يصيبه سهم منه. خصوصًا إن كان بيده هامات أمورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فإن حظه من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشئون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة.

فعلى ولي الأمر في الدولة أن لا يكل شيئاً من عمله إلا إلى أحد رجلين: إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفاني في وقيتها من كل شين

يدنو منها ولم توهن روابطها الاختلافات المشارب أو الأديان، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها، كالدين الإسلامي الذي حل عند المسلمين وإن اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية، فإن كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابقين والدينية) مبدآن للحماية على الملك ومنشآن للغيرة عليه.

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام الجنس، فمثلهم في الدولة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهتمه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل، هذا إذا صدقوا في - أعمالهم يؤدوّن منها بمقدار ما يأخذون من الأجر، واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فإن الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يسمه شيء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها إذا فقد العيش فيها فارقها وارتد إلى منبته الذي يتسبب إليه، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شئونه ما عدا الأجر الذي يأخذه، وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يُعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً يبعثه على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه، هذه حالهم هي لهم بمقتضي الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض آخر، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق؟ وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا، وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم، يمهّدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة)<sup>(١)</sup> ومن تتبع التواريخ التي

١. يقصد الأفغاني في مهاجمته العنيفة هنا، بعض الأجانب الذين يسيئون إلى البلاد التي آوتهم. ويدعي أن هجومه لا ينطبق اليوم على الأجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد في ظل القومية العربية.

تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه بشئون عباده، رأى أن الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها، وإن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصًا إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طيبتهم من أزمان طويلة. نعم كما يحصل الفساد في بعض الأخلاق والسجاياء الطبيعية لسبب العوارض الخارجية، كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك، إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها. وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب الفساد، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته، إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة، لا يمكن محوه بالكلية، فإذا أساء في عمله مرة ازعجه من نفسه صائح الوشيعة الدينية أو الجنسية، فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى، وإن ما شدد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والاتفات إليها، ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق وإن بعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق، وأخص من بينهم أمراء المسلمين، حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم، بعدما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان، وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة،

وبعدما علمتهم التجارة أنهم إذا ائتمنوا خانوا، وإذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة، أما أن لأمرء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقص، ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم، ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب، ألم يكن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم؟!

ألا أيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب عنكم؟! ﴿هَآ أَنتُمْ أَوَّلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. سارعوا إلى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، واتبعوا سُنَّةَ الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كي لا تضلوا ويهوى بكم الخطل إلى أسفل سافلين. ألم تروا، ألم تعلموا، ألم تحسوا، ألم تجربوا، إلى متى؟ إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

\*\*\*

### كم حكمة الله في حبّ المحمّدة الحقّة!

العالم الإنساني كتاب المعتمر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ولنا في كل ما خطّه القلم الإلهي عبرة. أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة، فترى أمماً علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث، ومنها أجيال كانت في ثنى العدم ثم اكتست حلية الوجود، واتخذت من الاجتماع الإنساني مكان الهامة من الجسد، ثم انطوت

وأخنت عليها أمهات قشعم ومنها ما نراه إلى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهد القوة.

فمن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه، وينقبض للآخرة إذا أنكره، وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها، فإن سُئل عن السبب قال: سبحانه الله هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الأشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته إلى الحقيقة فيقف على ما هيأه الله من الأسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ويعلم أن ما سيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أمثالها جدوا وجاهدوا، وربما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم ففازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع ومكانة من القلوب تحمد، وتمييزاً عند الخلف بالكرامة وهم لا يخالفون الناس في جسومهم ودماءهم، وإنما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار إلى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر، فإذا أخذ مأخذهم، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطوعة، ورءوس مجذوزة، وأشلاء مبددة، وشعور مثورة، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مخرسة بقبور الشهداء، من طلاب الحق والناهجين في منهاجه، ولا محيص عن سلوكها، وتبدو له غابات وأدغال يرجع إليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم، ولا بد له من اختراقها.

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها، فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقبه، ويرتد إلى أسوأ حاله ويرتع في مراتع أمثاله، حتى يروح إلى عطنه الأولى به وهو العدم، وتارة يوحى إليه الإلهام الإلهي أن الشخص في خاصته والأمم في هيئاتها ونوع الإنسان في مجموعته، تطالبها صورة الإبداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس في السعي، وحملها على ما لا تهوى، ومغالبة الأهوال والغوائل، وفيما أودع الله

الإنسان من القوى العالية، والخواص السامية، أكبر مساعد على ما تندفع إليه الهمة، وتنتعش له العزيمة.

إن من أحياء الله بالحياة الإنسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً على قهرها كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام إلا حدة في الجدل، وإصراراً على إقناع المخاصم، وكثير ممن على شكل الإنسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الإنسان في إبراز مزايا الإنسان.

إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسه الكواسر، ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة، ويعتصم بمكانه من الرفعة، وتقصر عنه يد المتناول، أما من أخلد إلى السفلى فحظه من الحياة خوف لا ينقطع، وإشفاق لا يزول، كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد، والوقوع بين أنياب الغائل، مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا، وبلغ كثير من الطالبين غاية من أملوا، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء من رثموا الخمول، ورضوا بالحياة الحيوانية - هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل إلى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد، فإما وصل وإما مات كما يموت الكرام.

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحموده عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف، الآداب والفضائل، أو القوانين والنواميس العادلة، أو العسكرية وقوة الحماية، حتى خرج آحاد منها إلى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب، وسلكوا تلك المسالك الوعرة، فبلغوا بأممهم أقصى ما بلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الأزلية في جميع سيرهم.

ماذا يريد القانون في خدمة الأمم أو النوع الإنساني، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركونهم في النوع؟! أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً؟! أليس من سُنَّة الله في عباده أن لا تتجه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المديد إلا بعد تصوّر غاية تعود إلى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل، فإن كان الأجل يذهب في مساورة

الآلام الروحية، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية؟! فماذا يقصدون من أعمالهم، إن كان يوجد في أبناء جلدتهم، وذوي ملتهم، من يساعد حوادث الكون على إيلاهم، وممانعتهم في مقاصدهم، وصددهم عن السعي فيما يرجع خيره إلى أنفس المعارضين، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم، لا لذة تجتنى، ولا ألم يتقى، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء؟!

نعم أودع الله في الإنسان ميلاً أقوى من كل ميل، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع، وهو (حب المحمودة الحققة وحسن الذكر من وجوه الحق)، أقول هذا تفادياً من حب المحمودة من أي وجه حقاً كان أو باطلاً، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء، والظهور بمظاهر الأخيار، مع تبطن سرائر الأسرار، فإن هذا من أسوأ الحلال، وإنما يعرض بع اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمودة هي الغذاء الروحاني، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الإنساني تهاون بالشهوات أو ازدري باللذائذ الحسية، وقوى فيه الميل إلى المحمودة الباقية، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال، تأمل، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين أقصرهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر، والآخر أبعد من هذا نهاية، وبدايته عندما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الإنساني، وغاية هذا الأجل عندما يمحي أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ. فللروح الفاضلة وجودان: وجود في بدنها الخاص، ووجود في جميع الأبدان، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل، ولا ريب أن هذا الأجل الطويل، وهذا الوجود العريض، خير من ذاك الأجل القصير، وذلك الوجود الكز<sup>(١)</sup> وحقيق بالإنسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير.

يطول بي الكلام فأقصر، إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبلة

١. الكز: اليايس والمنقبض، والمراد هنا ما لا خير فيه.

البشر ميلاً إلى الحمد، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه، ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على كل من كان سبباً لها في مجد ورفعة، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كلمة، أو تجديد قوة، أو كمال في فضيلة، أو تقدم في علم أو صنعة، ويرسمونه في الألواح، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ، ويرفعون له الهياكل والتمائيل، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء، حتى ينقرضوا وينقرض العالم.

إذا جحدت الأمة حق العامل لها، أو قصرت في استحسان عمله، ضعفت الهمم، وقل السعي في المصالح العامة، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها، فهبطت شئون الأمة، فافتقرت وماتت.

إن الله جلّ شأنه قرن كل حادث بسبب، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح، والطيب والخبيث، والفضيلة والرذيلة، والمصلحة والمفسدة، وفقد منها التمييز، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها، ولم تعرف معروفًا، ولم تنكر منكراً، سلبت آحادها الميل إلى المعالي والكمالات، وكانت هذه أشد نكايه بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين، ظلم الظالم لا يدوم، وسطوة الغالب لا تثبت، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان بالاعتراف، والفضل بالحمد، فإنه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها، وأما فقد هذا الإحساس الشريف، فهو أشبه علة بالهرم، لا عقبى له إلا الموت والهلاك.

كيف لا تكون المدحة الحققة نعمة على النفوس الإنسانية، يسعى إليها الأعلون من بنى الإنسان، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وكيف لا تكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات، كما سوغ لنبيه ذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها، تجد برهاناً قاطعاً على أن الأمة متى بخست قيم الأعمال العالية، وازدري فيها بشأن الفضيلة، فقدت ما به قوامها، وانهدم بناؤها، وذهبت كما ذهب أمس، ولا جرم أن الكفران مقورن بزوال النعم.



يمكنني أن أختتم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة، التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة، ووقفت على شفير الخطر، وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين، ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد، نسأل الله نجاح أعمالها وتأيد مقاصدها إنه نعم المولى ونعم النصير.

### الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون، فئة ترى الشرف في تشييد القصور، والتعالي في البنيان، وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم، واقتناء الجياد، وركوب العربات، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب، والتزيّن بألوان الألبسة وأنواعها، والتحلي بحلي الجواهر الثمينة، مرصعة بالأحجار الكريمة، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها، وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبك والباشا، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كأول من الصنف الفلاني، والثاني من الدرجة الفلانية، حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه، وينهب ثروة أقاربه وذويه، أو بني ملته ومواطنيه، ليشيد بما يصيب من السحت قصرًا، ويرفع بناءً ويزخرف بيتًا، ويقيم له حراسًا من المماليك، وخفراء من الغلمان، ويظن بذلك أنه نال مجدًا أبدى وفخارًا سرمديا، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف، وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب، ويتزين بأجمل الحللي أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله، ويخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقبًا من تلك الألقاب، أو يحصل بها وسامًا أو يستفيد وشاحًا، وسواء عنده الوسائل التي يطلبها أيا كان نوعها، وإن أفضت إلى خراب بلاده، أو تذليل أمته، أو تمزيق ملته، وعنده أنه رقي الذروة من معنى الشرف. نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها

طمست عين الحق فيهم، حتى عموا عن إدراك أخطائهم وانحرفهم عن الصواب في وهمهم، ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره وولدانه وحوره لا يحس من أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال، وإن جميع ما حصله فهو أجنبي عنه، وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء في تحصيله، ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أوفاقه، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة.

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرد منه وخلا بنفسه إن لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال؟ ألا يكون هو وعرة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور، في ميدان واحد، ماذا يتصور الزاهي برتبته، المعجب بوسامه، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته، على حال تجل، أو كمال يبجل، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام، أو نزع عنه الوشاح، يعود إلى منزلته من الاحتقار؟ فإن نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به؟ ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال، بل رسماً ظاهراً لا يمسّ بواطن القلوب؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر إذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً إليه، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعله يمقتها العقلاء من النوع البشري، وكان الوسام أو اللقب عنواناً على ما اقتترف كاسبه، وعلامة على ما احترم.

انظر وتدبر ولا تخطيء فما أنت من الصواب ببعيد، إن عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد (بلاونة) نال رتبة ومُنِحَ لقباً، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعدما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته، وجاهد في إعلاء كلمة دينه، بما شهد له الأعداء والأصدقاء، وإن بعض الأمراء في ديار إسلامية علق

عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الإنجليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم، لافتتاح بلادهم، حتى مكنوا الإنجليز من ديارهم، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين، أظن رجح النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلاً عليه ويسقط بسقوطه.

ماذا غرّ أولئك الواهمين على اختلافهم، ألا يعلمون ن الثياب المعلمة بالدم، الموشاة بالنجيع، الملونة بالمهيج، هي التي حفظت للابسيها ذكرًا حسنًا لا ينقطع، وأثرًا مجيدًا لا يمحي، إن الذين ضرّجوا بدماءهم في طلب المجد لمللهم، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب، ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبتهم في غيابات الجبّ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجودهم الذين سما ذكرهم إلى شرف الشمس الأعلى، وعلت أسمائهم على جميع الأسماء، أظن أن الذين كانوا في الغرفات العالية ينظرون إلى جناتهم وحدائقهم، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم، ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم، فارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاءوا إلى الدنيا، ومتى انكشفوا عنها.

هل سمعنا أن أحدًا يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا؟ نعم يقولون علم وعمل، وأعطى وبذل، ورفع ووضع، وجاهد وكافح، وأباد وأبقى، وما يشاكل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت، إذا ذكر إسكندر الأكبر هل يخطر بالبال أن كان له قصر أو لا؟ أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه، أو في خرق ثياب كان يلبسها وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعدما شيدوا وزينوا وترفهاوا وتنعموا، أكان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا

ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي؟ خدع قوم بالأحلام وغرتهم الأوهام. ففطروا في شئون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التي لا مسمى لها، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعدما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها، ونالها غير أهلها، فلو أنهم أصغوا لما تحدثتهم به سرائرهم، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم، وما لصق من الذل والعار بذرايرهم، لطحوا الوشاحات، ونبذوا الوسامات، ولبسوا أثواب الحداد، ونفروا خفافاً وثقالاً لطلب الشرف الحقيقي.

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع، وحددتها عقول الكاملين من البشر، وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها، إلا من ختم الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

الشرف بهاء للشخص، يحوم عليه بالأنظار، ويوجه إليه الخواطر والأفكار، وجمال يروق حسنه في البصائر والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته، أو في النوع الإنساني عامة، كإنقاذ من تهلكة، أو كشف لجهالة، أو تنبيه لطلب حق سلب، أو تذكير بمجد سبق، وسؤدد سلق، أو إنهاء من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم، أو تحذير من شر يغم، أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول، أو جمع كلمة وتجديد رابطة، أو إعادة قوة، وانتشال من ضعف، أو إيقاد حمية أو خصومة لغيرة.

من أتى عملاً من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصائص والأكواخ، ويلبس الدلوق والأسمال، ويقنت بنبات البر، ويسبب على تراب الفقر، ويتوسد نشز الأرض، ويضرب في كل واد، ويتردد بين الربي والوهاد، هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده، يهدي إليه ضالة الأبواب، وتائهة الأفئدة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتنفه دارات

القلوب المتطاهرة إليه ولا تنفصل عنه، له من روحه قصور شاهقة، وغرفات شائقة، ومناظر رائقة، وجمال باهر، ونور زاهر، لا يكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يستتر حتى يبصر، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين، حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه، فيسلقونه، بالألسنة، ويرشفونه بسهام اللوم، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله، ولا أنوار مزاخره، لبعدها عن فهمهم، وغرابتها على حواسهم، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفساف الساقطة، التي عدوها شرفاً، وحسبوها مجداً، وقد بينها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء، وإنما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد، ويألف روائح القذر، لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل مَنْ لا خلاق لهم، أو يقصده بالإضرار من لا ذمة له، ولكنهم بأنفسهم يهزءون، وبمصالحهم يضرون، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى، بل لا يلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها، ويطعموا من جناها، ولا يسعهم بعد ذلك إلا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وإن كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندماً على الخطيئة، وأسفاً على السيئة وألماً في قلوبهم، تهيج ذكرى ما قاموا به من سوء عملهم، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم، هكذا تمنح العناية الإلهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حياً، فإذا غابت شمسُه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات، وبدور منيرات، نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه، ولكنه قائم في الأفئدة، شاهد على الألسنة، حي عند ربه، ونعمت الحياة حياته، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

\*\*\*

## الأمة وسلطة الحاكم المستبد

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

إن الأمة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها، في منافعها العمومية، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيتها نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير، فتعتورها السعادة والشقاء، ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، ويتناوبها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها، فهو تابع لحال الحاكم فإن كان حاكمها عالمًا حازمًا أصيل الرأي، عالي المهمة، رفيع المقصد قويم الطبع، ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة، وفتح لها أبوابًا للتفنن في الصناعات، والحدق في جميع لوازم الحياة، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضيم، والأنفة من الذل، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير. وإن كان حاكمها جاهلاً سيئ الطبع، سافل المهمة، شرهاً مغتلاً جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، معوج الطبيعة، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل، وفتح أبواباً للعدوان، فيتغلب القوي على حقوق الضعيف، ويختل النظام، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة، ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة.

عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب المهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه. وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت

وفرعها في السماء، وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات «استبدلوا الخبيث بالطيب»، وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شئونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء، فأنذرها بمضض العبودية، وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم، جزاء على ما فرطوا في أمورهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

\*\*\*

### دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان

«إذا أراد الله بقوم خيرًا جمع كلمتهم»

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيهًا لأفكار المسلمين، واستلفتا لعقولهم إلى ما فيه خيرهم، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر، خصوصًا جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة (طهران). وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الإسلامية، فإن جميعها بعد بلاد العرب، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية، فهي في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب، وكان بودنا أن يعزوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة، وأذهانهم الصافية، وترشده إليه عقولهم العالية، خصوصًا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الإسلامية، وإحياء الرابطة المليية بين المسلمين، لا سيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين.

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم، وقد زادهما ارتباطًا اجتماعيًا في الديانة الحقّة الإسلامية، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو إلى شقّ العصا، وتمزيق نسيج الاتحاد، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التباين الخفيف سببًا في تخالف عنيف.

ليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية، وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه، وحفظ أحكامه وكشف أسرارهِ، وما قصرُوا في خدمة الشرع الشريف بأيِّ وسيلة.

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبخاري وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتهم أراضي إيران، أبوبكر الرازي الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران، أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، وأبو إسحق الإسفرايني، والبيضاوي، وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهرى وعضد الملة والدين، وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخر للمسلمين، الفيلسوف الشهير أبو علي بن سينا، وشهاب الدين المقتول، ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس. إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي، وضبط أصوله، وتأسيس فنونه، منهم سيبويه، وأبو علي الفارسي، والرضي، ومنهم عبد القاهر الجرجاني، مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية، وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم، ومجد الدين الفيروزآبادي، من إحدى بلدانهم، الزمخشري، والسكاكي، وأبو الفرج الأصفهاني، وبديع الزمان الهمداني، وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن، وشيدوا معالم الدين، كلهم من أرض فارس.

الطبري أو المؤرخين، والإصطخري، والقزويني، أول الجغرافيين، كانوا من بلاد فارس، الشبلي كان من نهاوند، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام، والأستاذ الهروي - وهو الأستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي - كان من هراة وكلها بلاد إيران.

هل يُنسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البزدوي والآمدي، والمرغيناني، والسرخسي، والسعد التفتازاني، والسيد الشريف والأبيوردي، وكلهم من أبناء فارس، من أين كان القطب الشيرازي، والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد، ومير فندرکسي وغيرهم كانوا من بلاد فارس؟ أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى، أي مزية من الله بها على الإسلام ولم يكونوا من



السابقين لا قتناؤها، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس».

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم، وانظروا إلى آثاركم في الإسلام، وكونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية، أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعى في استرجاع ما كان لكم في فتوة الإسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم، أظن لا يخفي عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً، وحرزاً منيعاً، تقف دونه أقدام الطامعين، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين.

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين، حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة.

هذا أن التأخى والتوافق، هذه أوقات التحالف والتوافق، أحاط الأعداء ببلادكم، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فر بما لا تصادفونها في غيره، الإنجليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم.

الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شيبوبته أشد الناس عداوة للإنجليز، وبينه وبينهم حزازات لا تزول، بل نقول إن عداوة الإنجليز سارية في عروق الأفغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان، لوجدت قوة إسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة، وتتجدد لهم

آمال جلييلة، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين، هذا وقت تنبّهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسألة المصرية، وتحركت فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم.

هذا عمل من أجل الأعمال وأجزؤها فائدة، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وإن لذلك لأنثراً عظيماً في النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الأعلام، والمجتهدين الكرام.

العالم الإنساني عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتنقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم، فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعدوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية، والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلاً لهم النجاح.

أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشك أن شاه إيران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهد أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعي فيه، إن البادىء بالعمل في هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عمومًا ويجني ثمرته في وقت قريب.

كان الألمان ينفذون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين في مذاهب الديانة الإسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية، ظهر الضعف في الأمة الألمانية، وكثرت عليها عادات جيرانها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا ويدهم ميزان سياستها.

ورجأونا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنگ) الأصفهانية، وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع، ويجعلوا له محلاً فسيحاً في جرائدهم، وينشروها في بلادهم، وبلاد الأفغان، باللسان الفارسي، وهو لسان الطائفتين، وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين.

### امتحان الله للمؤمنين

﴿الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا، ولإيمان آثار، ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس، وغرت بها الأمانى، وإنهم تائهون في أوهامهم يحسبون أنهم على شيء، وهم خلو من كل شيء، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم. إلا في غيه حتى يبتليه في دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة، حاشا حكيمًا أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد، وبشر وأنذر، وقوله الصدق، ووعد الحق، أن يجازي من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر، وظن ليس له أساس، وبالسعادة السرمدية، والنعيم الأبدي، إن المغتر بزعمه، الحائر في ظلمات أوهامه الذي لايسهل عليه الإيمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله، ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد. الإيمان يغلب كل هوى، ويقهر كل أمنية، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه، يقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ (٢٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخرِ وَاِذَا ثَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٤﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥]، هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الإيمان، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون.

صدق الله وصدقت كتبه ورسله، إن للعقائد الراسخة آثارًا تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والإرادات لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين، هكذا الإيمان في جميع شئونه وطواره، له خواص لا تفارقه، ونزعات لا تزايله، وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم، نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً إبريزاً صافياً من كل غش، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً. ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب!

نعم إن دون ابتلاء الله خلع العادات، وتحمل الصعوبات، وبذل الأموال وبيع الأرواح، كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الإيمان، فكل تهلكة فيه فهي نجاة، وكل موت في المحاماة عن الإيمان فهو بقاء أبدي، وكل شقاء في أداء حقوق الإيمان فهو سعادة سرمدية، المؤمن يبذل ما له فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر، وإن كان الشيطان يعدّه الفقر، ليس في النفقة لأداء حق الإيمان تبذير ولو أتت على كل ما في أيدي المؤمنين، إن للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة، وإن له لذة وراء لذاتها، وإن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها، هكذا يرى المؤمن إن كان الإيمان مسّ قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله.

إن الفرار من محنة الله في الإيمان مجلبة للخزي الأيدي. إن الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدية. لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق، إن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، إن القيام بفرائض الإيمان محفوف

بالمخاطر، مكتنف بالمكاره، كيف لا وأول ما يوجب الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهوته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه، لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه. أول إحساس يلمّ بنفس المؤمن أنه في هذه الدنيا عابر سبيل إلى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى. وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعي الإيمان، ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه. لا يقبل الله في صيانة الإيمان عذراً ولا تعلقة ما دامت الرجل تمشي والعين تنظر واليد تعمل. إن امتحان الله للمؤمنين سنة من سنة.

\*\*\*\*

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]

يوجد بين بني البشر نفوس لم يرضها الإسلام، ولم تقنع بالكفر، تتلون تلون الحرياء، وتتشكل تشكل الأغوان، وتتقلب تقلب الدهر الخئون، لا ترضى بحال، ولا تنسج على منوال، يضحكون وقت البكاء، ويمرحون عند اشتداد اللأواء، ويبكون لأوقات المسرة، ويضجرون لسعة الرحمة، مثلهم كمثل الحسك المثلث الأضلاع، كله شوك حيشما قلبته، تراهم في النهار مسلمين متقلبين بين مذاهب الإسلام يصبحون سنيين ويقىلون شيعيين ويقضون طرف اليوم وهابيين، فإذا جنّ الليل رأيتهم دهرين إباحيين، أولئك الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، منهم أناس من أرباب الجرائد الساقطة في الهند يريدون أن يتزلفوا للحكومة الهندية الإنجليزية بما فيه مضرة أوطانهم وأبناء الملة التي ولدوا فيها لينالوا من ظالمهم جائزة ما، أو ليكون لهم في دوائرهم اسم ما، فأخذوا يئولون بعض فصول العروة الوثقى ويحولونها عن وجهتها جهلاً، أو عناداً ولوماً، ويحرفون الكلم عن مواضعه على حسب أهوائهم الخسيسة، وطباعهم الخبيثة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، أولئك قوم عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأن يعرفون به فليس يهمنا أمرهم. وإنا نقدم الشكر للجرائد المهمة الهندية الناهجة في خدمة أوطانهم منهج الحق، السالكة جادة الاعتدال على ما تعني به من ترجمة فصول العروة الوثقى إلى

اللسان الهندي تعميمًا للفائدة في أبناء أوطانها، جزاها الله عن المسلمين خيرًا.

### أسباب حفظ الملك

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أهلك الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمّر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتي لكل حين أناس آخرين، حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وليست أفعاله جزافًا، ولا يصدر عنه شيء عبثًا، أمر الله عباده بالسير في الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١١] ليريهام قضاء الحق وحكمه العدل، فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية الانقلاب الأمم، وخاض في تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل، يحكم حكمًا لا يخالطه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر في شيء إلا وكانت هي الظالمة لنفسها، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرمانه، ونبتت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائع الحق، وحرّفت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات.

كما أن للأغذية والأدوية، واختلاف القصور والأهوية، أثرًا ظاهرًا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية، ولكل طور من أطوار البشر، أثر في الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفي سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بني الإنسان في هيئة إجماعهم، فيسهل على سره لكل ذي إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة، وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهياً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الأمم، فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سرّ أمر الله في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وسرّ نهيه في قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصحّ الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به، سبباً في اختلال الأمر وفساد الحال، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء، ولا تجمععه معه جامعة حقيقية، ولا تصله به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سرّه، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان ملكاً ضاع ملكه، أو أميراً بطل أمره والحوادث عاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وسائر نواحيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

لكل شخص في طبقته من أتمه عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحاً في الآخرة. وهو

إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه في شيء فإنه سائر الأشياء، فلو توغل في الشهوات، وبالع في الترف، وبطر فيما أنعم الله عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرّم من منافع، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معاً، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته، أو يوطنه في مدينته، وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء، وإن فيما قصّ الله علينا من حوال المترفين، لأكبر عبرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤، ٦٥]، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر، ٧٥]، هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ما أوتي الإنسان من العلم إلا قليلاً، لا يمكن لإنسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها، خلق الإنسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، خلّقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه التامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع؟ لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته، وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليماً وإرشاداً فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال فيما



امتدح به المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟! أي بصيرة لا تهتدي إلى هذا المنهج القويم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو ألمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع في طباع البشر، يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليدلوا قومه، ويستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدّهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم، فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله، والحكام النائبين عنه في إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأي، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا في إعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوي شوكتهم بأي وجه كان ومن أي نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم في مهاوي الأخطار.

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم، وهو سرّ الإفصاح والإبهام في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أمر بإعداد القوة ووكلائها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة. على حسب ما يقتضيه الزمان، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبّه الغافل، ويذكر الذاهل ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأشياء في مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك، وقوة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفي نفوس الأمة من العلل، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض، وثبت بها نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من اجزاء العالم يوجب فناء واضمحلاله،

كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، كثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليه الأوامر والنواهي في هذا الباب، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما يهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبي، أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في النظم، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحصل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضلّ عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء النفس وخطوات الشيطان، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أُنْعِمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، ويستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذروهم سوء العقابة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فَإِذَا قُفُّوا لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعد الحق في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله إليهم، ووكّل إلى ذمتهم، وهم أمناء الدين وحملة الشرع، ورافعو لواء الإسلام، وأوصياء الله على المؤمنين، أعانهم الله على خير أعمالهم، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم.

\*\*\*

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

[القصص: ٥].

للإنسان عقل سمي، وفكر علي، وحدث قوي، وبراعة في الاستدلال، ومهارة في الاستنباط، ومع هذا كله تراه في رأيه علياً، ولا يصيب في مقاصده إلا قليلاً، تشابه علل الحوادث في تنوعها يحول بين المرء وعلم الحوادث الآتية، ويحجب عن نظره جادة الصواب، فيخبط في خطأ ويخوض في عمه، وتلتبس عليه المقدمات، فتشبه النتائج، فيختل قياس الاستنباط، هذا من يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكن، أو إمكان مستحيل. لو أن حاذقاً بصيراً بفنون السياسة، وخبيراً بأحوال الأمم، ذهب إلى البلاد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة، وساح في أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين، وما هم فيه من الذلة وأحفاد (تبيوسلدان) وما أصابهم من الفقر والمسكنة، وسلالة سلاطين (أوده) وما نزل بهم من الهوان، ونوابي (كارناتك) وأمراء السند وما حل بهم من الصغار، وتدبر شئون (مرتة) تلك القبيلة العظيمة القاطنة في (فونا) و(ستارة) وما حولها، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات العظام، ثم لاحظ سلطة الإنجليز وتغلبهم على تلك البلاد وما أعدوه لقهرها من الآلات الحربية، والحصون القوية، وما هم عليه من الحذق في الحيل والخدع السياسية، وما عليه رعاياهم من الضعف

والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان ولو أتى من الفكر في لواحق هذه الأحوال على غاية جهده لحكم بناء على ما لديه من المقدمات، وما يحضره من الأقيسة، بأن أولئك الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين، قد ضرب عليهم الذل الأبدي، وسجلت عليهم العبودية السرمدية، بل ربما ذهب به الوهم إلى الحكم عليهم بتحتيم الفناء ولزوم الاضمحلال، فإن الناظر في شئونهم ما كان يحضره إلا صولة الإنجليز وسعة اقتدارهم، وخضوع الهنديين وشدة عجزهم، ما كان يخطر في ذلك الوقت بخاطر أحد أن الأيام تأتي بهذا الحادث الجديد.

إن الروسية تقطع الفيافي من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعة أعلامها ضاربة في تلك البوادي، زاحفة إلى حدود الهند ما كان يختلج في صدر أحد في تلك الأوقات أن حرص الإنجليز وطمعهم في الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضي قيام رجل السياسة (البرنس بسمارك) لجمع كلمة الدول على مصادمتهم. ما كان يحوم في خيال أن قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية في أعالي السودان وبعد إرغامه للإنجليز مرات يحرك قلوب الهنديين ويوقظ نائمهم، ويثير الساكن من خواطريهم وينهض الهمم، ويحيي الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته في أرجاء الهند، نعم ومن أين يكون للإنسان علم هذه الحوادث وهي محجوبة بستار الغيب، فهو معذور في أحكامه مقصور على أوهامه.

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الإنجليزية، وقد تهيأت ضاربات الشر للوثبة عليها، وليس لها حليف في أوروبا، وإن استثناها بمنافع الأمم، وطمعها في الاختصاص بمصالح العالم، أبعد عنها الأصدقاء، ونفر منها الأولياء، فكانت هذه السقطة بهزة لنهوض الروسية وتقدمها إلى الحدود الهندي، ومن مصلحة الدول في أوروبا خصوصاً دولة الألمان على ما يظهر من جرائدها الرسمية أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند، فإن اندفاع السيل الروسي على تخوم الهند خير لأوروبا عموماً وألمانيا خصوصاً من انحداره إلى بعض المواقع الأوروبية وأنجع في صيانة السلم الأوروبي إذا جاء يوم التصادم بين روسيا والإنجليز على حدود الهند وما هو

ببعيد كان قضاء السوء على الجيش الإنجليزي في الصدمة الأولى فيما نظن لقلّة عدده، ولأن العدد الغالب فيه من الهنديين الحرجة صدورهم المجروحة قلوبهم المترقبين لفرصة تمكّنهم من الخروج على حكامهم الظالمين. فإذا وقعت الهزيمة اشتعلت نار الثورة في عموم الهند، ومحيت سلطة الإنجليز بأيدي الهنديين.

ليس من الممكن للروسية أن تستولي على الأقطار الهندية استيلاء مطلقاً لأول وهلة فإن البلاد واسعة أطرافها شاسعة تحتاج في إدارتها والمحافظة عليها إلى ملايين من الناس يعسر عليها جذبهم من بلادها البعيدة، نعم إن الإنجليز تسلطوا على الهند ولكن في أحقاب، فدولة روسيا ملجأة بحكم الضرورة إلى تشكيل ممالك في الهند يديرها رجال من العائلات الملكية القديمة من اولاد سلاطين المغول وذرية سيبو سلطان وأمراء السند و(أوده) و(كارناتك) والمرتيين وغيرهم وتكتفي دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينها وبين تلك الممالك. وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الإسلامية المستقلة وبعض ممالك المسلمين وقد يكون من مصلحة دولة إيران وإمارة أفغانستان أن تتفقا مع الروسية اتفقا يفيد كلا من المتحالفين.

إن الروسية ما جاءت إلى (مرو) لتهلك عساكرها في فقارها ولا يصدها عن سيرها إخلاصها في محبة الإنجليز ولا ارتباطها معهم بعهد مع علمها أن لا عهد لهم، إنما جاءت لتفتح باب التجارة مع أثرى قطر في الشرق وتهدم سلطان الإنجليز فيه، فإن الأثرة الإنجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمة من الأمم. هذا عارض سوء على حكومة بريطانيا ولكنه سحاب رحمة على الهنديين بما انتقم الله لهم من عدوهم فبذلك فليفرحوا وليعد الأمراء أنفسهم لما أعد الله لهم من العزة بعد الذلة، الحرية بعد العبودية والخلاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا توقّر كبيراً.

لأنظن ولن نظن أن يجد الإنجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوروبا ولا من دول المشرق ولا من الهنديين ولا من صنف البشر لأنه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الإنجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من لاضر.

إن حكومة الإنجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم وتعلم أن ما ينزل بها من المصائب في الهند لا يقصر ضرره على حالها فيه ولكنه يزلزل جزائر بريطانيا فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند، كيف لا يشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم في القوى العسكرية وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم واحتدامها غيظًا عليهم عَجَّلَ الله لهم ما فيه خير الضعفاء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[آل عمران: ١٠٥]

أزفت هجمة الروسية على الهند وسير الدول في سياستها وحرصها على تقرير السلم في أورپا يمد الروس في مقاصدهم ويهيئ لهم الأسباب ويقرب مدة الوصول. هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة إيران مع إمارة أفغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل، إن الروسية وإن كانت تنصرها نفرة قلوب الهنديين من الإنجليز إلا أن في طريقها عقبات لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان. إن الهند بعيد من معسكرات الروس ودونه مسالك مجهولة وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها في شيء، الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفي ضرورة للوقوف على أخلاقهم ومجاري ميلهم ومواقع أهوائهم ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانيين في أعمالهم الحربية والسلامية. ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة وإلا كانا سدا محكمًا دون أهم غاياتها. كيف يمكن للروسية أن تخرق تلك الأجسام الآخذة بطريق الهند وهي مرابض الأسود؟! كيف تتوهم السلامة في معابرها الضيقة إذا قصدت الاختصاص بالفريسة؟! إن الروسية لا تخفي عليها صعوبة الأمر ولا يغيب عنها أن كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقابًا ونالت فيها أعلى مجد وأعظم فخار يعدّ من أعظم الأعمال ويحتاج لكثرة الأعوان والأنصار وليس بين يديها من يصح به الاستنصار إلا

دولة الفرس وحكومة الأفغان فليس من الحكمة في العمل أن تختص دونها بثمراته خصوصًا وأنها لا تبتغي سوى فتح أبواب الهند للتجارة. فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية، فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة، وهي أشرف الروابط «رابطة الدين الإسلامي» وليعلموا أن استمرارهم على التخالف في مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم المسلمين من الهنديين. وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب سببًا في خفض الكلمة الإسلامية، وقطع الصلة الحقيقية، فليس من العقل أن يقام من خلاف جزئي علة لاضمحلال الكل.

أظن أن قد علم كل من القبيلين أن الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كل منهما ما جلب. هذا الخلاف الفرعي بينهم استعمله بعض السياسيين في الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوءات، وربما جنوا من غرسهم ثمارًا آتية، ولكنه الآن لا يثمر إلا الدمار والبوار، وهذا مما لا أخاله يخفي على عاقل. لا يجوز للأفغانيين في هذا الوقت أن يقفوا عند هذا الخلاف الفرعي فليجوزوه إلى الوحدة الأصلية فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين، هذا وقت التأخي، وهذه فرصة اللثام، ليس للأفغانيين عذر، ولا للتعلة عندهم محل، لا سيما وقد تولى الصدارة في الدولة الفارسية رجل عظيم القدر رفيع الشأن، واسع العرفان، لا تحجبه شئون الكثرة عن ذات الوحدة، ولا تقف به أطوار التلوين دون منازل التمكين، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع، يتجلى له الواحد في مراتب الكثير، وتنجلي له حقيقة الأحدية في المنازل العددية، فالاتحاد مشربه، والائتلاف مذهبه، وعندني أنه الأب الرحيم لكل إيراني بدون استثناء، يسعى لجمع كلمتهم بال ملاحظة اختلاف المذهب، ولا تفارق في الفروع، وإنما يراعي الجامعة الحققة، فعلى الأفغانيين أن يمدوا سواعدهم في هذه الأوقات لمحالفة إخوانهم ولا

يضيعوا هذه الفرصة، وعلى القبيلين أن يجعلوا وفاقهم سياجاً لأوطانهم، وعدة لمكافحة أعدائهم، ومنبعاً فياضاً لخير بلادهم، فينالوا شرفاً رفيعاً، ويورثوا أعقابهم مجداً مخلداً.

## سُنن الله في الأمم

### وتطبيقها على المسلمين

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].  
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣].

تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد، هل كذب الله رسله، هل ودع أنبياءه وقلاهم، هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال، نعوذ بالله!! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً، هل افترت عليه رسله كذباً، هل اختلقوا عليه إفكاً، هل خاطب الله عبده برموز لا يفهمونها، وإشارات لا يدركونها، هل دعاهم إليه بما لا يعقلون، نستغفر الله! ليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج، وفصل فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء، تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، هو الصادق في وعده ووعيده، ما اتخذ رسولاً كذاباً، ولا أتى شيئاً عبثاً، وما هداننا إلا سبيل الرشاد، ولا تبدل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠٥]، ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [الفتح: ٢٨]. هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً، ولا ينال



هذه الآيات بالتأويل إلا من ضلّ عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده، وعدّها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما وعدّها إلى يوم القيامة، وما جعل لمجدّها أمداً، ولا لعزّها حداً.

هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير في سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدّهم بنصر من عنده، هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من عنده، هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخرقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر في هممتها اختلاف الأهوية، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين، ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة، كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهيئون بها، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تززع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصاة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة، وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعفها، ما لم تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسي إلى احشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة،

ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوقة، تتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعباً شعباً، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة، ويمسسون في كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.

هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد، وهو صاغرات، استبقاء لحياتهم، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية ويا للمصيبة ويا للرزية.

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط، وما علّة هذا الانحطاط؟ هل نسيء الظن بالوعد الإلهية؟ معاذ الله، هل نستئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ ونعوذ بالله! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أن أكده لنا؟ حاشاه سبحانه، لا كان شيء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة، ثم قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغيّر ما بقوم من عزة وسلطان، ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغيّر أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنّة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظام المنكرات،

خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين. هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى في الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال، علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان، هل نحن نفتفي أثر السلف الصالح، هل غير الله ما بنا قبل أن نغيّر ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه وبذل في أمرنا سنته، حاشاه وتعالى عمّا يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون، وأعجبنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً، فبدّل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية، نبذنا أوامر الله ظهرياً، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه، كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا، ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكاً.

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً، وكاد يتقطع ما بيننا، لا يحن أخٌ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاّ ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمسّ سواد القلوب؟! هل يرضى الله عنهم بأن يعبدوه على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟! هل ظنوا أن لا يتلى الله ما فى صدورهم، ولا يمحص ما فى قلوبهم؟! ألا يعلمون أن الله لا

يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته، لا يبخلون في سبيله بمال، ولا يشحون بنفس؟! فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟!

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، ويقولون في إقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل، كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه، متمتع بالسعادة الأبدية، في نعمة من الله ورضوان؟! كيف يخاف مؤمن من غير الله، والله يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؟!

فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه حلة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله الله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا، يا سبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، وإجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية، صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان أهلون لكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نغرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية، ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم، مع مراعاة الحكمة في العمل، كما كان سلفكم الصالح، ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟! نزلت في وصف من لا إيمان لهم، هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غر كثيرين من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء

أعمالهم وما حسنته لديهم أهواؤهم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

أقول ولا أخشى نكيراً، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان، لا يراعى في ذلك عذراً ولا تعلقة، وكل اعتذار في القعود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

مع هذا كله نقول إن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذي لا يخلف، لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نوراً يبهل الأبصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار، وإن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام، تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ولصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله، جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

\*\*\*

## الوهم

(اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقى).

ألا قاتل الله الوهم، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات، مجلى المفزعات، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات، حاكياً للمنعشات، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة،

وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر، ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويا، والقريب بعيداً، والمأمن مخافة، والموئل مهلكاً، الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً، الواهم في كون غير موجود، وعالم غير مشهود، يخبط فيه خبط المصروع، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه. الوهم روح خبيث يلبس الروح الإنسانية وهي في ظلام الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام، وتسلمت على الإيرادات، فتقود الواهمين إلى ببداء الضلالة، فيخبطون في مجاهيل، لا يهتدون إلى سبيل، ولا يستقيمون على طريق.

كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك في زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة، واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا أو كرامة، فانتبه الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حبال الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفعت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة، وأنحاء شاسعة، قواها منقسمة على تلك الأقطار، متوزعة فيها، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نذرا من العدة والعدد، وهي في جميعها ضعيفة واهنة، لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على الأمة الإنجليزية، فهي دائما في رجفة على أملاكها، في خيفة من تمزقها وضيائها، تتوجس من كل حادثة في العالم، وتقلق لأية حركة تحدث في

الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الإنجليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء.

ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفياً على الشرقيين، محجوباً عنهم بحجاب الوهم. يمثل الوهم لكل شرقي أن الإنجليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول إلى غايته وربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه، بل لا نخطيء إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى إنجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحسّ الإنجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائماً في ستره ولا ستار أكثف من الوهم، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام، فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز.

ذهب الإنجليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسبقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال في ميدان الأراضي الهندية الواسعة فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما أمتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنجليز اغتراراً، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلّط على ممالككم، أما نحن - الإنجليز - فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم. ثم إننا نرى للإنجليز الآن في الهند والهند الصينية وبورما سلطة

على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية، طالب للتخلص منها، يفضل أية سلطة سواها، ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز، ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز في الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبعوضة إلا خمسون ألف جندي انجليزي، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوح من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها، ما لو جمعت قراها لبلغت أكثر من ثلاثمائة ألف جندي، هذا فضلاً عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الإنجليزية وزال استقلالها بالمرة، فلو لا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها، بل عما هو موجود فيها، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار، وأدركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية، ونظروا إلى ضعف الإنجليز في الحالة الحاضرة لرأوا موئلاً الخلاص بين أيديهم، وملجأ النجاة تحت أرجلهم، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم، لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة، ولا سفك دماء غزيرة.

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول، وقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع من تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منه، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد في الطول والعرض إلى حدّ لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه يترقبون في كل آن



زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين، لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لو لا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم.

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الإنجليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة أن دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر أن معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال، ويتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها في قوة دولة إنجلترا، فإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها، فمتى ارتكبت دولة إنجلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الإنجليز خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبله لهم وملاًذاً يلجأون إليه وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية. ليت العثمانيين يعلمون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الإنجليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلا لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم في أعمالهم، وتعيدهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية.

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابي، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة من الريب. والقسم الأول مخلص إلى الفشل، فدخل الإنجليز بلا حرب حقيقية وإنما بنوع من التهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس، صادف

قلوبًا مستعدة فأخذ منها مقامًا، فأنحلت الرابطة وتفرّق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم. ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الإنجليز يتبعون من البلاد شيئًا سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينفذونه من التأثيرين عليه، فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الإنجليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها، بهذا فاز الإنجليز واستقرت أقدامهم، أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم، وسوء تيتهم، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل إليهم، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم، ولكن الوهم يجسم المخافة ويكبج العزيمة. إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التي مكّنت الإنجليز من بلادهم، كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانجليز، ثم تغلبت عليهم القوة الإنجليزية وقهرتهم جميعًا. كأن المصريين نسوا ما كان بينهم وأن الإنجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم. هذا هو الوهم العجيب. إن الذين كانوا من مدة سنتين سببًا في تغلب العساكر الإنجليزية وحلولها في وادي النيل وأنه لولا هم ما استقر لها قدم فيه، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عمومًا وإخضاعهم لحكومة بريطانيا. وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهًا ويجارونهم في أهوائهم نفاقًا. هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي. ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الإنجليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لا رتبك الإنجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها. ألا قاتل الله الوهم.

إن للإنجليز قوة حربية بحرية لا تنكر، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين، فلو فرضنا أن الإنجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابل إلى أبد الأبد. إذا كان الأهالي في داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم

من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة. ليس في الأمر شيء سوى الوهم، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الإنجليز. ضعيف يستطو على حقوق الأقوياء، صوت عال وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلهم أن الإنجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية. لكن بقي أن يزول هذا الوهم ن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا يتنقلوا من عبودية إلى أخرى. ولا يستبدلوا سيّدًا جنبيا بسيّد آخر. اللهم ارفع عنا حُجب الأوهام وهبيء لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية واهدنا إلى خير نهاية.

\*\*\*

## الجبن

﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]  
 ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحير الألباب، وتدهش الأفكار، ينظر إليها ضعفاء العقول، فيعدونها معجزات، وإن لم تكن في أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات، وإن لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك، وأرواح الكواكب، وموافقة الطوالع، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف، وقذفات الاتفاق، عجزاً عن إدراك الأسباب، وفهم الصواب، وأما من آتاه الله الحكمة، ومنحه الهداية، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه، وعظمت قدرته، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل، وأنه قد اختص الإنسان من بين الكائنات بموهبة عقيلة، ومقدرة روحانية، يكون بهما مظهرًا لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية، وبهما مظهرًا لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع

## الحساب.

إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح، رأى في تشابه القوى الإنسانية، وتماثل الفطرة البشرية، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك، وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعدّ كل إنسان للكمال، ومنحه ما يكون به مصدرًا لفضائل الأعمال، على تفاوت لا يظهره الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق. هنا وقفة الحيرة.. استعداد فطري للكمال في خلقه الإنسان، ميل كلي في كل فرد لأن ينفرد بالفخر، ويمتاز بجلال الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لا يخيب طالبًا، ولا يرد سائلًا، إذا صدق القاصد في قصده، وأخلص السالك في جده، فما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستغفروهم إليه الميل الغريزي، خصوصًا إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله، مصدقة بوعدده ووعدده، ترجو ثوابًا على الباقيات الصالحات، وتخشى عقابًا على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧، ٨]. ماذا يقعد بالنفوس عن العمل؟! ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل؟ إذا ردت المسببات إلى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علّة هي أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل: «الجبن».

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها، هو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها، هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين، يسهل على النفوس احتمال الذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان، يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والإقدام، الجبن يلبس النفس عارًا دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليّة، يرى

الجبان وعر المذلات سهلاً، وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيماً.

### و من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الأحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به إلا ألم اللأواء. هذه حياته: أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء وهو يظن أنه أدرك البغية، وحصل المنية.

ما هو الجبن؟ انخدال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الأمراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية، وله أسباب كثيرة لولوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت، الموت مآكل كل حي ومصير كل ذي روح، ليس للموت وقت يعرف، ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعدّه الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله، نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة - وهو الشجاعة والإقدام - سبباً في الفناء، يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً، ويتوهم أن في كل خطوة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذلّوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاريف إنما هي أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيتها فأدهشته، وعن سبيل الله صدّته، ومن كل خير حرّمته.

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام، لتغتال به نفوس الإنسان، وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حيالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لا شقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو

جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعته وموجبه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الأعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة. ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطيسة، أليس هو الجبن؟ ماذا يبسط أيدي الأذنياء لدنيئة الارتشاء، أليس هو الجبن؟ ربما تتوهم بعد المثال، فتأمل، فإن الخوف من الفقر يرجع الحقيقة إلى الخوف من الموت، وهو علّة الجبن. سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الإنسان، الجبن عارو شنار على كل ذى فطرة انسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر، ويؤمنون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجرا حسنا ومقاما كريما.

ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن)، فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وإنهم لا يبتغون إلا رضاه. يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان، وامتنحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ [النساء: ٧٧]. الإقدام في سبيل الحق، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أو سمة يتسم بها المؤمنون، لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة، وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهي، بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده، لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وإن عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه؟!

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه، المؤمن من لا ينتظر بنفسه

إلا إحدى الحسنين: إما أن يعيش سيدًا عزيزًا، وإما أن يموت مقرَّبًا سعيدًا، وتصعد روحه إلى أعلى عليين، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين.

من يتوهم أن يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان في شيء. كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه في دعوى الإيمان، لهذا تؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق، ويذكروا بآيات الله، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته، والنهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك، وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك بالمعروف ونهي عن المنكر) زمنًا قليلًا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرًا في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يومًا تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير، فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقودًا ويحفظوا موجودًا، وينالوا عند الله مقامًا محمودًا.

### زلزال الإنجليز في السودان

نقلت الجرائد الإنجليزية برقية وردت إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أيامًا متواليات ومحصله: أن الألسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الإنجليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف إليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لا بد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها، وقد استولى بذلك الإضراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصًا عساكر مدير دونقلا خوفًا وفزعًا. ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا إليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبهات إلى جميع المؤمنين في تلك الأطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الإنجليز في منزلة العدو الألد ويقاوموهم مقاومة

الآيسين. اهـ.

كما نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الإنجليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والإمكان قياماً بما يوجبه الدين والوطن ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني، فإن الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه بل توجهه في مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذي عقل لأخذ الحذر من حيل المحتالين، والتوقي من الأرواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الألباب ويذهب بهوه الصوري بنور الأبصار، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال. تلك أرواح الأجانب ونفوس الأبعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الأخلاق ويدلون النفوس.

المدافعة عن الوطن. أمرٌ طبيعي وفرض معاشي يكاتف في دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه. نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مزايا التواريخ عندما يمر النظر إليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وصيغت لهم هياكل من اللعن الأبدى مسربة بالخزي والعار السرمدى هكذا يعرف الشيء بضده.

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدماً للعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذاك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب، القادر على فكر يبديه، أو تدبير يأتيه، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه، فهو الخائن من لم يستطع عملاً وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم إلى الغد، وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل، فقد ارتكب



خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الأنبياء والمرسلين وممقوت في نظر العالم أجمعين. ما أعظم جريمة الخيانة (المساهلة في شئون الأوطان) يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار. محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين. لوث على وجه الزمان ودرن في صفحة الإمكان مكتنفة باللعة محفوفة بالمقت إلى أبد الأبد. لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت في الإدراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا.

كنا على يقين ولا نزال عليه، أن الذات الشاهانية وهي الأب الأكبر لعموم المسلمين وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء في البلاد الإسلامية وهي لا تألوا جهداً في تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الأمم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية، وأنه لخرج الصدر من أعمال الحكومة الإنجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والإسلامية والمصرية بلغت غشمة الإنجليز إلى حد لا يحتمل، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور وتفيض بالغيز منها القلوب وتبلى منها دروع الصبر وتذوب سابغات الجلد.

فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحق بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية، يطلب استمالة القلوب إليه، وجمع النفوس عليه، فكيف به إذا رسخت أقدامه، وارتكزت أعلامه، وخلا له الجو من المعارضين؟! ماذا ترجون من مطاولته، وماذا تؤملون في إرخاء العنان له، وماذا

تهابون في معارضته والأخذ على يده؟! أما رجاء الخير منه فوهمٌ فاسد وخيال باطل، فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم، وأقلق راحتكم، وحرم رجالكم من الخدم، وأفقر آلافًا مؤلفة من العائلات، ووهب من بلادكم لأعدائكم وأضرَّ بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالأوقاف)، وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها. فماذا تخشون منه؟ هل تخشون أن تنقص أموالكم، وثمرات كسبكم إذا أدبتم حقوق وطنكم وحاربتم عدوكم؟! ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه، انتقصت الأموال والثمرات، وفاضت العبرات وزادت الحسرات، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خسارًا وأوسعكم خرابًا ودمارًا، إن رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني إلا افتقر، ولا عظيم إلا احتقر، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم، وأقرأوا حالكم في تواريخ من سبقكم.

هل تخشون إذا قمتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟! يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة، الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. إنه مسرع في سيره منطلقًا إلى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قرارًا مكينًا، ومقرا أمينًا، ولا يخفى عليكم أن المسرع في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدره، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذه طفيفة، أو تظاهرتهم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم، وجهرتم بذلك لرأيتم أن ماء سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره واستعليتم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوروربا كافة. أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط

بجيوشه أعالي البلاد المصرية - لا أناله الله ذلك - صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته. إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة وإصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر فلو تمكن عدوكم بسكونكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم وأصبحت دماءكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره.

في إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في إمكانه أن يضر بكم، فإذا مضى زمن انعكست القضية وأصبحتم في عجز عن مقاومته وأصبح وفي يده عصى الجبروت لإذلالكم.

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟! أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة، ويهانون ويذلون وكثير منهم يقتلون؟! إن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم في أبدانكم ويفعل بإخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم وهذا قصده إليكم وفي إمكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل، بدون ضرر عاجل فإن شئتم فارحموا أنفسكم، وإلا فأنتم ساقطون، فيما منه تخافون.

يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم: الشجاع محبب حتى لعدوه، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه، تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالإباء، لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عمن سواكم؟! أستم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم؟! أستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق، والعقائد الصحيحة؟! أستم تنتسبون إلى أولئك الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد؟! أستم تدعون أنكم أشرف عنصرًا وأكرم جوهرًا فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم، إن كان الموت فهم يخشونه، إن كان الخسار فهم يرهبونه، إنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون.

لأي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له؟ ولأي سبب لا

تقدمون بشيء من شهامتكم في حفظ ما هو لكم؟! إن هذا لشيء عجاب، هل نذكركم بقول شاعركم:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى      حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير وليس المكان مكان المباراة في المسجد والمسابقة إلى معالي الأمور، إنما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة، فإن لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر، الذي رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره. أستغفر الله، تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة، لا يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه.

إن صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضة لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه وإن الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

\*\*\*

باب النفط  
والأخبار

### سياسة إنجلترا في الشرق

هلع على ما في البيت فهلوع لإغلاق الباب، فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه.

هذا شأن دولة بريطانيا في الهند، وقناة السويس، قصارى بغيثها أن تكون في أمن على هذا الباب وكان سهلا عليها أن تخلص النية، في مسالمة أرباب الولاية عليه، فيقونه بأرواحهم وأموالهم، ثم هي تفوز بفوائده إلى الأبد.

إلا أن جيشان الأوهام، وموحشات الأحلام، دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها، فإذا الأمر أصعب من أن ينال، وأساس البيت أوهى من أن يدوم.

أرادت دولة إنجلترا بعد تبوئها أرض مصر، أن تدخلها تحت حمايتها، وأن تبدل العساكر الوطنية بإنجليزية، وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضرورات لتنظيم أحوالهم إقرار الراحة بينهم وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت، ولو لا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية في الهند، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها، وكان هذا أكبر هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائها على الأقطار الهندية، وإنا لنأسف على التفاوت بين الزمانين، والتباين بين المكانين، فلا الإحسان الإنجليزي يمكن تميمه، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنوله، وخطر الأمرين غير يسير.

ظهرت دعوى المهدوية في السودان واشتد أزر القائم بها بمسارعة الإنجليز إلى التداخل في مصر بحجة حفظ باب الهند، وعظم خطب الداعي بعدما أراق دماء

غزيرة ودبت روح دعوته إلى سواحل البحر الأحمر، وحدود مصر الطبيعية وأمالت القلوب إليه نفرتها من السلطة الإنجليزية.

يقرب من الظن أن نفثاته ما زجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس، أو قاربت، وأن هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب، وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء، وعند ذلك يمسي باب الهند بين ألسنة النيران من جهتين بل من ثلاث جهات، أيبعد عند العقل وبريطانيا لاهية بإنقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت؟! إن الخطر اليوم أشد مما اهتمت بدفعه سابقاً، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة؟

أرسلت چوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين ورقية محمد أحمد الحمداني، السودانيون لم تلثم جراحهم من ظلم چوردون أيام كان حاكماً مستبدًا عليهم، وفي علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية فقد طلب وهو فيهم قسًا من السويس لنشر المذهب البروتستانتي بين مسلميهم، فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحس صدور العرب من الضغينة الدينية والدنيوية، بعدما رسخت أعوامًا ويمحوها في بضعة أيام، وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد، بعد ما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كوردفان، أو هل يقنع صاحب هذه الدعوى بمثل هذا اللقب بعدما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد بدون إذن چوردون. قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهودية وموقعها من قلوب المسلمين، ويكفي لكشف بعض ما في الغيب ما اتفقت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية وأثبتته المخابرات الرسمية من إخفاق چوردون في سعيه كما تراه في غير هذا المقام.

سأقت خمسة آلاف وعلى بعض الروايات أربعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال چراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر باشا وثار ضباطه من الإنجليز (أما هكس باشا وضباط جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولا ثار). وغلب هذا الجيش المدرب الكامل العدة الشاكي السلاح من أجود طرز ثلاثة

آلاف من عراة العرب السودانيين (بمعنى أنه قتل منهم ثمانمائة بدوي) والقبائل على عصبيتها لم تحن بعد. هل بهذا تدفع الغوائل؟! أظن ذو عقل أن فاتحاً فتك بعشرة آلاف جندي مرة وألفين وخمسمائة مرة أخرى جميعها تحت إمرة مشاهير من جيش إنجلترا يخور عزمه لانهزام شرذمة من المنتسبين إليه، وهل يؤثر هذا وهنا في اعتقاد المذعنين لدعوته؟! سبحان الله! كان لغلبة هذا الجيش رجة في إنجلترا وخيل لحكومتها أنه نجاح في العمل وربما نشأ هذا الخيال من التهنئات التي وردت إليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الألماني.

أقول وحق ما أقول إن الضيرم شديد فإن ترك امتد وأخاف الدانية والقاصية وليس في إمكان چوردون ولا أحذق سياسي في إنجلترا أن يخمد لبه والمناوشات البريطانية تحضره فتزيده اشتعالاً، وإنما يتيسر إطفائه لأولي العزم من العثمانيين والمصريين لكونهم على شاكلة صاحب الدعاوى وبيدهم عنانها.

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا في حفظ باب الهند بعرض العثمانيين وخضوع المصريين مع القوة البريطانية والتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية. ماذا يفيدهم سد الباب إذا وهي الأساس فتداعت الجدران وخر السقف. إن قبائل التركمان في (مرو) مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس اختیاراً بعدما كانوا مستقلين في أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم، فأی مانع يمنع تركمان سرخس وهم سنيون من الاقتداء بهم تخلصاً من حكومة فارس المخالفة لهم في المذهب فإن تم هذا فتح للروس طريق فراه إلى قازين إلى سجستان وأي قوة تصدها عن طمعها، وإن حلت في سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند؟

إن قبائل أزبك من سكان (ميمنة) و(أندخو) و(شيورغان) و(سربول) وسائر بلاد بلخ إلى (وبلميان) في ضجر من الحكومة الأفغانية. أفلا يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركمان، فإن غفلوا فتحت لهم روسيا باباً من الملاحظة وذهبت بهم في طرق من سياسة اللين لتشويقهم إلى الدخول في حمايتها والتخلص من نير الأفغانين وليس في قوة حكومة الأفغان كبجهم إن أرادوا لضعفها فيهم.



إن قبائل هزارة من الشيعة الساكنين في الجبال الممتدة من هراة إلى كابول ينتحلون الأسباب للخروج على حكومة الأفغان نفرة من سلطة السنيين، وقد كانوا في الحرب الأخيرة بين الإنجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز، فهم بعدما يرون جيرانهم انحازوا إلى الروس، أفلا ينزعون إلى مجاراتهم خصوصًا إذا لمعت لهم بوارق الوعود الروسية. هذا كله يكون، فتشرف روسيا بعد على الميدان المتسع الممتد من هراة إلى قندهار إلى غزنة بل إلى كابول من جهات كثيرة فهل بعد هذا يبقى للهند سياج؟ وهل يمكن أن يقام في وجه روسيا مانع من المسير إليه؟ وهل ينفع عند ذلك الوقوف على نافذتي (قناة السويس)؟

أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك المواقع الإيقاع بين قبائل الأفغان وبين المرشحين للإمارة ويتخذون منهم أحزابًا كما فعلوا بخوانين القرم؟

تقربت دولة روسيا إلى ألمانيا والنمسا في هذه الأيام وانعقدت بينهم معاهدة على حفظ السلم في أوروبا إلى زمن غير قصير، ولم يكن هذا التقرب مبنيًا على ما يخيله السياسيون في كل دولة على حسب مصالحهم وإنما رأت روسيا أن الوقت وقت العمل في آسيا فطلبت الراحة من جهة حدودها الأوروبية لتتفرغ لإجراء مقاصدها في أطراف الهند وأن الفزع من هذا الانتقال الفجائي قد ظهر أثره في جميع الجرائد الإنجليزية.

ليت الإنجليز صرفوا قوتهم ووجهوا عزيמתهم لدفع ما يلهم بهم من الخطر القريب ولم يقعوا في شرك المسألة المصرية. فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما صرفًا، فلما طرقتها أو قدوا فتنة ما كانت تخطر ببال أحد، ثم هم في عجز عن علاجها وإننا نظن كما يزعم الوزراء العثمانيون أن الإنجليز ليس في إمكانهم أن يكسروا سورتها بأنفسهم ولا بد لهم من يوم يلجأون فيه إلى ذوي العزيمة من العثمانيين والمصريين، وإلى الله عاقبة الأمور.

## مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الأول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الأشراف، ويحسبها المؤرخون في تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا: طرز قديم كان معروفاً في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعدما فوضت أمورها لمحمد علي باشا، فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية وظهر فيها شكل بسيط من الحكومة النظامية وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الأمور<sup>(١)</sup>.

هل كان في حساب أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة، إلا أن طبيعته الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة، وبث العلوم، وتأسيس قواعد العمران، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل إليه؟!

تقدمت بعد ذلك فيها الزراعة تقدماً غريباً، واتسعت دائرة التجارة، وعمرت معاهد العلم، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة، وتقاربت أنحائها، واتصلت أطرافها، بما أنشئ فيها من سكك الحديد وخطوط التلغراف، وتعارفت أهاليها، واثتلف الجنوبي بالشمال، والشرقي بالغربي، وقوي فيهم معنى الأخوة الوطنية، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة، وتواصلوا في المعاملات، وتشاركوا في المنافع، واعتدلت المشارب المذهبية، حتى كان لهم زمن أحسن فيه كل واحد بنسبته من الآخر، وارتفعت بذلك أصواتهم، بعدما جالت فيه أفكارهم.

١. ترى ماذا كان يقول الأفغاني لو بعث من قبره ليتحدث عن المآسي التي خلفها خلفاء محمد علي باشا وما

كان من مهازل بلاط فاروق الأول؟!

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة، وعمدت بقائها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية، بل وصل مد نيلها إلى أراضي البلاد الغربية، وتوارد إليها الغرباء، وقصاد الكسب، من كل مكان وما خاب لها قاصد، ولا أخفق فيها سعي ساع، فأثرى في مغانيها الفقراء، وعز بها الأذلاء، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين، ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلاً خيراً من أهله، وسكناً خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغربية، حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن.

وساد بها الأمن وعمت الراحة، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع، أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو كرسي مدينة لأعظم الممالك الشرقية، بل كان ذلك أمراً مقررًا في أنفُس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها وهو أملهم الكبير، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحتة فعثر العاقل، وفرط المالك وأعثر المعجب، وتهور الغبي، وخار الأفين، فتقرب البعيد، وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا حواشي طوامير الأوهام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتفضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب وأنساب، بين طبقات الناس، دهاة سياسة، وطلاب غايات، فتفرق اتصال، وتقطعت أوصال، فضعفت السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة، والتهبت نيران الفتنة.

قضاء حل بتلك البلاد، فاحتاجت في إعادة شأنها الأول إلى قويم، وعزم ثابت، ووازع قوي، تدين لسطوته النفوس، وإن من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف، وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه، لكن تحكم طمع وأخطأ ظن، فتخلفت النتيجة، واشتدت الحاجة.

أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال، أو ظنت أن آن التقدم بعض

خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها، فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانها، وعمّ بعض أنواع الهون، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرره، ما خلا أشخاصًا قلائل وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا، وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية، اليوم رزئت بالنقص في الإيراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول، وحرب السودان، ومصاريف إخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره السمتقبل، فاختلت الموازين، وبطل قانون الجبايات وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة؟! عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني، وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم جنود مصر، وقصر الجهد عن مجاراة محمد علي باشا، وإبراهيم باشا، اللذين دوخا كثيرًا من الأقطار بجنود مصرية.

إن كان كل ما تقدم من الشدائد والخطوب وزيادة النفقات وإلغاء العساكر الوطنية إنما يتخذ سبيلًا لراحة الأهالي، وتحسين أحوالها فنعمت الوسائل إذا أدت إلى غاياتها، لكن أين السبيل من المقصد وأين هذه المعدات من تلك الغايات؟

وا أسفًا على حالة الأهالي بعد هذا، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتّب عائلهم، وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يمس هؤلاء ضر الفقر؟! ألم يعرضهم ناب الجوع؟! ألم يهتك مستورهم؟! ألم يضق ذرعهم؟! ألم يصبحوا كساء بسراويل الكآبة، عراة من أكسية المسرة؟! إن لم يكن كل هذا فقد كان جله. وإن صدى أنينهم يتلى في صفحات

الجرائد الوطنية العربية والإفريقية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون. حتى لا يجد وطني في البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليزي تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو في البلاد الهندية.

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال، وظنوا أن لا تبعه عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم. وحكموا أهواءهم في أداء وظائفهم، فخطبوا وخلطوا، أفعمت السجون بأعيان الرعية، ورفعت أذنان الكراييج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم، وثمرات كسبهم، وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال، بُعث عليهم عذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم، ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات، وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة. فإذا الفلاح لا يبالي بعمدته والعمدة لا يبالي بمأمور مركزه، والمأمور لا يحترم مديره. وسرى التهاون إلى الدوائر العليا، وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص، وكثر قطع الطرق في كل ناحية.

وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين؛ فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من الضياع على رءوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة في رأس المال من قبيل آخر. واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عنهم من ماشية، فالحراثة بعدما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية، ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التي ألفوها، فعميت عليهم من السبل، وضائق بهم المسالك، ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلاً؛ ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها، وانحطت أسعار الحاصلات

لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد علي باشا. ومطالب الحكومة في ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الإغلاظ في اقتضائها، فعم العسر وأحاط الضنك، وتقوضت آلاف من البيوت التجارية، وأتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة، وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبًا وسلبًا، باع الفلاح أثاث بيته بل وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه، بعدما ذهبت الحاجة بحلي حرمه وبناته ليؤدي ما عليه لحكومته، ول ينل من نضارة العيش ما يقوم بحفظ حياته، وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلاً منهم الله يعلمهم.

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والأخذ بالشبه، وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، أو استحالت، حتى أخذ الفرع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه، فلاترى مارا بطريق إلا وهو يستلفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن، أو يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة ومن كل طارق لبابه غشية. أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟!

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الأنف، مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله. أصبح الأهالي حيارى في أموالهم، تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالإفقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها.

أبعد هذا يصح لمصري أن يظن أن تلك الرزايا التي حلت ببلاده من نحو عشرين شهراً كانت مقدمة لأصلاحها وتنظيم شئونها؟ نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعلم صناعي في الأراضي المصرية كتقويم طرقها، وإقامة جسورها، وتكثير جداولها،

وتقوية مواد الخصب فيها، حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا، أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالي فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذي يمثل الخاطر، في وقتنا الحاضر، ولا يكفي للبداة فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر في بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التي تولت إصلاح الشؤون المصرية في هذه الأيام، دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة، واستولت عليها من مدة أربعين سنة، ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدني، فليُنظر إخواننا المصريون فإننا معهم من المنتظرين.

\*\*\*

### أعجوبة

ظهر لمراسل التايمس بالإسكندرية في هذه الأيام ما كان ظاهرًا عند الكافة عامتهم وخاصتهم، ولم يخف على غبي ولا ذكي ولا أعمى ولا بصير، بل لم يحصل فيه أدنى شبهة في زمن من الأزمان الماضية، فأبرق إلى جريدة التايمس يثبت فيه ما يأتي: إنه يوجد بين طبقات الأهالي جمهور كثير ينفر من سلطة الإنجليز (وخجل أن يقول جميع الأهالي). كذلك وأنهم لا يسرون بإرسال العساكر إلى توكار، بل بلغ الأسف منهم غايته عندما سمعوا بانتصار جراهام على العربان.

ويقرب من هذه الأعجوبة ما أجاب به جرانفيل موزورس باشا عندما بين له لزوم التداخل العثماني في حوادث السودان، حيث قال إن العساكر التركية تلاقى من معارضة المصريين مثل ما تلاقى العساكر الإنجليزية. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

\*\*\*

## غريبة

روت جريدة الثان، عن الجرائد الإنجليزية أن الخديو الحالي عقد عزمه على الاستعفاء من منصبه إلا أن حرمه (زوجته) عارضته فيما عزم عليه كل المعارضة وعندما أشار إليها بما في نيته تناولت مقراضاً وجزت شعرها علامة على الحداد وأقسمت أن لا تلبس الجوارب والأحذية حتى توقن بعدوله عن مقصده هذا، وهي من ذلك الوقت تمشي حافية وتنتظر آخر عزيمة من زوجها الخديو. ولعل هذا من مبالغات الجرائد الإنجليزية أو يكون منشؤه إلحاح السير پارين عليه بطلب حماية إنجلترا، كما رواه كثير من الجرائد، أو إجباره على التنازل، كما روته جرائد أخرى.

\*\*\*

## جوردون باشا

إن جوردون باشا بعدما نصب نفسه للمدافعة عن حرية السودانين زماناً طويلاً وكثراً ما توسل بذلك لعودته حاكماً للسودان نال في هذا الحوادث بغيته، وأرسل من قبل دولته لعمل سوداني فوصل الخرطوم وافتتح أعماله بمخالفة مشربه، فأعلن إباحة بيع الرقيق وإلغاء معاهدة سنتي ١٨٧٧ - ١٨٧٩ ثم تعدى على حقوق السلطان بدعاوى مختلفة، منها أنه جاء نائباً عنه، وتضاربت أقواله في مأموريته، فادعى أنه حاكم عام على الأقطار السودانية بأمر دولته والحكومة المصرية، مع تصريحه بأن الحكومة المصرية لا دخل لها من الآن في إدارة السودان رأساً واعترافه بإمارة الشيخ محمد أحمد على كوردفان، هذه كل وسائله لامتلاك قلوب السودانين، ولم يلبث أن ظهر ضعف سياسته عند جميعهم لعلمهم السابق بأطواره، فكان ما أجمعت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية من عدم نجاحه في مأموريته، فإن الأخبار الخصوصية الواردة من الخرطوم متفقة في أن ما أشيع من البهجة بقدم جوردون محي أثره وتحول إلى اضطراب وقلق وتشويش في الأفكار، وأن القبائل فيما وراء الخرطوم



تسخر بمنشوره وتهزأ بوعدده ووعيدده، وهذا الضرب من السياسة ربما يستغربه من لا يعرف حال چوردون، أما المصريون جميعاً والسودانيون خصوصاً فلا يعجبون منه لوقوفهم على أحواله من قبل، وإنما العجيب من كون الحكومة الإنجليزية ذهلت عن أن ثورة دينية لا يمكن إطفائها بيد من يخالف الثائرين ديناً وشكلاً ولغة وإن كان عاقلاً سياسياً.

يثبت هذا الذي قلناه ما ورد إلى «الديلي نيوز» من أن الجنرال چوردون بعث برقية أثبت فيها أنه عاجز عن مساعدة الحامية المصرية في السودان ما لم يكن تحت أمرته جيوش على النيل الأبيض والنيل الأزرق، وما جاء من مكالمته لمراسل التايمس حيث صرح له أنه لم يعد في إمكانه أن يفعل أزيد مما فعل (وما فعل شيئاً) لتقرير الراحة بين السكان، وأن العزم على إخلاء السودان فتح للشيخ محمد أحمد سبيلاً لإثارة القبائل بين بربر والخرطوم، وفي أثناء المحادثة أظهر احتياجه لفرقتين من العساكر ترسل إليه من جيش الجنرال چراهام. ومما قاله: إنه من الضروري تعيين زبير باشا خلفاً له في الخرطوم ويفوض إليه إعادة الراحة ومقاومة الثائرين، وهذا من عجيب تدبيره فإن هذا الباشا إن لم يكن معتقداً بصاحب دعوى المهدوية، فعنده أعظم باعث للاتفاق معه، فإنه لم ينس ما حل بأولاده وأقاربه من القتل صبراً، وما سلب من أمواله نهباً وغصباً، فكيف يميل لمساعدة الحكومة المصرية على إخضاع الثائرين عليها؟!

\*\*\*

### چراهام وعثمان دجمة

بعث الجنرال چراهام قائد جيش الإنجليز في جهة سواكن، بمنشورات إلى رؤساء القبائل يعددهم ويمنيهم، ويهددهم ويتوعددهم لينفصلوا عن عثمان دجمة، وإلى عثمان يرعد له ويبرق، ويرغي ويزيد، ويطلب منه التسليم، فورد الجواب من عثمان برفض الطلب والاستعداد للحرب، وردت الرسائل من واحد وعشرين شيخاً

من مشايخ القبائل ناطقة بأنه لا واسطة بين الإنجليز ومساعدتهم، وبين القبائل السودانية إلا السيف، ثم قالوا إن كل من لا يصدق بدعوى المهدي فإنه سيكون لا محالة فريسة للموت وطعمة للهلاك.

فاضطر الجنرال چراهام لإعادة التهديد مرة أخرى على النحو الأول ويغلب على الظن أن الجواب يكون الجواب.

وجاء في جرائد الإنجليز أن الشيخ المرغني (وهو شيخ طريقة من المسلمين) بعث إلى عثمان دجمة رقيماً يستدعيه للطاعة، ويحذره من مقاومة العساكر الإنجليزية، فأجابه عثمان دجمة بأن في عزمه شرب دماء الإنجليز وكل من يساعدهم فإنه يحارب بسيف الإسلام. وفي ختام جوابه نصح للمرغني وطلب منه أن يقوم بإرشاد الإنجليز إلى ترك الحرب ووضع السلاح وهو أولى له من نصح مشايخ القبائل العربية الإسلامية.

\*\*\*

### المسألة المصرية

إن المسألة المصرية صبغت في إنجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول في لون خيل لها أنه أجود ما في الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفي وأعقبه لون جديد، وهي في انتقالاتها هذه لا تزداد إلا أشكالا، ولا تزيد إنجلترا في إنهاؤها إلا ارتباكاً.

كان بود مستر جلاستون أن ينهج في سياسته منهج سلفائه من الإنجليز، يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة، ويلتوي في مسيره إلى معاطف متخالفة، ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة، ولا يسوغه الحذر، حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى، أو كان كما يزعمون أو كما يدعي، ونادى به على عهد بيكونسفيلد من أنه لا يميل إلى الفتوحات، وهمه البعد بإنجلترا عن التدخلات في الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية ألجأته إلى

العدول عن مشربه، والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله، وسار سيرة المتخبط، ونشأ من طلعه في السياسة توعر السبل على حكومته في بلوغ ما تريد، وحدث عنه النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسي، والاستقالة من المنصب، وبين الانفلات منه والتعرض للوم العلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقاً للسعي في إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسي الوزارة.

الذي أباح لمستمر جلاستون أن يركب غير طريقه، ويتداخل في مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة، وتخليصها من خلل الفوضى، ومن مصلحة إنجلترا أن تتولى إغايتها مما وقعت فيه، فمد يده لوضع قواعد العدالة، وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابي الإسكندرية، والحلول في ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أو حفظ مصلحة مهمة، بأعمال خفية، ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن مع الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

تتابعت الفتن وعلا لياقتها حتى لدعه فنبهه لما لم يخطر له على بال، فاضطر لسوق العساكر، ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها ولم يكف محمد أحمد عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دجمة بهذه الصدمات المتتالية، وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيله، ويهاجم الإنجليز مرة ثالثة، وأكد رواة الأخبار أن محمد أحمد أنبأ من قبل أنه سيهزم مرتين قبل تمام ظفره بالإنجليز، فكانت هذه الهزومات مما يقوى الاعتقاد به ويجمع الكلمة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان، وحركت الخواطر على الوزارة الجلاستونية، وتخوف رئيس الوزارة من عواقب المداولات في المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام، وقام وزير الحربية مقامه في التعبير عن

أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطابه أن من نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها، وأن تحل في شرق السودان، وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية كما تراه في غير هذا المحل، فقامت الحجة بكلامه هذا في حزب المحافظين، ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها في هذه الأوقات ولم يكن من رأي جلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها، وتظهر مشرعها بوجه جلي، ووقع الخلاف بينه وبين وزير الحربية، وكثير من أعضاء الوزارة، على جملة مواضيع في المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل جلادستون لمرضاة الأيرلنديين وتجافي بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس في آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل في شيء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب في الوزارة أو فضّ البرلمان، وأكدت قرب ذلك جريدة التايمس وجريدة الديلي نيوز وهي نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة جلادستون في خطر.

فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية، وخلفتها أخرى من أي حزب كان، فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة، أقبل الصيف وصعب على عساكر الإنجليز أن تأتي بحركات عسكرية في أطراف السودان الشرقية مدة أشهر ويتعذر حفظ المواصلات بين سواكن وبربر والخرطوم فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأت به البرقية انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية، واجتراءوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر. في هذه المدة وهي غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففي الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضي الحكومة الإنجليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم في ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة نوبيا، ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوروبيا وستون ضابطاً مصرياً نجوا من عساكر هكس، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلي نيوز واعترف مستشار خارجية إنجلترا أن المواصلات بين شندي

والخرطوم منقطعة، ولم يصله خبر عن چوردون من حادي عشر هذا الشهر فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنجليزية فلا نظنه إلا يصدع جدار الهند كما بينا في العدد الماضي ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية في مصر (وليكن كذلك). ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياح مصالحها في الأقطار المصرية خصوصاً بعض الدول التي كانت تسابق إنجلترا في وداي النيل وانحط مقامها فيه بالتداخل الإنجليزي الذي ليست له حدود معروفة، ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة التان الفرنسية الوزارية حيث تقول: إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين أيدي أوروبا، وتنوّه به جريدة سان بترسبورج حيث تقول: إن روسيا ليس في عزمها أن تفتح بعمل في مصر فإن إنجلترا اعترفت في جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع في شيء منها إلا باتفاق أوروبا، هذا إذا تمكنت إنجلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتن وإجهاض الثورات، واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففي نهايته تطلب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان، وهي بين ظفر وانهازم ولا تتجاوز في حركاتها العسكرية شواطئ البحر، فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنجلترا، وأنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين، وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدي أهلها ويفعل الله ما يشاء.

### الإنجليز في السودان

إن البرقيات التي وردت من سواكن جميعها متفقة على أن العساكر الإنجليزية هاجمت معسكر عثمان دجمة في ثمانية منقسمة إلى مربعين وبعد أن فارقت زفرًا غارت عليها العرب بعدد وافر مع بسالة الأيس ودخلت في المربع الأول وهو المقدمة وكانت فيه مذبحه هائلة، وتقهقرت العساكر الإنجليزية وتركت مدافعها بعد

ما قتل منها جم غفير بأسنة العرب وحرابهم، إلا أن فرقة من مشاة البحرية جاءت من القلب وسدت الخلل الذي وقع في صفوف العساكر من هجمات العرب ودفعت قوة المهاجم، ولم تكد المربعات الإنجليزية تلتئم وتعود إلى الانتقام حتى هاجمتها جيوش عثمان مرة أخرى ببأس شديد وانقضت عليها من الجناحين والتحمت مقتلة عنيفة وترامى العرب على الموت واستهانوا بالحياة مفضلين الشهادة على التقهقر والتسليم.

وتضافرت الأخبار على أن العرب أظهروا من البسالة والشجاعة ما لا يوصف، حتى قال الرواة إن ما شاهدوه منهم يعدّ من غرائب الأعمال البشرية، إلا أن الروايات اختلفت في عدد من قتل منهم ومن عساكر الإنجليز، فبعضها أوصل قتلى العرب إلى ثلاثة آلاف وبعضها إلى أقل، ثم جاءت الأخبار الرسمية (وما أدراك ما الأخبار الرسمية) وما تبالغ في قتل أعدائها مصرّحة بأنها ألفان، أما قتلى الإنجليز فقد بالغوا في قتلها حتى أوصلوها إلى مائتين أو ثلاثمائة بعدما اعترفوا بأن العرب فتكوا فيهم فتكاً ذريعاً.

و على أي حال قد انتهت الواقعة بانسحاب العرب إلى جبالهم ورجعت العسكر الإنجليزية بغاية السرعة إلى سواكن وتركزت المواقع التي استولت عليها وتوافد إليها العرب مع قائدهم عثمان واجتمعت له في الموقع الذي هو جم فيه قوة حملته على الشموخ بأنفه والنداء باستعداده لمهاجمة العساكر الإنجليزية وأنه لا يقبل التسليم، إنا لنعجب كما يعجب سائر الجرائد الأوروبية من هذه الرجعة العربية بعد الطنطنة بالنصر والظفر والإعلان بأن العساكر الإنجليزية نالت من الشرف أعلى ما يناله جيش في قتال، فإن سرعة الرجوع شاهد بيّن على أن هذا الجيش المنظم يقتدر على حفظ مركزه في ساحة الحرب وأنه خشي التلف لو بقي فيه فعاد راجعاً إلى شواطئ البحر. فكأن المقتلة لم تكن إلا كرة أعقبتها قوة حتى عدتها بعض الجرائد هزيمة وحسبتها من الخطأ العظيم لأنها تجرّء العرب على البقاء في الطريق الذي يصل سواكن ببربر وقطع الطريق على سالكيه، وإنا لا نوافقهم على ذلك لكننا نعدها عجزاً ظاهراً عن

مقاومة العربان في جبالهم.

وما أشبه فعلة الإنجليز هذه بفعلتهم من نحو عشرين سنة عندما كان يحارب في حدود الهند سرايا الأمير عبد الله الوهابي وخوندسوات، فإنه بعدما انهزم في جبال (سوات وبنير) شر هزيمة وترك مدافعه وذخائره رجع ثانية ودخل قرية صغيرة من قرى تلك الجبال.

وفاجأها ليلاً على غفلة وأحرقها فقتل أهلها جميعاً وانقلب راجعاً إلى بلاده في الهند من ليلته، وأعلن بأنه قتل وسلب ونهب وظفر وانتصر، فليعتبر المعقبون.

وكان الجنرال چراهام بعمله هذا لم يرد إطفاء الفتنة في الأراضي المصرية، وإنما قصد ردّ شرف العساكر الإنجليزية والأخذ بثأر بعض من قتلها سابقاً وإقامة البرهان لأوروبا على أن العساكر الإنجليز يقدرّون على محاربة العربان ويستطيعون الهجوم عليهم، نعم إنه لم يغفل التدبير بالكلية فإن الجرائد أخبرت أنه وضع رأس عثمان دجمة في المساومة وجعل لمن يأتي به ألف ليرا إنجليزية، ونعم ما دبر ولكن يخاف أن عثمان عندما يبلغه الخبر يضع رأس الجنرال في المزايدة ويجعل لمن يأتي به مائة قنطار من سن الفيل ويكون الخطر على الجنرال أعظم!!

ثم إن الجرائد الإنجليزية على عادتها من ترويج سياسة حكومتها في الحروب أشاعت أن الجنرال چراهام بعد رجوعه إلى سواكن دعا بعض رؤساء القبائل وذكرهم في إقرار الراحة بين سكان البلاد السودانية ورغب إليهم أن يتعهدوا به، فأجاب بأنه غير ممكن لهم إلا بمساعدة العساكر الإنجليزية وأنهم استصوبوا ما نشره الجنرال من تعيين الجعالة على جزرأس عثمان بمبلغ ألف ليرا إنجليزية، وهذا مما لا نظنه بالعرب لمخالفته طباعهم وبنوا أخلاقهم على الخضوع للأجنبي عنهم وما عهد ذلك فيهم من يوم نشأتهم العربية إلى اليوم. وبعد إنهاء الكلام معهم أخذ في ذم عثمان على ما روته تلك الجرائد حيث لم يظفر به بأنه كذاب وخائن لبلاده وأبناء جلدته فإنه الذي عرضهم لسفك الدم وإتلاف الأرواح.

وقد ذكرنا هذا بقصة أحد القواد الأفغانيين حيث عرض نفسه لخدمة الإنجليز في

الحرب الأفغانية الأخيرة فأمدوه بمبالغ وافرة لأعانتته على العمل فأخذ ما أخذ ونثره في قومه وهياهم به للكر على الإنجليز والنكاية بهم ونال منهم ما نال. وبعدما ذاقوا منه الوبال أخذوا في نشر المنشورات وتحرير الإعلانات بأن هذا الرجل قليل الوفاء خائن العهود لا يثبت على قوله ولا يفي بوعدته، مع أن الوفاء هو أداء حق الوطن والمدافعة عنه والقيام بزمومه وكل عهد يخالفه فالذمة تنكره والصدق يأباه كائنًا ما كان

هذه أسطورة أمر الجنرال چراهام، وأما الجنرال چوردون فقد أخبرت بعض الجرائد الإنجليزية أنه في خطر وأنه يوجد قلق عظيم في مصر من جهته، ويثبت هذا الخبر امتناع وزير الحربية في إنجلترا من عرض المخابرات التي جرت بينه وبين الجنرال خوفًا من تأثيرها في الأذهان.

وروت جريدة الديلي نيوز بناء على تلغراف ورد إليها أن زبير باشا صرّح باستعداده لأن يخلف چوردون باشا في السودان وهو يظن أنه لا يمكن إعادة الأمن إلى تلك البلاد إلا بطرق سلمية ولا يستطيع أن يبدي فكره في شأن المهدي قبل أن يخبره وهو في ريب من اعتقاد السودانيين بنبوته (كذا) ومما قال: إن تجارة الرقيق يمكن إلغاؤها بالتدريج عندما يشرع سكان السودان في معرفة فوائد التمدن ومنافعه ثم كذب ما أشيع عنه من البغض للجنرال چوردون.

نعم إن زبير باشا لا يبغض الجنرال في هذه الأوقات ما دام في القاهرة أما إذا وصل إلى السودان فيمكن أن تعود إليه الضغينة التي مازجت قلبه سنين عديدة.

\*\*\*

### صدى دعوة السودان

وردت برقية من تاشكند إلى جريدة الساندر الإنجليزية مفادها أنه حصل اضطراب عظيم في أفكار المسلمين سكنة بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول، وظهر فيهم داع جديد يحث على الحرب ومقاتلة الذين



يتنهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلعه من مغرسه إذا لم ينشر اللواء الأخضر (المغالبة ومصادمة المتعدي عليهم). هذا برهان جلي على ما أُنذر به سابقاً من أن دعوى المهدوية في السودان لهذه الأوقات التي صدم المسلمين فيها أشباه الحوادث الماضية في القرن الخامس والسادس من الهجرة ستدعو إلى حركة عامة يصيح فيها الشرقي الغربي ويصعب على الإنجليز وهو في مجراها أن يتنكب عنها دون أن تعرفه هزة من مفزعاتها خصوصاً والمظاهرة الدينية في البلاد المحكومة بسلطة أقوى وأظهر.

إن بلاد بخارى بينها وبين السودان مسافات متطاولة وأبعاد متنائية ويظن الناظر في لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة، ومع ذلك سرى التنافس بين القطرين في الغيرة بغاية السرعة فما ظنك ببلاد هي أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها منالاً؟ يغلب على الظن أن الروح هبطت إليها ولكن تتحرك بحركة العقل وتنمو على القوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادية، فلا يشعر الأقوياء إلا وقد بات بحلاقمهم المستضعفون، والأرض أرض الله يورثها من يشاء من عباده الصالحين. إذا سهلت الحوادث ظهور الكوامن و مهدت بروز المغيبات ماذا يمكن أن يؤخذ به من الوسائل لوقاية العدد القليل من غيلة الجمهور الأغلب الذي لا يقاوم و ما أمكنت مقاومته في الأزمان الخالية؟!

نظن أن لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه و الدخول إليه من بابه، و تركه للمسلمين يرضي بعضهم بعضاً و يدافع بأسهم بأس بعض. فإن كان هذا هو نهاية السير، فمن الخطأ السياسي أن لا يبدأ به قبل اشتداد الكرب، و عظيم الخطب، و الله الهادي إلى طريق الرشاد.

### اضطراب سياسة الإنجليز في مصر

تشاكرت أفكار السياسيين من الإنجليز في لوم الحكومة على سياستها المصرية، قال اللورد سالسبري في بعض الاجتماعات العظيمة: إن الحكومة الإنجليزية بالتواء

سياستها و تذبذبها وضعت من شرف إنجلترا و خفضت اسمها، و عرضت أجل مصالح الإمبراطورية (الهند) للخطر. ثم تكلم في منشور چوردون باشا المبيع لبيع الرقيق فقال: ليس من الممكن لمسيو جلاستون أن يبيع تجارة الرقيق على حفافي النيل و هو يحظرها على سواحل البحر الأحمر (و الأولى أن يبيعها في جمعية البقاع لاستحالة منعها مطلقاً). و ذكرت جريدة (البال مال جازيت) أن مستشار جمعية منع الرق في لندن أرسل إلى اللورد جرانفيل خطاباً بالنيابة عن أعضاء الجمعية يلقي عليه التبعة في تسمية زبير باشا والياً على السودان الشرقية، و أن الجمعية اتفقت آراؤها على أن مساعدة الحكومة الإنجليزية لرجل كزبير باشا تكسيها عاراً و حطة في نظر أوروبا.

و قالت جريدة الديلي نيوز: الصحيح أن الارتباك الواقع في مالية مصر أقلق وزارة إنجلترا و بعثها على البحث في إيجاد وسيلة لإدخال النقود إلى مصر، فإنها في غاية الحاجة إليها. و يؤكد أن الحكومة الإنجليزية ستعرض أفكارها على البرلمان في هذا الشأن، و في الظن أن ما تعرضه عليه يكون متعلقاً بضمانة القرض المصري (دخول مصر في حماية إنجلترا رسمياً) إلا أن عدداً عديداً من الأحرار في البرلمان صرحوا بعدم قبولهم أي فكر يعرض عليهم في هذه المسألة. و مع هذا فقد كذبت هذه الجريدة ما أشيع في الدوائر المالية من أن في عزم الحكومة الإنجليزية أن تعد قرضاً للبلاد المصرية مبلغه ثمانية ملايين بفائدة ثلاثة و نصف في المائة.

### برلمان إنجلترا

انعقدت له جلسة من أيام لم يحضرها المستر جلاستون لأنه كان مريضاً (أو متمارصاً لخوفه من عاقبة المداولة فيها) فتاب عنه في الكلام هر تنكتون وزير الحربية و ابتداءً يطلب نقوداً لنفقات حلول الجيش الإنجليزي في الأقطار المصرية و بين الدواعي إلى ما طلب، فعارضه المسيو لاپوشير (و هو من الحزب الحر الذي يأبى أن تدخل إنجلترا في أي حرب كانت) و طلب تنقيص المبلغ الذي طلبه وزير

الحربية ثم دارت المباحثة في المسألة المصرية و حمي و طيس الجدل فيها و تكلم الخطباء عن ماضيها و حاضرها و مستقبلها و بينوا الأغلاط التي ارتكبتها الحكومة في سياستها و ماذا يجب الآن إعداده من وسائل الخلاص و قال اللورد نورثكوت (و هو رئيس حزب المعارضين لسياسة الحكومة): إن خطاب وزير الحربية دل على تغيير عظيم في أفكار الوزارة، فقد علمنا من كلامه أنها جارت الرأي العمومي في البلاد و أذعنت لمقتضيات الحوادث و عدلت عن السياسة المرتجة المتزعزعة و اعترفت بما تعهدت به و قبلت أن تقوم بوفائه بعد أن كانت تحاول التملص منه، و فهم منه أيضاً أن بلاد السودان إذا تركت لصغار السلاطين القدماء الذين يحاولون استعادة ممالكهم ليقيموا فيها إمارات صغيرة فإن الخرطوم تكون مستثناة لأهميتها في راحة البلاد المصرية، إن البحر الأحمر لما كان تابعاً لقنال السويس و مرتبطاً بطريق الهند، فمصالح إنجلترا تقضي بأن تكون الثغور المصرية (من الإسكندرية إلى ما وراء عدن فتدخل رشيد ودمياط وبور سعيد وسواكن ومصوع) بيد الإنجليز مادام المصريون عاجزين عن الدفاع عنها. و وضح في خطابه (وزير الحربية) أن أفكار الوزارة في هذه الأوقات متجهة لأن تحمل عساكرها في مسافات طويلة من السودان الشرقي لعلمها بلزوم اتصال شواطئ البحر الأحمر بالمزاكر التي تبقى في السودان و أن توصل سواكن ببربر بخرطوم، و هذا الرأي الذي أبداه وزير الحربية يستدعي الحلول في مصر إلى مدة أطول من المدة التي صرّح بها سابقاً.

كانوا بدأوا في استدعاء قسم من العساكر و صمموا على استدعاء قسم آخر منها، لكنهم الآن لا يريدون إلا تقرير حكومة أهلية (كذا) قادرة أن تقوم بنفسها و تأتي أعمالاً مفيدة لبلادها و بعدما كانوا يستعملون الألفاظ المبهمة في شأنهم مع مصر، صرحوا بالحالة التي يجب أن تكون عليها مصر حتى تتركها إنجلترا و شأنها و يريد وزير الحربية بحكومة ثابتة قادرة ما تكون موضع الثقة لرعاياها و الأوروبيين المستوطنين في البلاد و محل من النقود التي تحمل إليها (دينياً و قرصاً).

قالت: جريدة التان بعد ذكرها هذه المباحثة: إن الوزارة الإنجليزية حادت عن

منهجها الأول و صرحت بقبول التبعة في مداخلاتها التي كانت تؤمل التخلص منها متى أرادت، إلا أنها الآن حملت حملاً ثقيلاً على مالياتها و سياستها الخارجية. إنها لم تصرح بكلمة حماية حتى اليوم ولكنها المراد من عبارتها، و تزعم أنها منساقفة إليها قهراً لغرض أن تمنح مصر إدارة قديمة و جهادية منظمة و قضاء عادلاً و هذه الحماية ما لم تناقش في الحساب بين يدي أوروبا، و إنا لنأسف على فقد اللورد بيكونسفيلد، و نتمنى لو كان حياً حتى يذكر المسيو جلادستون بخطبه المشتعلة غيضاً، المفعمة لوماً و تقريراً على من يميل لسياسة الحروب و الفتوحات.

قالت صحيفة الديلي نيوز و هي شبه رسمية: إن الوزارة الحالية (الإنجليزية) في خطر و إنه في يوم الخميس الماضي كان الكلام دائراً في مجلس البرلمان على تغيير وزاري و على حل المجلس و أنه لا يمنع من ذلك رفض اللائحة التي قدمها لا پوشير في لوم الحكومة. ثم قالت: إن البلاد (الإنجليزية) لا بد لها أن تنتهياً لإبداء أفكارها في شأن الوزارة و تصرفها داخل البلاد و خارجها.

و يقال في الدوائر السياسية: إن تأخر مستر جلادستون عن الحضور في جلسات المجلس يومي السبت و الأحد لم يكن ناشئاً عن انحراف الصحة و إنما كان هذا تعللاً و مراوغة ليس إلا<sup>(١)</sup>.

### الباب العالي

إن كان البرهان يدفع غارة أو يهزم عسكرياً أو يفتح بلاداً فهذا أقوى ما يكون من البرهان على أوضح حق يوجد.

كتب مراسل الثان في الأستانة كتاباً مفصلاً عن أفكار أعظم العثمانيين في المسألة المصرية و ما للباب العالي من الحقوق. فما أثبتته أن العثمانيين في ضجر من إجحاف إنجلترا و جورها عن العدل في معاملة السلطان و عدم الاكتراث بما له من

١. ادعاء المرض أو التمارض الدبلوماسي أصبح معروفاً في مصر.. فلتبحث بريطانيا عن سلاح آخر!!

الحق الثابت و تصرفها في مصر بدون مراعاة رضاه، و أن بعض الرجال العظام بين له حيف إنجلترا و تعديها على المعاهدات الدولية و الفرمانات الشاهانية و أثبتته بأدلة منها ما أجابت به إنجلترا عن بلاغ الباب العالي إلى الدول من نحو ستين في بداية الارتباكات المصرية، حيث قالت إنها ترغب حفظ الحالة المقررة في مصر (الاستاتو كو)<sup>(١)</sup> على مقتضى الفرمانات السلطانية و العهود الدولية و أنه لا يسوغ التغيير فيها بوجه ما إلا باتفاق الدول.

و منها نص فرمان الصادر بتولية توفيق باشا، فإنه صريح في أن مصر بحدودها الطبيعية و ملحقاتها تعدّ من الأملاك العثمانية و أنه لا يسمح للخديو أن يتنازل عن قطعة أرض منها صغرت أو كبرت لأجنبي كائناً من كان لأي سبب و لا بأي وجه، و لا يسوغ له أن يتخلى عن شيء من الامتيازات الممنوحة لمصر مهما كانت الأسباب و الحوادث و لا يجوز له عقد شرط أو عهد إلا بعد عرضه على الدولة و رضاها و يحظر عليه تجديد قرض مالي إلا فيما يتعلق بتسوية المسائل المالية التي كانت لذلك العهد.

و منها أن قنال السويس لم يفتح إلا بعد استئذان الباب العالي، فكيف ساغ لإنجلترا الآن أن تتولى فصل السودان عن مصر و أن تتداول في فتح قنال آخر و أن تتدبر في قرض جديد تحمله على عواتق الحكومة المصرية و أن تتناول حماية الثغور بعساكرها بدون الاتفاق مع الباب العالي و لا مشاورة الدول العظيمة؟!

و أنا في حيرة مما أراد هذا العظيم من إقامة الحجج هل أراد إظهار ما كان خافياً على دول أوروبا و هم يعلمونه حق العلم أو بيان أن إنجلترا أخطأت في فهم هذه الفرمانات و تلك المعاهدات أو حاول إقناعها بالدليل و البرهان؟! ولكننا نعلم أن حكومة بريطانيا لا تفزع من الاحتجاج و لا ترهب الجدل فإنها تمرنت على ذلك من أزمان طويلة مع الملوك و الأمراء الشرقيين و أمكنها في أحوال كثيرة أن تجيب عما

١. STATUS QUO معناها الوضع الراهن.

يرد عليها من الاعتراضات وإن بلغت مقدماتها من الظهور حدّ البداهة. ولو لا هذا لما احتدت جريدة التايمس عندما بلغها نبأ مؤداه أن جرانفيل طلب من السلطان أن يرسل حامية تركية إلى سواكن و بالغت في إنكار ذلك بقولها إنه مما لا يخطر بالبال، ثم تعللت بما لا يذهب على فطنة أحد حيث قالت إن إنجلترا لا تريد أن تحامي عن حقوق السلطان بعد ما صارت بضعفه نسيا منسيا.

### أيرلندا

في كل يوم يقيم الإنجليزي برهاناً منطقياً و دليلاً جدلياً على أنه ما ذهب إلى مصر إلا بقصد إقرار الراحة و وضع قواعد العدالة، ولكنه كلما رتب مقدماته لإقناع السذج بقضاياه المشهورة عارضه الأيرلنديون ببراهين عملية تنقض ترتيبه و تبطل نتيجته، فإنه لا يمضي وقت من الأوقات إلا و لهم فيه عمل لكسر شوكة الحكومة الإنجليزية في أيرلندا، يضعون الديناميت لتدمير الأبنية و هدم الجسور و تعطيل السكك الحديدية و يفتكون برجال الحكومة و يتضجرون من ظلمها و يطلبون كل وسيلة للتملص من سلطتها و هم في سيرهم لا يهنون و لا يفترون.

هيئت وليمة للمستر پارنل رئيس حزب الأيرلنديين حضرها جم غفير منهم احتفالاً بعيد سان پتريس و فيهم كثير من أعضاء البر لمان، فألقى عليهم خطاباً أظهر فيه مسرته من تقدم الحركة الجنسية في أيرلندا و أوصى الأيرلنديين أن لا يعتمدوا على حزب من الأحزاب الإنجليزية، و إنما يكون اعتمادهم على نشاطهم و اجتهادهم، ثم قال إن له في المستقبل أملاً حسناً و ختم كلامه بقوله إن اليوم الذي يجتمع فيه الأيرلنديون على اختلاف أحزابهم في بسيطة أرضهم هو قريب و سيكونون عما قليل تحت حكم بر لمان أيرلندي و في ذلك الوقت لا قبله ترسل أيرلندا إلى إنجلترا رسالة سليمة. و عند رفع كئوس الشراب أبى الحاضرون ذكر الملكة و إنما رفع پارنل أول كأس و نادى باسم الأمة الأيرلندية و طلب من الحاضرين ذلك.

هكذا يطلب الأنجليز ضمّ أراضٍ إلى أملاكهم فتنفصل عنهم أراضٍ أخرى وإلى الله علم العاقبة.

### الفرنسيون في التونكين

مضت عدة أشهر و الفرنسيون ينتظرون ما تؤدي إليه حركات عساكرهم في بلاد تونكين، و كادوا يرتابون من حسن العاقبة حتى وردت البرقية إلى وزير الحربية في باريس من القائد العام بأن العساكر الفرنسية دخلت باكين من طريق يوصل إلى لا نسون و أن الصينيين انهزموا إلى نواحي نكين حيث اشتدت عليهم المهاجمات الفرنسية من جهتي الشمال والشرق و خسروا خسائر جسيمة و لم يجرح من الفرنسيين سوى سبعين رجلاً، و حاز العساكر الفرنسية كميات وافرة من الذخائر و بطارية من مدافع الكروب وجدوها في قلعة باكين، يظن كثير من رجال السياسة الفرنسية أن فرنسا قد أتمت عملها بالاستيلاء على هذا الموقع المهم.

و أكد هذا الظن ما ورد بالبرقية من بكين إلى جريدة الستاندرد أن ملكة الصين عندما بلغها استيلاء الفرنسيين على باكين عقدت مجلساً حربياً لدراسة الموقف في الأمور الصينية الحاضرة، فقرر الأعضاء و بينهم الأمير كونج على أنه يلزم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية بطرق ودية.

و في حسابنا أن مثل هذه الفتوحات لا تسلي أحزان الفرنسيين و لا تعزيهم على ما خسروه في مصر، و أن ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح.

### منشورات

روت جريدة التان عن جريدة سان بترسبورج أن إمبراطور روسيا أظهر رغبته في السفر إلى برلين في الصيف القادم مع الإمبراطورة و لم يعلم تاريخ توجهه بالتحديد إلى الآن و يظن أن سفره هذا يكون قبل سفر إمبراطور ألمانيا (أمس) حسب عادته.

و تعد هذه الزيارات من مؤكدات المواصلات بين دولتي الروس و ألمانيا و هو

مما يوسع لروسيا ميدان الجولان في آسيا كما بينا سابقاً. وردت إلى الديلي نيوز برقية من القاهرة مفادها أن قبيلة تراشي في بربر انضمت إلى قبائل كوردفان المعتقدين بمحمد أحمد.. وهذا مما يقنع الناظرين في الحركات السودانية بأن هذه المبالغات التي يذيعها الإنجليز في انتصارهم لم تؤثر شيئاً في نفوس القبائل و لم توهن اعتقادهم بذلك المدعي السوداني. و يقيم دليلاً على ما قلناه من أن هذه النيران الملتهبة لا يطفئها إلا رجل من عظماء المسلمين. نشرت في عدة مدن من أيرلندا إعلانات ثورية وجدها أعوان الشرطة ملصقة على جدران الشوارع و الأماكن العمومية مكتوب فيها هذه الكلمات: (حرب أهلية في شهر مارس سنة ١٨٨٤)، و هو الشهر الحادي فتناول الشرطيون تمزيقها بغاية السرعة. و كان الأيرلنديون من قبل وضعوا الديناميت في محطات السكك الحديدية من جملة جهات و هذه الاضطراب الداخلي الشديد ثلاثة الأثافي للمسألة المصرية و دخول مرو في حوزة الروس، و هذه الثلاثة، إن لم يكن لها رابعة، فهي كافية للمتبصر في تقدير الارتباك الذي ألم بالحكومة الإنجليزية في هذه الأيام.

\*\*\*

إننا لله و إنا إليه راجعون و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم، ورد تلغراف من القاهرة أن جريدة الستاندرد نشرت ما يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنجليزية) إلى إطلاق ألف و مائتي منهم من أرباب الجنايات الخفيفة، و سبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء و تنفتت الأكباد حزناً.

\*\*\*

ورد من سواكن إلى الستاندرد:  
أن المنشور الذي نشره هفت الأدميرال الثاني بتعيين جعالة لمن يأتي برأس عثمان دجمة وصل إلى مشايخ عرب ثمانية فأحرقوه علامة على رفضه و عدم قبوله.  
پرلين في ١٨ مارس:



أن جريدة البوست و هي جريدة لها علاقات مع السفارات في برلين، من فكرها أن استعفاء توفيق باشا و هو قريب الوقوع يفتح للدول الأوروبية بابًا لإعادة المراقبة المشتركة في مصر؛ لأن إنجلترا لم تنجح كل النجاح في مأموريتها لإقرار الراحة في تلك البلاد.

\* \* \*

باريس في ٢٧ مارس:

اشتدت خطوب المسائل المصرية و اشتبهت مناهجها و عظمت أخطارها و التبتت وجوهها على ذوي الشئون و أرباب المصالح فيها حتى على السياسيين من رجال حكومة إنجلترا. كل يتصور غاية و يطلب حطًا يناله منها و قد شد رحاله للوصول إليه ولكن ضل أعلام الجادة و تاه في مجاهيل، و ليل المشكلات مظلم و ديجورها مدلهم، و تعاكست مذاهب السالكين هذا يشرق و الآخر يغرب و كل في وحشة يطلب المعين و يخاف العادي و كلما فرح لنبا رمي بسهمه من الجزع لا يدري أصاب خصمًا أو قتل منجدًا.

إن دولة عظيمة كان لها من القوة ما اعترف به دول العالم أجمع، و لها من الحقوق في مصر ما لا ينازعها فيه أحد، ترى رجالها اليوم يهتزون لدهشة الرعود الإنجليزية، و إن كان سحابها جهامًا، و يفزعون من هزيم تلك الأصوات فيحارون ماذا يفعلون، و ربما يأتون ما لا يريدون.

ادعت دولة واسعة المطامع أنها نائبة عنهم في إصلاح الأقطار المصرية و إنقاذها من الاختلال، فتبوأتها بقواها العسكرية و أخذت بزمام الأحكام فيها، تعزل و تولي، و تعطي و تمنع، و تعاهد و تنقص، و تنقض من أطرافها ما أرادت، و تحل بعساكرها من بقاعها ماشاءت و أصحاب الملك الشرعي شاخصة أبصارهم، مشرئبة رقابهم، يبصرون ما لا يسر لهم خاطرًا، و لا يشرح لهم صدرًا، مع خفقان في القلب و اضطراب في الفؤاد، و التهاب في الأحشاء، فزعًا من سوء العقابة، يحسون بما تقتضيه مواقع الأقطار، والنسب بين بلد و ما يجاوره من البلدان، و ما يلزم لحمايتها

من وسائل الدفاع، فيحكمون بأنه إن دامت الحال على ما يرون، أصبحت الأقطار السورية و الحجازية و اليمنية، على خطر عظيم في زمن قريب أو بعيد، و أن تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، ينادي عليهم نداء الناصح، بل ينفث فيهم نفثات الحق، بل يزعجهم إزعاج الحاكم القاهر بأن المحافظة على مصر، من أهم واجباتهم إن لم يكن لذاتها، فلما يتسلط عليه موقعها من الأقطار.

أما ولاية الأمر من المصريين و أولو الرأي فيهم فقد غشيه من هذه الدهاة ما أذهلهم، عن علم حاضرهم، و الفكر في مستقبلهم، طلبوا لهم عوناً قوياً، و ركنوا إليه في دفع ما ظنوه غائلة، و توهموه نازلة، فاستبد بالأمر عليهم، و سلبهم ما طلبوا المحافظة عليه و هم بين نوم تطيب لهم أوائله، بما يلين لجنوبهم من الوعود الإنجليزية، و بين أحلام مدهشة و خيالات مزعجة، تمثل لهم ما سيصب عليهم من حميم العذاب، و ما يؤخذون به من عذاب الهوان، و أن قليلاً مما يشهدونه حاضر العنوان، على كثير مما يراه بعضهم بعيداً و نراه و العاقلون منهم قريباً.

أما الإنجليز، فليسوا في حل مما كسبوا و لم يهنأ لهم ما طمعوا، بل دافعتهم الحوادث و طاردتهم إلى مشكلات لم تكن في حسابهم، و هم الآن بين أمور ثلاثة لا يتيسر واحداً إلا بما ينفي الآخر و هم يريدونها مجتمعة و لن يقدروا عليه إلا بقدر يأتيهم بما يخرق العادة و يفوق الإمكان، إنهاء مسألة محمد أحمد، و الوفاء بعهودهم لأوروبا، و ما يضمرونه لأنفسهم في مصر، ثم هم يتشبثون لكل منها بوسيلة تضارب ما يتمسكون به في الأخرى تارة يظهرون عزمهم على مبارحة مصر جنوباً إلى الوفاء بالعهد، لكن يتبعون ما يقولون في ذلك بأن أجل الجلاء غير محدود و تارة تنادي بأن ذمة إنجلترا توجب عليها أن تدخل مصر تحت حمايتها و تتولى إدارتها بصفة سيد حاكم لا مستشار ناصح، و يشير بل يصرح وزير حريتهم بأن الضرورة تلجئهم إلى مثل هذا العمل و يعبر عنه أحياناً باسم الحماية و أخرى بما لا اسم له سواها، و طوراً يلقبون محمد أحمد أمير كوردفان و يطلبون من الخديو كما روته جريدة (ميموريال ديبلوماتيك) أن يكتب لهم صكاً بأنه يفوض الأمر لهم في شأن المدعي، يتفقون معه

كما يريدون و أنه يسمح لهم بإحلال عساكرهم في سواحل البحر الأحمر و أنه لا يتولى ولاية الخرطوم بعد چوردون إلا شيخ يضمن لهم حسن الاتفاق مع محمد أحمد، فلا الوفاء يروق لهم لمناقضته للغرض و لا الحماية تسهل عليهم لأن دول أوروبا بالمرصاد. و بين هذا يأخذ محمد أحمد ما يهيئه له الإمكان من القوة و يثبت دعوته إلى سائر الأقطار و يجيش الجيوش و يزحف إلى الخرطوم، و هو اليوم يحاصرها و على شرف افتتاحها و مع حرص الحكومة الإنجليزية على كتم الأخبار و تلطيف الإشاعات من جهة الخرطوم و مصر السلفى (إلى الإسكندرية) و أن الحكومة الإنجليزية في مخابراتها مع الجنرال چوردون إنما تعتمد على الصدفة في وجود من يقطع البراري إلى عاصمة نوبيا و كورسكو حتى يوصل الخبر إليه و أنه لا علم للحكومة بشيء من أحوال النيل إلا على من خامس عشر الشهر، و لا تدري ماذا حلّ بچوردون، و أثبتت جريدة التايمس أن الجنرال في خطر عظيم، و زاد الهول عليهم أن عثمان دجمة لم يتزعزع عزمه بما أصابه في الهزيمتين بل لم يزل خصمًا قويا للحكومة الإنجليزية، و يدل على ذلك أن الجنرال چراهام يتأهب لمنازلته كما ذكرته جريدة التان و في أهم الجرائد الفرنسية أن وقوع الخرطوم في قبضة محمد أحمد يكون له رجة هائلة و أثر عظيم في تغيير الأحوال الحاضرة في البلاد الشرقية. نعم إذا حل محمد أحمد في الخرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين الخرطوم و أسوان و تتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا و لا يعدمون من العرب في جهات الصعيد بل و في الدلتا من يلتحق بهم و تكون الطامة الكبرى، يغلب على ظننا أن هذه النار ليست مما يطفئه رذاذ السياسة الإنجليزية، و لا مما تخمد حركات عساكرها البطيئة، خصوصًا و قد وقع الخلاف بين حكومة بريطانيا و بين قواد جيشها في سواحل البحر الأحمر، فمن رأي الحكومة أن تداوم الحرب و تسرع في إنهائها و من رأي الأميرال هفت توقيف الحرب إلى شهر أكتوبر (بعد ستة أشهر) لئلا تهلك العساكر من الحر، و أن في ستة أشهر لسعة لما لا يهيجس الآن في خاطر أحد. فلو و كل الأمر في تسكين الثورة و حسم الفتن إلى القوة الإنجليزية و بروقها الخلب لم نكد

نفكر فيما يكون منها حتى تلتهب النيران في أنحاء أخرى و يصعب على أرباب الشأن فيما بعد ذلك تداركها و ليس لكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين، يلقي إليهم زمام العمل فيها خالصاً من المداخلات الأجنبية التي توغر الصدور و تثير الأحقاد.

و أحست الجرائد الفرنسية بما في نية إنجلترا أن تفعله من التصرف في الأراضي المصرية و منها جريدة (الريبليك فرانسييز) و جريدة (الديبا) و غيرهما، فطلبت من الحكومة الفرنسية أن تحل بعساكرها في جزيرة ديسي المتسلطة على سواحل البحر الأحمر مما يلي مصوع محتجة على ذلك بقولها إن صح ما ادعاه وزير حربية إنجلترا من كون شطوط البحر الأحمر تعد من طريق الهند فلنا أن نقول إنها أيضاً طريق تونكين و كوشنشين و مدغشقر، بل إن الحلول في تلك الجزيرة من أهم الضروريات لمراقبة منع التجارة في العبيد كما تقضي به المعاهدة بيننا و بين إنجلترا.

هذا بعض ما أنتجته سياسة جلادستون في مصر و ربما يسكن روع أمتة و يخفف انزعاجها من هذه المباراة الجديدة بينها و بين فرنسا على سواحل البحر الأحمر بتذكار ما أعقبته المباراة بين الأمتين في الهند من أزمان ماضية، ولكن شتان بين الزمانين فتلك أوقات كانت سياسة إنجلترا خافية على أهالي الهند و كانوا ينخدعون لها، أما اليوم فلم يبق فيها خفاء على أحد من سكان الممالك الشرقية، و لعل الغيب يوافينا عن قريب بما يكون لفرنسا مع إنجلترا في هذه المسائل. و إلى الله المصير.

### الشيخ الميرغني

وردت برقية من سواكن في ٢١ مارس مفادها أن الشيخ الميرغني و معه شيخ آخر يقال إنه من مكة المكرمة ذهبا في ذلك اليوم إلى المعسكر الإنجليزي ليحضر خضوع كثير من مشايخ القبائل الذين جنحوا إلى السلم مع الإنجليز. و في حين آخر أن هذا الميرغني صاحب فرقة إنجليزية تسير إلى بيرهندوك ليكون على يديه طاعة بعض القبائل في تلك النواحي، و يقال إن إحداها لم تزل مترددة في قبول الطاعة و

عدمه.

هذا مما يعجب منه أن شيخًا يظهر بين المسلمين بمظهر العلم والإرشاد ثم يقود جيشًا إنجليزيًا لإذلال أبناء ملته، وإخوان دينه و جنسه، وهو يعلم أن شرفه شرفهم، و سيادته بسيادتهم، و لولاهم ما نال الإكرام والإجلال، و ما أغدقت عليه النعمة، و توفرت لديه دواعي الترف و النعيم، و تمتع بكامل لذاته و شهواته، كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الإنجليز، قبل الوقوف على مقاصدهم، و ماذا يريدون من تذليل جيش العرب و إخضاعهم، هل يصح له أن يأتي مثل هذا و هو يعلم ما يحذره الشرع و ما يبيحه اغترارًا ببعض الأوهام التي لا أساس لها.

و كتب إلينا من مصر و الحجاز أن جماعة من العلماء في القطرين حكموا بمروقه و قالوا إن هذا من أعظم الزلات التي لم يرتكب نظيرها في الإسلام، على أنه ليس من العلماء و لا من العارفين بطرق الإرشاد، و إنما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين وراثة عن أبيه، و أنه لم يتميز عن العامة الأमीين في شيء، و إن كان هذا لا يدفع العجب من فعله<sup>(١)</sup>.

### الخرطوم

في الجرائد الفرنسية نقلاً عن الإنجليزية أن أشياع محمد أحمد كانوا في مساء الثالث عشر من شهر مارس ثلاثة آلاف على القرب من الخرطوم، و في صباح الرابع عشر و صلوا إلى ستة آلاف، و هو يدل عن أن الجنرال چوردون عنده شيء من قوة الدفاع حيث لم تقدم تلك القوة على مهاجمة المدينة، لكن ماذا يجبي من طوعه أن

١. هذا النص كما ورد في الأصل و يبدو أن ما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني، و هو في عنقه، يمثل صورة من صور الرأي العام حينذاك. و مما لا شك فيه أنه قد بنى حكمه هذا مما تجمع لديه من معلومات، و لا يخفى أنه كان موجودًا في باريس عام ١٨٨٤ م. فإذا قدرنا الظروف التي كانت تحيط بالموقف، و بعد الشقة، و استحالة الوصول إلى مصادر ثقة يعول عليها لما يجعل الأخذ بهذا الرأي في موضع الحذر و الحيطة. و لا ننسى أن الخلافات الطائفية كانت على أشدها في شرق السودان في ذلك الوقت ...

يفعل مع هذه الآلاف المؤلفة التي تتضاعف يومًا بعد يوم و هم يحددون بمحل إقامته من جميع الجوانب، و مما يدل على أنه في أصعب المضايق بل على شفير الخطر اتفاق الجرائد الإنجليزية على دعوة حكومتها لإنقاذه بغاية السرعة.

و في أخبار الخامس عشر من الشهر أن فرقًا من الثائرين متحصنون على شواطئ النيل بمقربة من حلفا، على مسافة بضعة أميال من شمال الخرطوم، و أنهم أطلقوا النيران على مركب كانت تسير في النيل حاملة ثلاثمائة رجل استقدمهم الجنرال چوردون و قتلوا منهم نحو مائة إلا أنه تيسر للجنرال استخلاص باقيهم، و استبشرت التايمس بهذا الظفر الذي تسنى للجنرال بتخليص بقية القادمين إليه و إن أظهرت غاية الكدر من كونه في خطر عظيم، و ثائرة السودان تحيط بجميع أطرافه و تستحث حكومتها على إنقاذه ما استطاعت (والله يعلم كم بين ذاك الاستبشار و هذا الإنذار و هما في فصل واحد).

و في برقية إلى الديلي نيوز أن طرق الخرطوم منقطعة، و أن القبائل المذعنة لمحمد أحمد محدقة بجميع جهاتها، و أن ثلاثة من تلك القبائل وافرة العدد و على مقدمتها جم غفير من المشايخ و الدراويش يزحفون قصد الاستيلاء عليها، و يظن عموم الناس أن لا سبيل لمدافعتهم عنها أو تخليصها منهم إلا بإنجاد عساكر إنجليزية، و قال مراسل التايمس في ٢١ من الشهر: إن من الواجب على الحكومة الإنجليزية إغاثة الجنرال چوردون، فإنها قد ألقت في فم الأسد و سيكون فريسة المنية إن لم ترسل العساكر إليه بغاية السرعة.

و جاءت الأخبار مؤكدة أن حصن كسلا تحت محاصرة الثائرين، و أن القبائل في جنوب بربر جميعها في هيجان و ثورة شديدة.

و هذا كله يؤيد ما قلناه مرارًا من أن هذا المدعي يخشى من قوة بأسه و سريان دعوته إلى جهات بعيدة، فإنه إذا استقر قدمه في الخرطوم لم نلبث أن نسمع بظهور دعواه في أسوان.

### تحكم اللورد دوفرين

نهجت دولة الإنجليز في معاملتها للدولة العثمانية منهجاً جديداً بعد حرب الروس، تأخذها بالتهديد و التهويل في كل ما تروم قضاءه من أغراضها في الممالك العثمانية، و لا تراعى فيما تفعل قانوناً دولياً، و لا عهداً سياسياً، و تتحكم بجبروتها في تحديد المواعيد و تعيين الأوقات، و أعظم ما يكون من مرهباتها الوعيد بتغير قلبها عن وداد تلك الدولة أو اشمئزاز نفسها منها و لا تفرق في نهجها هذا بين صغار المسائل و كبارها.

و من ذلك ما روته جميع الجرائد من اشتداد اللورد دوفرين سفير إنجلترا في الأستانة على سعيد باشا الصدر الأعظم و إغلاظه له في القول عند التكلم في شأن شركة عثمانية تحت رعاية دولة لو بهرام أغا، منحها الباب العالي امتيازاً بتسيير سفن النقل على شطوط البحر الأبيض، و كان هذا العمل في يد شركة إنجليزية (لم تأخذ به امتيازاً). فامتعض اللورد دوفرين و طلب من الباب العالي استرداد منحه فلم يجب طلبه فذهب يوم الخميس الماضي إلى الصدر الأعظم و خشن له المقال و نسب إلى الباب العالي تعمد المراوغة، و لما تنصل له الصدر بأن هذا ليس من خصائصه بل يتعلق بوزير الخارجية، قال إنه لا يخبر فيه وزارة الخارجية (و إن كان خصائصها) و أنه يلقي التبعة على الصدر الأعظم إذا تأخر الجواب بقبول حجته و أن لا بد من تعويض لمن أصابته خسارة بسبب هذا الامتياز من الإنجليز، مع تحرير اعتذار رسمي و عزل والي إزمير فإذا بلغ أمرنا إلى الخضوع بكل تهديد و الانقياد بأي إرهاب، و صارت مسائلنا الداخلية تحت اختيار من يستطيع أن يلقي التبعة، و يبالغ في الخشونة، فإننا لله و إنا إليه راجعون، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

### مقاصد إنجليزية في مصر

في كل يوم تلح جريدة التايمس على حكومة إنجلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية، زاعمة أنه يحل من الأهالي محل القبول، و يسرون عنه غاية

السرور، و تشير على الحكومة أيضاً أن تجهر بحمايتها لمصر و تظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها في تلك البلاد، و أن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإرادة المصرية و فروعها في حاجة إلى إصلاح حقيقي و لن يقوم به إلا رجال الإنجليز.

و هذا من تلك الجريدة و غيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما تكنه من السلطة على البلاد المصرية، و ضمها إلى ممالكها الشرقية، و ما كان ذلك خافياً على أحد و إن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل، والله أعلم.

ما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك و رسوخ القدم، ثم هي تموه في تحسين ذلك بدعواها أن أهالي مصر يفرحون منه مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة و لسون إنما كان منشؤها العزم على تقليل عدد العساكر و إقفال المدرسة العسكرية، فالمصريون و هم المسلمون لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج.

### حجة نوبار باشا

في برقية من القاهرة بتاريخ ٢٢ مارس أن نوبار باشا أقام الحجة على المستر كليفورد لويد (وكيل الداخلية المصرية) و رفع حجته إلى الماچور بارنج.

\*\*\*

هذا الذي بقي لأولي الأمر من الشرقيين الحجج و البراهين و يقنعون بأن برهانهم سالم المقدمات صحيح النتيجة عند العقل، إلا أن بعضهم يقيم حجته على بعض الدول عند بعض آخر منها و بعضهم يقيمها عند أوليائه من الأجانب و هو منهم و فيهم، ان هذا لشيء عجاب.



عثمان دجمة<sup>(١)</sup>

في البرقيات الأخيرة أن فرقة إنجليزية ستفارق هندوك و تتوجه إلى نواحي ثمانية (محل المعركة الماضية) لتعسكر في تلك الجهات، أظنون أن إقامتهم بها يكفي لخضوع القبائل. غير أن عثمان وعد قومه بأنه سيأتيه أمر إلهي بعد ستة أيام ليبيد بقوته عساكر الإنجليز، و أشيع أن محمد أحمد سيبعث إليه بمدد.

## معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين

جاء إلى الخرطوم ضابط مصري كان في عبيد، و أخبر أن رسل الكاثوليك في تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد على حرية تامة تجري عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم في كل شهر خمس تليرات (ريالات) و نصف، و أن كنيستهم مفتحة الأبواب و إن كانت المدارس معطلة للضرورة.

هذا العمل منه يرشد إلى أن له دهاء و ذكاء و خبرة بما يجب الأخذ به في معاملة أرباب المذاهب و الأديان المخالفة لدينه و مذهبه، و هذا يزيدنا خوفًا من استفحال أمره و انتشار دعوته.

## أخبار أخيرة

\* كتب مراسل الديلي نيوز المرافق للجيش الإنجليزي في سواحل البحر الأحمر أن الجيوش الإنجليزية تقاسي مصاعب و مشاق شديدة في قطع الطريق إلى حيث تلتقي مع جيوش عثمان دجمة لتلتحم معها في القتال مرة ثالثة، فإن الحر شديد و المسالك و عرة و المياه مضرّة بالصحة، مع قتلها و لم يجوزوا إلى أول مرحلة إلا و قد أجهدهم التعب، و استولى عليهم الوهن، فأعجزوا أربعمئة منهم عن المسير.

١. و صحة هذا الاسم كما ينطق به أهله عثمان دقنة - دجنة - و هو من قبيلة الدجناب غرب السودان.

قالت جريدة الثان: إن هذا الهجوم لم تتبين غايته، و لما سئل عنه مستشار خارجية إنجلترا في البر لمان لبس في الجواب و راوغ في بيان الحقيقة، كأنه يريد التملص مما عساه أن يرد عليه من بعد وإخفاء المقصد، حتى إذا لم ينجوا فيه ستروا ما يلحقهم من حجل الإخفاق في السعي. و موهوا على ما يمسه من الشين، و يغلب على الظن أن القصد منه فتح الطريق بين بربر و سواكن لتتمكن حكومة الإنجليز من مخابرة الجنرال چوردون من جهة سواكن (حيث تعثرت عليها من طريق الخرطوم بعد محاصرتها بجيوش محمد أحمد من أطرافها المتصلة بالنيل).

و يقول مراسل الديلي نيوز إن الشدة لو دامت بالعساكر الإنجليزية على حالتها الحاضرة، فلا بد أن تصير غنيمة باردة لعثمان دجمة و فريسة ناجزة لأشباعه. و في جريدة التايمس أن القلق في لندن شديد، و الاضطراب بالغ فيها حده، و عموم الناس يتطلعون إلى أخبار المصرية دقيقة بعد دقيقة، و أتبع ذلك تلك الجريدة بقولها: لم يتسير لحكومة إنجلترا فتح طريق بربر بهذا الزحف الجديد، ضعف الأمل من فتح هذا الطريق في وقت آخر، و عز على إنجلترا إجراء فرضته على نفسها في الأقطار المصرية، و قل الرجاء في تسوية المسألة السودانية بطريقة محمودة.

عزمت حكومة روسيا بعد حلولها في مرو على أن تجعل وراء بحر الخزر من البلاد الداخلة تحت سلطتها حكومة خاصة بها، لها مركز معين وقاعدة ترد إليها أحكام تلك النواحي، حتى تسهل المواصلات بينها وبين مرو، و هذه حركة جديدة لدولة روسيا في أطراف آسيا، و هي و إن كانت لا تسر المحبين لإنجلترا ولكنها لا تحزن أعداءها.

### نصيحة

أشد ما كانت هيبة الإنجليز و ملكتها على الشرقيين قبل تكتيب الكتائب و عقد الألوية و سوق العساكر لمقاتلة عثمان دجمة على أميال من سواحل البحر الأحمر، و

كان يخيل للسودانيين بل يلبس اعتقادهم أن القوة الإنجليزية مما فوق الطبيعة و عن مثلها تصدر خوارق العادات، و كان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر أن غرائب القدرة البريطانية بلغت مقالع السحر، تدهش الأبواب و تحير العقول، و إذا خلع في صدور أمة من الأمم صغيرة أو كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق، أو تناوئها في مرغوب، انشقت الأرض و انفطرت السماء، عن كرامة من الإنجليز يصبون عليها أصوات العذاب، و يذيقونها أليم الوبال، و يخلبون الأرواح من الأجساد، فيغلبون و لا يغلبون، خصوصاً إن كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم، مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض.

إلا أن هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للإيقاع ببعض العرب في نواحي سواكن، فتحركت الجيوش المنظمة للملاقات عثمان و رجاله، و بنى القواد في الزحف قلاعاً «مربعات» من العساكر الباسلة. مدرعة بلوامع من حراب البنادق «السنج» مسيجة بالآلات الجديدة، من صنع (رمتون و هنري مارتين)، على أجود طراز يكون منه، و حصنها بأبراج من المدافع لا تدانيها من سكان تلك القفار قوة، و لا تسمو إليها منهم قدرة، لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصفوف الإنجليزية جماعة من عراة العرب و حفاتهم، فهدموا قلاعها و نقضوا بنيانها، و قوضوا أبراجها، و بعد تدافع و تضام و تقدم و تأخر، في موقعتين عظيمتين، كزّ الإنجليز إلى سواكن «ساحل البحر» و أخلوا ساحات القتال، و تقهقر العرب إلى الجبال و عج الإنجليز: غلبنا و انتقمنا.

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين، ثبتت أقدامهم و قوت جأشهم، و جمعت كلمتهم، و ذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة و الرعب، فيجمعوا قواهم و استعدوا للقتال مرة ثالثة، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقات خصومهم، لأن شدة الحر كانت من أعدائهم أو نصرائهم، حيث ألجأت العساكر الإنجليزية للبقاء عن تلك الديار، فأسرعت إلى البحر لا يستقر لها قدم إلا في مصر أو إنجلترا و ما أثارته هذه الغلبة في قلوب السودانيين من ثائرة التهور دعاهم

لتضييق الحصر على الخرطوم، لما علموا أن ليس في قدرتهم أن يقتفوا أثر الإنجليز في البحر، و لا يستطيعون الإيغال في طلبهم و هم على غوارب الموج، و لما اشتد الضيق بمن في الخرطوم نهض الجنرال چوردون بشجاعة الأبطال لرفع الحصار فلم تكن إلا كزة تبددت فيها جيوشه و أعقبتها فزة إلى داخل المدينة ليبتظر ما يأتي به القضاء.

ولكن ليستر وجه الهزيمة رمى ضابطين عظيمين من ضباط المصريين بالخيانة، و أمر أن يضربا بالرصاص فضربا و ماتا، و هما حسن باشا و سعيد باشا «في أخبار البرقيات» أما هذا الغلب في السواحل على هذه الصورة البديعة، و ما حل بچوردون فقد أسقط من شأن إنجلترا و قوتها في أقطار السودان عمومًا، و جعل كلمتها هي السفلى و بعث السودانيين على الاعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد أحمد، لا حول و لا قوة إلا بالله.

خطب يعقب خطبًا، و كرب يحدث كربًا، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار، و شف بها الحجاب و أحدثت هزة في قلوب الهنديين، فكشر النوابون و الرجاءات عن أنيابهم، و مدوا سواعدهم ينظرون إلى ما تطول و يراجع كل واحد نفسه و يمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد، و يلمح الفرص من خلال هذه الحوادث، انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الإنجليزية من مصيبة هكس إلى ما بعدها في جميع أرجاء الهند، و ترى الناس زرافات و فرادى يتناجون في هذه المسألة و يرجعوا على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل و هم على ربوة الأمل، يستطلعون سوانح الفرص خصوصاً المسلمين فيهم، كما أنبأنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية، و نظن أن الدولة الإنجليزية و عماد قوتها الإيهام و التغرير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى في نفوس الشرقيين، خصوصاً إذا أفضت حوادث الخرطوم إلى قتل چوردون أو أسره و افتتاح تلك المدينة و هي عاصمة السودان.

يزيد الطين بلة أن يشتد العثمانيون و يأخذوا بالحزم و قوة العزم في صيانة

حقوقهم بأي وسيلة كانت، وربما نراه واقعاً فإن العقلاء منهم لا يغفلون عن حاجة الإنجليز لمسالمتهم لأن الإنجليز يحكمون على خمسين مليوناً من المسلمين جميعهم يعترفون بحقوق السلطان و يجيبون داعيه إذا دعا، و هم له أطوع من الترك أنفسهم، و الحذاق من العثمانيين و إن كانوا يرون أن إنجلترا لا تعامل الدولة إلا بالتهديد و الإرهاب، و جعلت هذا طريقاً لنيل أغراضها منها، إلا أنهم يعلمون أن من المحال على إنجلترا أن تشهر على الدولة حرباً فإن سياسى بريطانيا و هم أشد الناس خبرة بدقائق الأمور فضلاً عن جلائلها، لا يخفى عليهم ما تكنه قلوب الهنديين من محبة صاحب السلطة الإسلامية، بل هم على يقين بأنهم لو جهرُوا بالحرب للعثمانيين لتقوّضت سلطتهم في الهند لأول وهلة، لا على المسلمين خاصة ولكن يتبعهم الوثنيون و هذا ظاهر عند كل إنجليزي و إن خفي على بعض العثمانيين ورام ستره عن باقيهم.

الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلاً في قلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في لا هور أن محمد أحمد لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقه مهدياً و أن لا نفرط في شيء مما يؤيده.

بعد هذا كيف يمكن للإنجليز دفع غائلة محمد أحمد، حر السودان منع و سيمنع من جولان العساكر فيه، و طلب العساكر من كوركووسيك بعد شيوع هذا الدعوة في الهند مما لا تجوزه الحكمة، و لا تظن أن إنجلترا تثير حرباً صليبية بحكومة الحبش على مسلمي السودان، لأنه يفسد عليها أمر الهند و يخالف أحكام المدنية الحاضرة. فما هي آخر الحيل؟ أيكثفي بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسري لهيبها إلى مصر العليا بل السلفى؟ إنني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى، و كثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة إنجلترا و بكل من له حق في مصر، فعلى الإنجليز كما نصحن مراراً أن يصونوا بلادهم، و يحفظوا طريق الهند بتفويض الأمر للعثمانيين، و أولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت، و إلى الله ترجع الأمور.

### الدولة العثمانية

قالت جريدة (الميموريال دبلوماسيك) إنه لم يؤخذ عن الباب العالي خبر إلى الآن عن المنشور الذي عزم على إرساله للمصريين، إلا أنه محرر تام و فيه أن الدول ستدعى إلى المداولة التي قطعها إطلاق المدافع على الإسكندرية «المؤتمر» ولن يعدل الباب العالي عن نشره إلا إذا قبلت إنجلترا أن تكون مخابرتها معه في تسوية المسائل السودانية المصرية بطريقة جدية «لا هزلية». ولم نزدد يقيناً بما ذكرته هذه الجريدة في أن الدولة العثمانية لا تتساهل في حقوقها على مصر وأنها تبذل ما في وسعها للمدافعة عنها، وكانت لنا ثقة تامة بعزائم العثمانيين و أنهم لا بد أن يقدموا لصون بلادهم المصرية من استبداد غيرهم فيها.

و لهذا تجزم بأنه لا يروق للدولة العثمانية ما ذكرته جريدة «الدليي تلغراف» من أن المستر جلادستون سيهجر عن قريب بحماية حكومته للأقطار المصرية، و أنه سيخابر الدول في تحديد أمد الحماية و لا يكون أقل من خمس سنوات، و في أمله أن الدول لا تمانعه فيما يريد الاتفاق معها عليه في هذا الشأن، بل تعتبره حقاً قانونياً أوجبه بذل الأموال الإنجليزية و إراقة الدماء البريطانية.

و فصلت هذا الخبر بعض الجرائد الفرنسية و بوبته و أشارت إلى ما أجابت به بعض الدول.

فليس مما يخطر ببالنا أن الدولة العثمانية توافق على ما تطلب إنجلترا لو فرضنا أن الدول سمحت للإنجليز بحمايتهم لمصر مدة محدودة أو غير محدودة، فإن الحوادث لا تؤمن و تقلبات الأيام لا ثقة بها، فيمكن في خمس سنوات بل في أقل منها أن تتبدل القواعد السياسية، بل ينقلب وجه السياسة انقلاباً لا يعرف، و السياسيون لهم في كل حادث علة لمحو المعاهدات و تأويل الوثائق.

### إنجلترا في سواحل البحر الأحمر

وقع ما أنبات به الجرائد الإنجليزية من بضعة أيام، فإن الجيوش البريطانية زحفت لملاقاة عثمان دجمة بعد أن قاست أليم العذاب من وهج الحر و لهيب الشمس، و أصيب منها عدد وافر بالوهن و الضعف، حتى عجزوا عن مداومة السير، و صابر بقية العسكر في زحفه و انتظموا على أشكال مربعات تشاكل ما انتظموا عليه في الموقعة الماضية، إلا أنهم لا يتلاقوا مع خصمهم، و أفاد التقرير الإنجليزي أن السبب في عدم الالتحام أنه وصلت العساكر إلى قرية ثمانية و لم تجد عنها مدافعاً فأحرقتها، و رجعت إلى سواكن و لا يخفى أن جميع أخبارهم قبل هذا الزحف كانت متفقة على أن عثمان يبعد عن ثمانية بتسعة أميال، و أن مسيرهم هذا كان لملاقاته حيث يعتصم فلم يكن هناك داع لحرق قرية ثمانية ولا الإخبار بأنه لم يوجد مدافع عنها إلا ما تعود عليه الإنجليز في حروبهم إذا لم يصادفوا ظفراً يحرقون و يخربون و إن لم يكن من يصيبونه بأعمالهم محارباً لهم حتى يقولوا ظفرنا و أحرقنا و أتلفنا، و ورد إلى الجرائد الفرنسية أن تقهقر عثمان إنما كان ليحشرهم بين شعاب الجبال ثم يغير عليهم و يفتك بهم كما فعل رئيسه (محمد أحمد) بعساكر الجنرال هكس. و يظهر أنهم لما أحسوا بهذه المكيدة و وجدوا من أنفسهم ضعفاً عن مقاومة العرب في جبالهم كروا راجعين إلى سواكن و محتجين بشدة الحر سترًا للعجز و تقديمًا لبارد العذر، و الجرائد الإنجليزية في قلق و اضطراب شديد، و لهج أغلبها يحث حكومتها على استدعاء العساكر من سواحل البحر الأحمر، متعللة بأنها و إن كانت من حامية الهند و لها جلد على احتمال الحرارة، إلا أن أثر الحر السوداني ظهر فيها بسرعة شديدة و يخشى عليها من التلف الكلي، و أخرى أن يخاف على سواها ممن لم يفارقوا إنجلترا إلا لحرب السودان. و يغلب على الظن أنهم شعروا بقوة محمد أحمد و ثبات عثمان و التهاب الحمية في قلوب المسلمين بتلك الأطراف، فاستفزعهم ذلك إلى إخلاء وجوههم و خوفًا من أن يحل بجيوش السودان الشرقي ما حل بعساكر الجنرال هكس و تستروا بالشكوى من شدة الحر و احتدام نار القيظ، مع أن وهج الحرارة في

جنوب الهند، حيث كانت تحل هذه العساكر كما ذكرته جرائدهم أشد منه في سواحل البحر الأحمر.

و ما قاله الجنرال جراهام و الأميرال هفت أن الحركات العسكرية قد انتهت على شطوط البحر الأحمر، يثبت اعتراف هذين القائدين بعجزهما عن فتح الطريق ما بين البحر الأحمر و بربر، و مساعدة چوردون من هذا الطريق. و بناء على ما أبديناه من البأس صدرت الأوامر إلى الجنرال جراهام بإخلاء المواقع الحربية و إجلاء العساكر عنها الخروج من سواكن بما يمكنه من السرعة و أعقب الأمر اجتماع العساكر بأسرها في تلك المدينة و يقال إن فرقة منها تسافر في التاسع و العشرين من مارس إلى مصر و إنجلترا. و هذا الأمر لا ريب يعده أشياع محمد أحمد و المدعون لدعوته فتحًا إلهيا و تأييدًا ربانيا، فيقوي اعتقاد المخلصين له و يقطع شكوك المترددين في قبول دعواه، و لربما يذهب الوهم بالسذج منهم إلى أن الله أيدهم بالملائكة المسومين، فكشفوا عنهم عدوهم و بعد هذا تجتمع كلمة القبائل و تثبت أقدامهم في مواقف القتال و يزداد حرصهم على تعميم دعوى محمد أحمد، و مغالبة من لم يدعن لها و يكون هذا الظفر الغريب أقوى برهان لهم على صدق دعواهم.

هذا ما أدت إليه سياسة الدولة الإنجليزية التي وطئت بأقدامها أرض مصر لإخماد الفتن لم تجلب مداخلها إلا تعالي اللهب و قوة الضرام، و بعد ما أسقط في يديها و خابت في سياستها تجافت عن تسليم الأمر لأربابه القادرين على تلافيه من المسلمين، حتى يحصل الأمن للأجانب و الوطنيين، و تحقن الدماء و تحفظ الأموال، و عمدت إلى الاستنجاد بحكومة الحبش لحرب السودان، و لم يأخذها خجل في ذلك و هي تدعي أنها حاملة لواء التمدن و القائمة بنصرة الإنسانية و تتلوا آيات الإنجيل أثناء الليل و أطراف النهار، ثم تستدعى حكومة خشنة غير مهذبة كحكومة الحبش لمقاتلة قوم آخرين و إن كانوا ليس بأقل منهم خشونة لتشتبك حرب بربرية تحرق فيها المدن و القرى، و تسفك الدماء الغزيرة و يفتك فيها بالأولاد و النساء و الشيوخ و من لا جريمة لهم حتى يفنى بعضهم بعضًا، و لم تبال في التماس



هذه المساعدة أن تصرح للحكومة الحبشية أن الغرض منها كبح المسلمين في السودان وإضعاف قوتهم لتثير بذلك حرباً دينية تذكر العالم بالحروب الصليبية. فقد جاءت الأخبار إلى الجرائد الفرنسية: إن دولة إنجلترا تلتمس من يوحنا ملك الحبشة أن يمدّها بجيوش للدفاع عن سواحل البحر الأحمر لعجزها عن حمايتها بنفسها و إطفاء ثورة المسلمين وإخضاعهم و بعثت إليه قائد أسطولها ليتفق معه على شروط هذه المساعدة و ما يغنمه بعد القيام بها، و في جريدة (الميموريال دبلوماتيك) أن من جملة ما تطلبه إنجلترا من الحبش فضلاً عن الإنجاد الحربي أن يتخلى لها عن جزيرتين في البحر الأحمر لتحل فيها بعضاً من عساكرها و له من العوض ما يكافئ الأمرين جميعاً.

يريد محبنا الصادق أن يقدم للحبش جزاءً من أراضيها مكافأة على ما يريد منه، و لم يغفل عن مراعاة المربحة التجارية حسب عادته ترغب إلى الحبش أن يتنازل له عن أملاك في البحر الأحمر، فليعتبر المعتبرون.

### عودة إلى الخرطوم

نوهنا مراراً للمسلمين عموماً، و المصريين خصوصاً، من الانقباض عن حرب إخوانهم و إراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم في الجنس و الاعتقاد و إراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم في الجنس و الاعتقاد لا يعلمون لها عاقبة، و لا يدرون من يجتني ثمرتها، بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين، ربما كانوا أعداءهم أو يكونون أعداءهم، و لهذا لهم يأخذنا عجب من خذلانهم لهكس في السودان الغربي و لا لباكر في السودان الشرقي و لا مما بلغنا في هذه الأيام من خذلان چوردون في الخرطوم، و لم يتخلج في صدرنا و لا في خطرات أنفسنا أن انهزامهم في هذه المواقع منشؤه الجبن و الخور أو الاختلال و النقص في الآداب العسكرية، ولكن نعلم أنهم يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم و ديارهم

غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب. أما الجرائد الإنجليزية و وقواد الإنجليز فهم يبالغون في جبن العساكر المصرية و اختلالها ليتطرقوا بذلك إلى ما في عزم حكومتهم من طرد الجيش المصري الوطني و إقامة جيش إنجليزي مقامه، حتى يتمكنوا بجيشهم أن ينالوا ما تطمح إليه أنظارهم في المستقبل.

و من هنا لا يستغرب عارف بحقيقة الأمر ما ذكره مراسل التايمس في الخرطوم من أن چوردون باشا عندما اشتد عليه الحصر من أشياع محمد أحمد خرج بألفي جندي من الجنود المصرية و بعض العساكر غير المنظمة (الباشبوزق) ليفرق المحاصرين و يبعدهم عن أبواب المدينة فلم تثبت الجنود لأول الملاقاة و انحاز منهم خمسة ضباط إلى قبائل العرب و عمد اثنان من أمرائهم (بشاوات) إلى قتل من كان على المدافع منهم ليطلقها على إخوانهم التابعين لمحمد أحمد، و يقال إن چوردون قبض على الأميرين و وضعها تحت المحاكمة العسكرية، و آخر الأمر اضطر چوردون إلى الدخول وراء الحصون بعد أن تبدد جيشه و قتل منه مائتان على ما روي، و لم يقتل من الثائرين إلا أربعة و غنم العرب من ذخائر جيش چوردون مقداراً وافراً، مع أن المهاجمين منهم كانوا فئة قليلة لا سلاح لهم إلا الرماح والحراب، و جيش چوردون كان ألفي رجل شاكي السلاح من الطرز الأوروبي الجديد.

هذا يكون من المصريين لأنهم تحت قيادة أجنبي يأمرهم بأوامر دولة أجنبية، و لو كانوا في إمرة أمير مسلم مصري و لهم ثقة بعاقبة ظفرهم أن تكون لبلادهم و ملتهم، لرأينا منهم ما رأى العالم و شهد به الكون لهم من الشجاعة و الإقدام أيام محمد علي و إبراهيم باشا.

و بالجملة فقد أرجع چوردون بعد تغلب الثائرين حاميته إلى مأمنه في الخرطوم يوم السادس عشر من شهر مارس (الماضي) و يقول مراسل التايمس إنه يمكنه التمتع في الحصون بعض أيام إلا أنه لم يجرؤ على الخروج مرة ثانية.

\*\*\*

الجرائد الإنجليزية تحكي ما هال أهل بريطانيا من مصيبة چوردون و تنذر بخطر

عظيم يحل به. و في جريدة «الديلي تلغراف» أن هلاك چوردون أو وقوعه في أسر محمد أحمد يذهب بالأعمال الحربية التي قامت بها تلك العساكر الإنجليزية في السودان، و يجعلها هباء كأن لم تكن، و يزيل أثر تلك المواقع الدموية فتكون نسيًا منسياً، و قالت جريدة «الستاندرد»: ليس من الممكن لنا أن نتأخر دقيقة واحدة إلا إذا أردنا أن نلقي بچوردون إلى هاوية الهلاك و بالسودان إلى الفوضى (نعم لا بد أن يخافوا على السودان من الفوضى كما خافوا على مصر منها). و في التايمس لا بد لإنجلترا أن تظهر عزميتها في الأحوال الحاضرة و تأخذ في عملها بالشدة حتى يعلم ذلك منها عند الكافة من الإنجليز، و من آمالها أن الأمة الإنجليزية تؤيد الحكومة فيما تعزم عليه و أنه لا سبيل لإنقاذ چوردون إلا تصميم الحكومة الإنجليزية على ما تريد، (و لم تفصح التايمس عن تلك العزيمة ما هي و لا ما تصمم عليه الحكومة ما هو لعل كل ذلك هو هذا. لا بد أن نفعل و لا بد أن نترك و لا بد أن نكون و لا بد أن لا نكون). قالت جريدة التان الفرنسية إن هذا الخطب الجديد أحدث من القلق في إنجلترا ما لا مزيد عليه، و عموم الناس فيها يعتقدون أنه إن لم ترسل الحكومة جنودًا لإنقاذ چوردون فهو هالك لا محالة، و جميعهم يعلمون مقدار التبعة التي تحملها الوزارة (الإنجليزية) إذا مات أو أسر چوردون فإنها هي التي ألقت به في هذه التهلكة، و الجرائد عمومًا على اختلاف مشاربها متفقة على القول بأن موت چوردون باشا يكون وصمة في شرف إنجلترا لا تمحوها الأيام.

إن وزير الحربية الإنجليزية يحاور سائليه من الحزب المضاد في مجلس النواب و يراوغهم في الجواب و يتعلل بأن الحكومة لم تعد المجلس وعدًا صريحًا بأن تبين مقاصدها في السياسة المصرية، و يزعم أنه لا يمكن أن يفيد بتفاصيل عن أحوال الخرطوم لانقطاع الأخبار، لكنه يعترف بهزيمة الجنرال چوردون و بما هو فيه من الشدة و الضيق، إلا أن اللورد نور ثورك لم يزل مصرًا على طلبه من الحكومة بيان سياستها في المسائل المصرية و السودانية بالتفصيل، و قال للورد جرانفيل في مجلس اللوردات إنه لا يرى من السهل في هذه الأوقات أن تفتح الطريق بين سواكن

و بربر، و خطأ القائلين بسهولة و أفاد المجلس بالفشل الذي حل بالجنرال چوردون.

### أمانى إنجلترا في حركات محمد أحمد

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأن المقاومة الشديدة التي لا قوها من قبائل العرب و رئيسهم عثمان في سواحل البحر الأحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد أحمد في البلاد السودانية، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات و الترامي على الموت عدوانهم للإنجليز و لا طمعهم في توسيع الفتوح، و إنما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد أحمد في السودان خاصة.

و هذا من اللورد إما غفلة أو تغفل عن لواحق دعوى المهدوية، بل لوازمها التي لا تنفك عنها، فإن القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية، و لا يقنع بملك و إنما يريد بسط دعوته في أقطار العالم و إحياء الأوامر الإلهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها و صيانتها في نفوس الناس كافة، و سواء كان صادقاً في دعواه أو كاذباً، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الارض السودان كانت أو مصر أو غيرها من البلدان إلا بتقدمه إلى ما ورائها حتى يعلي كلمة دينه، و يرد إلى الحق من انحرف عنه، و يكون له التصرف التام في قلوب المسلمين، و يأخذ منها مكاناً عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الأمم، و سواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده، هذا لا كلام لنا فيه الآن، ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة، و بعد الوقوف على ما بينا يسقط من النظر قول اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات أن حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول إمارة كرودفان و الاكتفاء بها، و لا يعلم هل قبول محمد أحمد لتلك الولاية يكون حجاباً بينه و بين التقدم إلى سواء. فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك، و لا طلب حقاله في الإمارة كان يرثه عن آبائه، و إنما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السطوة الإسلامية،

فليس يكافئ قوة دعوة إسلامية إلا عزم إسلامي، ولن يكافح هذا المدعي و يردده إلى قدره إلا رجال مسلمون، يدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها، فإن لم يرد لحكومة اللورد خبر إلى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل، ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيص ما توهمه، نسأل الله حسن العاقبة.

بعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبار مصدقة لما قلنا ففي برقية من مكاتب التايمس في الخرطوم أن ثلاثة دراويش جاءوا مرسلين من قبل محمد أحمد إلى الجنرال چوردون و أرجعوا إليه علامات الشرف التي كان بعث بها إلى مرسلهم، و بلغوه أن محمد أحمد يرفض لقب أمير كوردفان و ينصح الجنرال أن يدخل في دين الإسلام فهو خير له.

### الحزم و العزم

إن أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا إلى قصد لا يفترون في طلبه، و علو الهمم فيهم تجعل لديهم كل صعب سهلاً، و كل بعيد قريباً، يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف و يتجشمون المصاعب للوصول إليه و بلغوا من محبة المجد حدا لا يروونه غداء لأرواحهم فقط، بل عدوه مادة النماء لأبدانهم فهم يفرقون خوفاً إذا عرض و هم لفواته، خشية من هلاكهم و ذهاب حياتهم، لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافي إفريقيا، و يتسنى جبال سيبريا، و يخالط قبائل و شعوباً لا يعرف لهم لغة، و لا يألف لهم عادة و لا أخلاقاً، و يتكبد مشاق الحروالبرد والجوع والعطش، و ينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم، و هو في كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل، كل هذا ما يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته.

و من هؤلاء الرجال بل من أحزمهم و أجملهم صديقنا الهمام البطل الشهير المستر أوكلي أحد نواب البر لمان الأيرلنديين، جاء إلينا من أشهر على عزيمة السفر إلى عبيد، و سألنا أن نقدم له ما يسهل له الوصول مع الأمن على حياته، فأجبناه بتحرير

رقائم إلى من لهم اليد الطولى في مساعدته، و وردت منه المكاتيب تبشرنا بنوال مبتغاه، و في هذه الأيام جاءتنا برقيات بوصوله و منهم رجال من عظماء الفرنسيين الأحرار ذهبوا إلى مثل مقصده و توسلوا بمثل وسائله و هم اليوم يتوسطون الطريق. و نرجو لهم سلامة الوصول.

و رجأؤنا أن يكون في هؤلاء أسوة للشرقيين، لا تقعدهم الأوهام الباطلة، و لا تنيمهم الأحكام الكاذبة، و لقد كان لهم في أسلافهم أسوة حسنة، ولكن من الأسف نحتاج في تذكيرهم بما لهم من سابق المجد إلى ذكر أحوال الحاضرين من غيرهم. والله الأمر من قبل و من بعد.

### أسطورة

ذكروا في أساطير الأولين أن هيكلًا عظيمًا كان خارج مدينة إصطخر و ربما آوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام و ما آوى إليه أحد إلا غالته المنية فيأتي طلاب أثره لفحص خبره فيدخلون الهيكل في ضوء النهار فيجدون به ميتًا ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سببًا للموت، واشتهر أمر الهيكل بين السابلة و القطان و أخذ كل قاصد حذره من المبيت به حتى ضاقت الدنيا برجل، فاختر الموت على الحياة و صعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته فإذا بالقرب منه رجال نصحوه و حذروه عاقبة الهلاك فلم يصغ إليهم و قال إنما أتيت لتلك العاقبة، و انفلت من نصحاءه إلى حيث يظن مهلكه، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جمعًا عظيمًا يخاطبه: ها نحن قد أتينا لإتلافك، ها نحن قد أتينا لإزهاق روحك، ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك و سحق عظامك. فصاح البائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة، و لم يتم كلامه إلا و قد حدثت فرقة شديدة و انحل الطلسم و انشق الجدار و تناثرت منه الدراهم و الدنانير و تفتحت أبواب الكنوز، فاطمأن الخائف و نام حتى أصبح و لما أضحى النهار، و جاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته و جدوه فرحًا مستبشرين يسألهم بعض الأوعية

لحمل ما وجده من الذهب و الفضة، فاستخبروه قصته .. فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها.

بريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوي إليه المغرورون إذا أوحشت مظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام، وكم هلك بين جدرانها من لا مريرة لهم، ولا ثبات لجأشهم، و أخشى أن يسوق اليأس إليه قوي المريرة، ضاقت الحياة، فما يكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس، فينقض الجدار، و ينحل الطلسم الأعظم.

### القوة للحق

أخذت دولة بريطانيا في معاملة الشرقيين لهذه الأيام طريقاً غير طريقها المعروف، و هي تعلم أن نجاحها في أعمالها لديهم، و بسطة ملكها فيهم واقتطاف ثمرات جنانهم، إنما كان بذاك الطريق المعهود، كأنني أراها اليوم اكتنعت حقائقهم، و سبرت خلائقهم، و وصلت إلى مكنونات صدورهم، تجاوزت من ظواهرهم إلى ضمائرهم، و أدلت بخراطينها إلى قلوبهم، فأحست سكوئاً، فحسبته يبساً، من شدة الجبن و سرت بدقتها في أوعية دمائهم، فشعرت منها بفتور ظنته وقوفاً من شدة الضعف فكان من حسبانها أنهم في نهاية العجز عن أعمالهم، و القيام بشئونهم، أو أنست منهم الركون إلى المراتب التي نقلت عن معانيها الأصلية، و جردت عن مدلولاتها: كناظر، و وزير، و وال، و أمير. و هي أشبه بقباب عالية، إلا أنها خاوية خالية، فكان من زعمها أن أمراء الشرق شغلهم بهرجة هذه الصور الظاهرية حتى أنستهم منافعهم الحقيقية. و ضرورات حياتهم الجنسية أو الملية، و قنعوا بما يشيده الوهم و يزينه الخيال. هكذا ظنت كما تدل عليه أعمالها، و لم يكن ذلك معهوداً منها.

دخلت دولة الإنجليز بلاد الهنديين و مدت عينها إلى ما متعهم الله به من أراضيهم، و طمحت إلى اختطافها من أيدي المسلمين، إلا أنها ذهبت مذهب اللين و اللطف، و خفض جناح الذل، و الظهور في ألبسة الخضوع و الخشية، و صابرت على هذا السير أزماناً تقطع مسافات كثيرة في مدة طويلة.

نعم كانت تتدرج في نقص أساس السلطنة التيمورية حجراً حجراً، و تتملك أراضيها قطعة بعد قطعة، لكن بدون تعرض للسلطنة الظاهرية و لا مس لنفوذها. كانت تغري الولاة من النوابيين و الرجوات بالخروج على السلطان التيموري، ثم تنوب عنه بالعساكر الإنجليزية و الصينية للتغلب على الخارجين تحت اسم الملك، و لا تمس رسومه الملوكية بل تلقب نفسها خادمة مأمورة. هكذا كان سيرها، و هو المؤلف من عوائدها.

أما في مصر فقد أظهرت مقاصدها لأول خطوة، باكورة أعمالها بعد دخول تلك البلاد غلّ أيدي الحكومة، و معارضتها في جميع أعمالها و صدها عن تعاطي شئونها، و ربما كان يخيّل للناظر في حركات تلك الدولة أيام كانت تهيب، أسباب الفتنة السابقة و مساعيها لتقوية ثورة السودان، أنها تسلك سبيلها في الهند، ولكن يرى منعها السلطان العثماني عن المداخلة في إصلاح بلاده المصرية و السودانية. مع ما له فيها من الحقوق الشرعية و القانونية منعاً صريحاً، و في معارضة ولاة مصر و حكامها في كليات الأمور و جزئياتها أنها انحرفت عن مشربها و أخذت مذهباً غير مذهبها.

كليفور لويد مستشار الداخلية في مصر و هو بحكم وظيفته من الطبقة الوسطى في مأموري الحكومة يتحكم على جميع الوزراء المصريين، و يعارضهم في تصرفهم و يضع للبلاد شرائع و قوانين من تلقاء نفسه، و يخالف توفيق باشا في أوامره (إلا أنه لا يحسب عاصياً حتى ألجأوا نوبار باشا رئيس النظار<sup>(١)</sup> إلى تقديم استعفائه بعد العجز عن مقاومته)، و ضاق صدر توفيق باشا من صلابته في آرائه، و لم تر الحكومة الإنجليزية عزله و إبداله بغيره، و زعمت أنها لو عزلته لأهانت تاج بريطانيا العظمى، ثم عالجت هذه الارتباك بتوجيه أوامرها إلى كليفور لويد بأن يقف عند حدود وظيفته و لا يتجاوز دائرة أعماله، التي تسمح له بها طبيعة الوظيفة و خصائصها

---

١. رئيس الوزراء.



المحدودة، و كان للظنون مجال لحسن الظن بدولة بريطانيا، غير أن جريدة التايمس كشفت القناع، و لم تبال بما يחדش خواطر الأمراء الشرقيين ازدراءً و امتهاناً، و مزّقت الستار الذي أقامته حكومتها حجاباً لمقصدها في إلزام كليفورلويد بما ألزمته فقالت: إن وزارة نوبار باشا مؤلفة من دميّ (صور و تماثيل) نظمت في أسلاك أطرافها بيد الحكومة الإنجليزية تحركها كيفما شاءت. فعلى كليفور لويد أن يدير الشئون المصرية بواسطة هذه الألاعيب. تريد أن الحل و العقد في جميع الأحوال إنما هو للوزارة الإنجليزية لكن من وراء الحجاب .. ثم اعترضت هذه الجريدة على إقامة هذه الحجاب فقالت: إنه و أن كان مفيداً إلا أنّه يضرّ بمصالح إنجلترا و مصر معاً (و كان على الحكومة الإنجليزية أن تجهر بولاية الأحكام في مصر كما صرحت بذلك مراراً).

أسرعت دولة إنجلترا في سيرها إلى ما تروم في الأقطار المصرية، بل تهورت على خلاف عادتها و قد يكون مع المستعجل الزلل. لا نظن من الحكمة ما أتته من الأعمال في مصر وربما وجب عليها تدارك ما فرط منها. إن محمد احمد شمع أمره و عظم خطره و هو من ورائها لا عائق له في سيره. و القوى تجتمع إليه يوماً بعد يوم. و بعد ما تراه في غير هذا المحل من أخباره جاءت أواخر الأخبار بأن المواصلات انقطعت بين القاهرة و بين بربر بالمرّة، و أن جماهير الثائرين يزيد عددهم حول مدينة بربر وقتاً بعد وقت لقصد محاصرتها. و يغلب على ظن الكافة أنهم لا بد أن يغيروا على المدينة بعد قليل و يلتحمون مع حاميتها بموقعة يكون فيها الفصل، و أن مدير بربر أعياء الإلحاح على الحكومة لتنجده بعساكر إنجليزية ليفرجوا عن المدينة و ينقذوا حاميتها و إلا هلكوا.

فما ركبته إنجلترا من طريق التصرف في الإدارات المصرية يخلف ظن المصريين فيها و يقطع أملهم من وفاء و عودها، و يوجد عليها نفوس الأمراء منهم و يوغر صدورهم، و يحقق لدى العلماء أن من قصدها التصرف في ولاية بلادهم كما يتصرف الملاك فيلتنجون بحكم الضرورة إلى تلبية محمد أحمد في دعوته أو

مساعدته على بعض أعماله، أو تخاذلهم بين يديه وفتح الأبواب له و لا نظن أن إنجلترا تخفي عليها أن علماء مصر هم أساتذة لعلماء المسلمين شرقاً و غرباً، و أن الجامع الأزهر معهد العلوم الشرعية تسير إليه الركاب من جميع الأقطار، و يقصده المسلمون من كل ناحية لدراسة الدين وروايته. فلو حذبهم الأمر وأعوزهم الصبر ورأو ولاية الدين في قبضة من ليس منهم فبمجرد إشارة خفيفة و إيماء إلى موافقة محمد أحمد سرا كان أو جهراً كاف لإيقاد نار الفتنة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية، و تسابق القلوب إلى الاعتقاد بالمدعي و التفاني تحت رايته، و ليس في استطاعة دولة إنجلترا أن تتصرف في أهواء القلوب و لا حركات الأفكار، و إن أسلحتها الجديدة لا تبدد جحافل الخواطر، و شتان بين هذه الفتنة و بين التي يسمونها فتنة عراقية. نسأل الله العافية و حسن العاقبة.

### الجرائد الإنجليزية و العروة الوثقى

لو نادينا الغافلين أن انتبهوا، و النائمين أن استيقظوا، و اللاهين بحظوظهم أو أمانيتهم أو أوهمهم أن التفتوا، و لو أنذرنا أهل مصر بأن الإنجليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم، و خطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم، و لما عساه يخطر ببالهم. لقال الناس إننا نبالغ في الإنذار، و نغرق في التحذير. و لو بينا لهم أن الإنجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء، و الأحفاد بجرائم الأجداد، و يطالبون الذراري بدفائن أسلافهم، و إن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف، لعدوا هذا البيان منا شطاً في المقال، و ميلاً عن الاعتدال، و لو رويناهم أن في قلوب الإنجليز حقداً و ضغينة على كل إيراني سواء كان من الأفراد أو الوجوه. و يسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند، و يمتقونهم مقتاً شديداً، لأن نادرشاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحاً على عهد السلطنة التيمورية، و استولى على خزائن الأموال في دلهي، و أخذها إلى بلاده قبل استيلاء الإنجليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن، و يعضون الأنامل من الغيظ، و يحرقون الأرم من الاسف على ما

أخذه نادر من أموال دلهي وحرمانهم من تلك الأموال، ويحملوا هذا الوزر على عاتق كل إيراني، لحسبوا ذلك منّا تعالياً ولو قصصنا عليهم مايعامل به الانجليز رعايهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً، وانه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين الى جزائر أندومان أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن، لأنكروا علينا ما نقول لبعدهم عن تلك الأقطار، و عدم وقوفهم على أحوالها، و لسنا الآن بصدد إقناع المصريين بما نعلم من أحوال الإنجليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام سلطتهم، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقصّ، ولكن نعرض عليهم نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكي ما غيب عنهم من لوازم السلطة الإنجليزية.

عزّمتنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بعض محرري الجرائد الفرنسية، فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الإنجليز، ونفوذها في البلاد الشرقية، ولجوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية، بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي، مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لإثارة الخواطر ولا لإيقاد الفتن، وإنما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً، و تنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم. ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل. كما يظهر لكل من اطلع عليها، فليعتبر المعتبرون بهذا الإجحاف والاعتداء والقصاص قبل الجناية، ومن كان سمندري الطبع فليهنأ له العيش في ظل ذي ثلاث شعب لا ضليل ولا يُغني عن اللهب ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بثّ أفكارنا في البلاد الشرقية، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى، إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق

كثيرون.

### عجز و مراوغة

طننت الجرائد الإنجليزية ورجال السياسة في بريطانيا بنجاح الجنرال چوردون في مأموريته بعد ما وصل الخرطوم بأيام ثم انعكس الأمر عليها و أظهرت الجزع مما حل به من الخيبة في أعماله و الإشفاق و الارتجاف مما يتوقع نزوله من الخطر و أجمعت على أن ما يصيب چوردون من قتل أو أسر يكون وصمة في شرف إنجلترا إلى الأبد و عارًا عليها لا يمحي، و لا مداركة لهذا الخطب العظيم إلا بإرسال العساكر الإنجليزية إلى الخرطوم إلا أنه في هذه الأيام بعد العجز عن إرسال العساكر لم يعد لوزراء إنجلترا أو رجال حكومتها عذراً للتملص من هذا العار الذي يلحق بهم فقال المسيو جلاستون وزير الحربية الإنجليزية أن الجنرال چوردون لم يؤمر بالإقامة في الخرطوم إلى أجل غير محدود حتى يحتاج نجدة عسكرية تخلصه مما عساه يقع فيه، بل كان فيما أمر به أن يخرج من المدينة عندما يرى لزومًا لذلك. على أن الجنرال لم يطلب إعانة عسكرية فالوزارة الإنجليزية لا تتحمل تبعة ما نزل بچوردون إلا بعد أن تقف على أفكاره و مطامح أنظاره. و لا وقوف لها إلى الآن على شيء منها، و الأوامر التي أصدرتها إليه في الأيام الأخيرة لم يرد لها خبر عن وصولها.

و من كلام وزير الحربية أن الحكومة الإنجليزية تدبرت من أيام في إرسال فرقة عسكرية إلى بربر و بعد إمعان النظر في لزوم ذلك رأت عدم الإرسال أولى و أنهى كلامه بقوله إن حكومته لم تأخذ على نفسها إعادة السلطة المصرية في السودان، و لا تقرير أي حكومة فيها و إنها تلقي اليوم على نفسها كل تبعة توجه إليها في شئون السودان، و أما سواكن فسيقام بها حامية قليلة العدد إلى أن يبرم اتفاق (بينهم و بين مصر). و كلام هؤلاء الوزراء قد لا يخلو من غرابة، فإن منشورات چوردون التي نشرها بعد دخوله الخرطوم على قبائل العربان و رسالته إلى المهدي لم تنكرها الحكومة الإنجليزية بل دافعت عنها و دفعت الاعتراضات التي وجهت إليها، و كان فيها أنه

وال على السودان (بل سلطان) من قبل دولته و الحكومة المصرية، و أنه بما له من حق الولاية يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان، و يبيع الرقيق، و يدعو العرب إلى الطاعة، فتلك المنشورات صريحة في أن بعثته كانت لإقرار حكومة في السودان، و المدافعة عن بعض الولايات فيه، و أنه فيما يعمل مؤتمر لحكومته، و إلا كان كاذباً و الحكومة دافعت عن كذبه رجاء أن ينجح فيه، فلما أخفق لم تجد بدا من البراءة منه.

و قالت جريدة الثان الفرنسية إن وزير الحربية الإنجليزية يدعي في مجلس العموم أن الجنرال چوردون لم يطلب نجدة عسكرية إلى الخرطوم، مع أن الأخبار التي وردت إلى جريدة التايمس من مصدر يكاد يكون رسمياً و نشرناها من قبل تكذب ما قاله الوزير. و تؤكد أن والي الخرطوم (الجنرال) كان منتظراً ورود العساكر الإنجليزية إليه وقتاً بعد وقت و تحققت حاجته لذلك عند الكافة من أهالي لندن، حتى كان تدبر الحكومة في إرسال فرقة إلى بربر، مبنيًا على هذا لتفتح طريق مصر العليا، لكن أقعدها تصور ما تكابده الجنود من المشاق و المتاعب، بل ما يحل بها من التلف، و قد عرضت جريدة (البال مال جازيت) بالطعن على حكومة إنجلترا و لوححت بلومها على ما أظهرته من العجز و المراوغة حيث قالت: فليعلم الجنرال چوردون أن الحكومة الإنجليزية بعد إضرابها عن إرسال العساكر إلى بربر يستحيل عليها أن ترسل عساكر إلى الخرطوم، و قالت إن المسيو پوير قنصل الإنجليز في الخرطوم كان ينتظر المدد العسكري يوماً بعد يوم و في ظنه أن حكومته تسعفه بذلك لكنه يجب عليه الآن أن يعلم أنها تركته و أصحابه و وكلتهم إلى أنفسهم فعليه أن يتدبر في أمره بنفسه موقناً أن الحكومة الإنجليزية تفضل إخلاء السودان و تعريض حامية المدن و من فيها من رجالها لمدى أشياع محمد أحمد تفتك بهم على أعداد أي وسيلة لنقاذهم، و أتبع قولها هذا بتهمك على الوزراء فقالت: من زعم أن إرسال چوردون إلى السودان لم يأت بفائدة فقد أخطأ خطأ عظيمًا، فإن أعظم فائدة ترتبت عليه بقاء الوزارة الإنجليزية و صيانتها من السقوط، فإن حياتها كانت موقوفة على سفره من لندن و لولاه ما خلصت من الخطر الذي كان محدقاً بها و لما بقيت في

قيد الحياة إلى الآن. و أنعم بها من فائدة جلييلة لمصر و إنجلترا فكفى الأمتين سعادة أن تهدر شقاشق الوزارة فوق المنابر.

هكذا تتعج المستر جلاستون و زملاؤه في الكلام على المسألة السودانية و سلكوا طريق المواردية و تبرءوا من تبعاتها بعد ما ساقوا إليها الجيوش و القواد بقصد إخماد الثورة و تقرير الراحة و هو قرار سياسي تبع الانهزام العسكري يكشف لنا عن قوة محمد أحمد و منعته و يأس الدولة البريطانية عن ملافاة أمره و أن نيتها الاقتصار على التحصن فيما دون حدود مصر الطبيعية بل على الحلول في مصر السفلى حتى تحفظ القنال، و تتصرف في أراضيها الخصبة، و تقف على أبواب التجارة، ترقب حركات المارة، و تشيخ الداهيين و الأيبين ما بين الشرق و الغرب، و تقتنع بالتحكم في بعض الضعفاء من المصريين، و إنا لا نعلم ماذا تكون العاقبة إذا أصبح السودان بأسره في حوزة محمد أحمد و اعتصم في قاعدة تلك الأقطار الشاسعة، و لا عاصم له إلا بالإيغال في سيره و بثّ دعوته بين جميع القبائل العربية، بما يستطيع من الحيل أو القوة. أفلا ينتهي بعد هذا إلى سوق جيوشه الكثيفة إلى حدود مصر العليا؟! ربما، بل يغلب على الظن أنه يفعل ذلك، فإن لم يفعل فهي شعلة الثورة تسري بطبعها و تضطره إلى اقتفاء أثرها.

جاءت الأخبار من أيام قطع النائرين لخطوط التلغراف بين أسوان و كورسكو، و أين كورسكو من أسوان؟! هي على مقربة منها و المسافة بينهما كما بين قنا و أسوان. و في أخبار أخرى أن للهيجان و التحرش للخروج أثراً ظاهراً في أطراف مصر العليا فإذا قدر الله و صارت حدود مصر العليا معاراً للحركات الحربية و هو مما لا تعدّه الحوادث فهل يبقى المصريون و قبائل العربان في الفيوم و البحرية و الشرقية و جميع أنحاء القطر المصري على سكونهم بعد ما رأوا من ضعف الإنجليز و عجزهم ما رأوا و بعد ما يشهدون سيلاً قويا مأؤه من مائهم ينصب إليهم، و بعد ما خرجت صدورهم و ضاقوا ذرعاً من تصرف الإنجليز في حكومتهم، يغلب على الظن أن مالههم من سرعة الاعتقاد بالظافر خصوصاً إن كان قائماً بدعوة دينية و ما ضاقت به

صدورهم من الاستبداد الإنجليزي و ما ذاقوه من آلام الفقر و الفاقة و الذل و الهوان من نحو سنتين و ما يتوقعونه من رزايا دينهم و دنياهم في المستقبل إذا رسخت قدم الإنجليز في مصر كل هذا يبعثهم على تقبل دعوة الداعي بقبول حسن و انحيازهم إليه.

إذا جاء هذا الوقت و هو ليس ببعيد فربما تجد إنجلترا في مصر أفغاناً أخري و تخشى من ظهور عجزها فتواري خلف بعض من الحيل و التعللات و تستدعي من المسلمين من يكون قوي الشكيمة شديد البأس، لتقرير السلم و تمكين الراحة، و تعود إلى جزائرها راضية من السلامة بالإياب، و لعل ذلك غير بعيد عن العقل، و إلى الله المآب.

### إنجلترا و الجيش

وردت الأخبار أن الأميرال هفت وصل إلى مصوع حاملاً هدايا ثمينة إلى ملك الحبشة و كنا في العدد السابق بينا ماذا يريد الأميرال من مواصلة الملك يوحنا، و أن الدولة الإنجليزية بعد ما فشلت عساكرها في سواحل البحر الأحمر و عجزت عن تجهيز جنود جديدة تسوقها إلى أواسط السودان، التجأت للاستنجاد بملك الحبشة و استمداد مساعدته على مسلمي السودان، و كان حسن ظننا بدولة متمدنة كدولة بريطانيا يمنعنا من التصديق بعزمها على إثارة حرب خشنة، لكن من الأسف أن الإفادات التي وردت هذا الأسبوع تؤكد أن إنجلترا عازمة على النكاية بالمسلمين في السودان، من حيث هم مسلمون لا لإطفاء ثورة، و لا لترويج مدنية، و في الظن أن هذا هو الذي بسط يدها بالهدايا الثمينة تتحف بها ملك الحبش، و إلا فخلائقها من حيث هي دولة تجارية لا تسمح لها بهذا السخاء، و تنهاها عن البذل إلا أن ينقذ لها الربح أضعافاً مضاعفة، أي ربح لها أعظم من توددها إلى دولة خشنة ترمي بها طائفة من المسلمين بغية الفتك و النكاية حتى تخيف بذلك بعض من تخشى بأسهم من أبناء ملتهم، على أن لا نزال في ريب من نجاح مسعاها و لو أنها نجحت في إقناع

ملك الحبشة بالتهور في حرب مع السودانين فما عساها تسمى هذه الحرب، لا نرتاب في أنها ليست لكسر شوكة التوحش و وضع قواعد المدنية، فإن أحد المتحاربين لا يمتاز عن الآخر في أخلاقه و عوائده و أفكاره، بل ربما كان السودانيون بما استفادوه من الحكومة المصرية مدة سنين أقرب إلى المدنية من الحبشيين، و لا يمكن أن تكون حرباً للفتح و توسيع الملك، فإن الحبشة لا مطمع لها في توسيع ممالكها إلى الجهات الغربية من السودان ولم يعهد لها ذلك في التاريخ، و غاية ما كانت تبتغيه أن تكون حدودها الطبيعية محفوظة من تعدي جيرانها عليها، فلا اسم لهذه إلا الحرب الدينية تذكر الملل بما كاد يمحى أثره من المحاربات الصليبية، و توقد في الأفتدة نار التعصب الديني، فلو فتحت دولة إنجلترا باب هذه الفتنة أفلا تحترق قلوب المصريين بهذه النار، و هل ترجو هذه الدولة من بعد ذلك أن يستقر لها قدم بينهم، و هل تأمن أن يثور سكان جزيرة العرب تحت هذا العلم الذي يظل ملايين كثيرة تعلم عددها و تحسّ بحاجتها إلى مسالمتها، نظن أن حكومة بريطانيا تسعى بتخبطها هذا إلى ما لا محيد لها عنه، و تجتهد في تقريب البعيد و ما كان أغناها عن هذا كله.

### رأي المستر بلونت في المسألة المصرية

#### (إنجليزي حرّ ينصف المصريين)

إن مستر بلونت الذي اشتهر بمحبة المسلمين و المدافعة عن المصريين، لما رأى ما وصلت إليه المسألة المصرية من الارتباك و اشتداد الخطب فيها على حكومة إنجلترا و صعوبة تدارك الخلل الذي عرض لها، تدبر في حل للمسألة و نشره في التايمس فأحببنا نشره في جريدتنا مجملاً و هو:

على الحكومة الإنجليزية أن تتفق مع سائر الدول على جعل البلاد المصرية مستقلة في إدارتها (يريد بذلك أن يكون حكامها منها لا من دولة أجنبية) و يكون الكافل لهذا الاستقلال جميع الدول بدون امتياز قوانين التصفية، و اختصاصات



الأجانب يجب تعديلها. كل مسألة يقع فيها اختلاف فلا يكون إنهاؤها إلا باتفاق الدول الأوروبية، تحكم فيها بما تشاء. لا ينبغي أن يكون في الجندية ضباط من الأجانب، و قنال السويس يلزم أن يعتبر طريقاً عاماً يشترك فيه جميع الأمم و يكون تحت رعاية الدول جميعاً. يجب أن تكون إدارة البلاد بيد حكومة يقيمها الأهالي بانتخابهم.

### بريطانيا تمسح ظهر توفيق باشا

قالوا إن زنجيا أسود، هائل المنظر، غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين أحمر الحدقتين، بشع الوجه، أفتس الأنف، منكر الصورة و كان يحمل ولداً في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد، و الولد كلما نظر إليه يفزع و يبكي و ينتحب و يصيح و يعول و كلما اشتد به الفزع مسح الزنجي ظهره و قال له: لا تخف يا ولدي فأني معك و أنيسك و حافظك من كل شر، و بعد تكرير هذه الملاحظات من الزنجي للصبي قال الصبي: يا سيدي إنما خوفي و فزعي منك لا من وحشة الظلام! هذا شأن حكومة إنجلترا مع المصريين، كلما اشتدت الخطوب و عظمت المصائب و زاد الخلل في البلاد المصرية، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا و وزرائه بيدها الناعمة (و إنما هي نعومة الثعبان) و أقبلت على الأهالي تمنيتهم بوعودها المروقة، و تقول لهم: لا تحزنوا فأني معكم و جميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهالي يجأرون و ينادون: إنما خوفنا و جزعنا منك، و راحتنا و اطمئناننا بتفحيك عنا و تركنا و شأننا.

### أضحوة

قال مستشار خارجية إنجلترا لبعض سائليه في مجلس البر لمان إن الجنرال چوردون عندما أجاب محمد أحمد على بلاغه الأخير لم يخاطبه بلقب سلطان كوردفان، بل عنون الجواب بلفظ شيخ، و بناء على هذا فقد صار لقب سلطان

كوردفان الذي منحه له الجنرال چوردون لاغيًا، يعني أن محمد أحمد خلع من سلطنة كوردفان عندما طمح نظره إلى الخرطوم و طلب من الجنرال أن يدخل في دين الإسلام، لكن محمد أحمد لم يتمتع بتلك السلطنة اللفظية لأنه لم يقبلها عند عرضها عليه فلا يحزن من هذا الخلع الجديد. أليس بعجيب أن يسمع من أفواه رجال سياسة بريطانيا مثل هذه المهملات، بعد ما قيل فيهم إنهم من أدهى رجال العالم؟! ولعل الأضحيك من أساليب السياسة عندهم.

### المسألة المصرية والإنجليزية

إن للحكومة الإنجليزية شأنًا في المسألة المصرية يخال للناظر فيه أنها في تردد بين إحجام وإقدام وأن مقارعة الآراء و اختلاف الأهواء، يزداد بين سكان بريطانيا، كلما إزدادت الخطوب شدة في مصر، نعم إن أرباب الرأي في الأمة الإنجليزية فريقان: فريق منهم يدفع حكومته إلى الإعلان بسيادتها على الديار المصرية و استلام إدارتها، و بعبارة أخرى إلى ضمها لأملاكها و يحملها بذلك على غمط حقوق الدولة العثمانية و أهالي القطر المصري و الاستهانة بحقوق الدول جميعًا، و هذا فريق الجمعيات و الشركات المالية، و يذهب مذهبهم بعض الوزراء و ينصر آراءهم عدة من الجرائد أشهرها جريدة التايمس. و اشتدادهم في صخبهم و نعيهم نبه الأفكار و أقلق الخواطر في الأمة الفرنسية فانطلق لسان جرائدها بالوعيد و التهديد و صرحت الجرائد الوزارية منها و جرائد الأحزاب الجمهورية و هي ذات السلطة في البلاد الفرنسية بأن حكومة فرنسا و إن كان غضت طرفها عن أعمال إنجلترا في القطر المصري من يوم حملتها عليه إلى الآن ولكنها لا تهمل شيئًا من مصالحها و حقوقها و جميع الدول الأوروبية تعززها، و ليس لإنجلترا في مصر ما تمتاز به عن بقية الدول، و من الجهل أن يظن سياسي في المسألة المصرية أنها مصرية أو إنجليزية أو فرنسية فإنما هي مسألة أوروبية، و قد اقتربت الساعة التي تجهر فيها الدول في المدافعة عن حقوقها في الأقطار المصرية، إن للدول حقا في التداخل لحل هذه المشكلات بعد ما

عجزت إنجلترا عن القيام بما تعهدت به من إقرار الراحة في مصر، فإن الفوضى في هذه الأيام أشدّ منها في زمن الحركة المعروفة بالعسكرية و فتنة السودان تلاطمت أمواجها على حدود مصر و الهواء الأصفر (الكوليرا) أن تكون له رجعة إلى تلك البلاد السيئة الحظ، و ما هذا كله إلا من آثار الحلول الإنجليزية في وادي النيل. أما إن أرادت دولة إنجلترا أن ترسم بسيادتها أو ترفع أعلام حمايتها على القصر المصري فما للدول من حق التداخل يصير فرضاً لازماً و ضربة لازب لا محيص عنها. إلا أن كل هذه التهويلات لم تعدل بذلك الفريق الإنجليزي عن مقصده و لم تتحول به عن مشربه فلا تزال جرائدهم تنعق بطلب الحماية على مصر و هم في عمى عن العوائق و الموانع التي تصد حكومتهم عن الانصياع إليهم.

أما الفريق الآخر من الأمة الإنجليزية و منهم وزير داخلية إنجلترا و مستر جلادستون فيما يقال فيظهرون التعفف و النزاهة بل يصرحون في خطبهم بأن حكومة بريطانيا لا تستطيع احتمال إدارة البلاد المصرية و ليس في إمكانها ضمها إلى أملاكها و لو همت بذلك لرأت من الدول أشد الممانعة و ربما رجعت بالخيبة؛ على أنها تكون قد سنت سنّة سيئة في نقض العهود، و إخلاف الوعود، و فتحت للدول هذا الباب، باب الشر و العدوان. هذا ما ينطقون به على منابرهم و يزعمونه نبأ عما في خواطرهم، ولكن هؤلاء المتعطفين لهم في كل وقت عمل لتمكين أقدامهم في مصر، و لا يخالفون الفريق الأول إلا في شقاشق الألسن، هؤلاء هم الذين حولوا الإدارات المصرية و دوائر حكومتها العليا إلى السيرية، واستلما زمام العسكرية و المالية و إدارة الداخلية و المحاكم القضائية و تصرفوا في أعمالهم تصرف الملاك، فاستبدوا على المتوظفين من المصريين، و غلوا أيديهم عن تعاطي أشغال وظائفهم، حتى آل بهم الأمر إلى ما صرحت به الجرائد الإنجليزية من أنهم أشباح و رسوم تلوح بين جدران الدواوين غدوة و عشيا، هؤلاء هم الذين يحاول نوابهم و مأمورهم في القطر المصري أن يلزموا أهاليه بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية إنجلترا و سيادتها عليهم و إن لم تنجح الحيلة، هؤلاء هم الذين هموا الآن بتغيير نظام المالية المصرية و

رغبوا إلى الدول في عقد مؤتمر بلندن لتغيير قانون التصفية و يريدون أن يجعلوا ذلك ذريعة للاتفاق مع الدول على أن تكون الديون المصرية بأسرها تحت ضمانتهم لتقوم لهم الحجة في الاستيلاء على مصر بعد زمن قصير أو طويل أو ليمهدوا به طريقاً لمن يخلفهم في الوزارات الإنجليزية ينتهي بالسير فيه إلى تلك الغاية بعينها، و ما طلبوا الماچور پارين وكيلهم السياسي في القطر المصري إلا ليحضر هذا المؤتمر. هذا ما يهيه الإنجليز لأنفسهم ولكن ماذا تعده الحوادث لهم، كتبوا على أنفسهم تخفيف مصائب الحكومة المصرية في السودان، و عقدوا لقوادهم الألوية، و أعدوا لهم العدد، و كتبوا الكتاب؛ فسفكت دماؤهم بعد ما ضل سعيهم، ظنوا أن بعض رزاياهم في سواحل البحر الأحمر فرصة للاستيلاء على السودان الشرقية، فبعد الجهد و معاناة الكفاح من عراة العرب تمكنوا من الرجوع بالخبية، فنعوا بالاعتصام في حصون القاهرة و ما يليها فأزعجهم دوي السيل المندفع عليهم من الجهة الجنوبية، و إغارة ثائرة السودان على شندي و افتتاحها، و اشتداد الحملة منهم على بربر و الخرطوم، و زادهم خوفاً و رهبة انتقاص كثير من القبائل على مقربة من وادي حلفا و أبي حمد و أوشكت طائشة الفتنة أن تأخذ بقلوب الأهالي فيما تحت أسوان، و أفزعهم ما أحسوه من أهالي القاهرة و مصر السفلى من تحوّل القلوب و ضيق الأنفس، حتى اضطروا لزيادة الحرس فيها، مع أن زيادة المعهود في المصريين أنهم أهل السلم و الراحة. قصدوا بكل هذه حماية طريق الهند خوفاً على الهند، فبعدما ورد إلينا من أصدقائنا في لاهور أن لدعوة محمد أحمد في قلوب الهنديين منزلة و أنه لو لم يكن مهديا فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى أن يكون في هذا الاعتقاد جمع لكلمتهم على التخلص من رقّ الإنجليز، جاءت البرقيات شاهدة على صدق ما كتب إلينا، ففي الأخبار البرقية أن رجال الشرطة في سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد و القيام بنصرته، و سملا هي في آخر الممالك الهندية الإنجليزية من جهة الشمال الشرقي على القرب من لاهور، و هذا ما كنّا نخشاه و نبهنا عنه مراراً. و ربما

تكون هذه الصدمات الشديدة التي صدعت إنجلترا بعد استفحال أمر محمد أحمد كافية في إذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الحركة التي سموها عرابية.

رام الإنجليز بكل هذه الاحتياطات المقيدة أن يقرروا الراحة في مصر فإذا الأموال تنهب، و الحقوق تضيّع، و الإدارات في فساد و التجارة في كساد، و الزراعة في بوار و الظلم في اشتدد و الأمن مسلوب حتى الأرواح و الأعراض، كل هذا باعتراف جرائدهم ووزرائهم و شهادة الجرائد المصرية الوطنية و إجماع السياسيين في أوروبا على أن الشقاء الذي ألم بأهل مصر بعد تداخل الإنجليز، ناشئاً عن هذا التداخل، لم يرزوا به في زمن من الأزمان من عهد محمد علي إلى الآن. فأنعم بهذه الوسائل التي أعدها الإنجليز لتقرير الراحة في مصر و أجمل بالوسائل التي استعملوها لحماية الهند!!

هذه بدايات القلاقل و بؤادر المخاطر التي نشأت من شدة احتراس الإنجليز و حرصهم على وقاية أملاكهم أو توسيعها يظهر من جعجعتهم إذا صاح بهم داعي الحرب و حيرتهم من أين يجندون الجنود هل من الهند أم من إنجلترا؟! و من موازينهم العسكرية أن ليس لهم قوة برية لحفظ الممالك الواسعة فكيف يستطيعون التصرف في مصر لو سادوا عليها و هي كما قال وزير داخليتهم تحسب مملكة أوروبية لا تسود فيها الأوهام و لا تدوم فيها سلطة الحيل إن لم يكن من المصريين فمن الأوروبيين و أي قوة تصون لهم الهند من فتنة إذا امتد زمن الاضطراب في مصر؟! مصر!

و قد جاءنا من أخبار الهند أن عموم المسلمين في هياج و يخشى أن تنور فيهم نائرة عندما يتقدم محمد أحمد خطوة أخرى.

هذه العواقب السيئة و ما يتوقع من مثلها أو أسوأ منها لدولة إنجلترا إنما هي حلقات في سلسلة أغلاطها من استيلائها على قبرص فإنها اختلست تلك الجزيرة لمراقبة طريق الهند فنافستها فرنسا و استولت على تونس فتخوفت على قنال

السويس أن يساق إليه جيش بري من إفريقيا الغربية فسعت في الإيقاع بين الجند و الحاكم في مصر و تذرعت بذلك للغارة عليها فنزل بها في تلك ما نزل. و بعث ذلك دولة فرنسا على ما بلغنا من مصدر يوثق به إلى السعي في طريق يوصلها إلى مناكبة الإنجليز في مصر على الحدود الغربية و ربما جرت هذه المنافسات إلى فتح المسألة الشرقية و ليس بقليل ما يصيب إنجلترا من مضار هذه المسألة، فأي ثمرة جنتها إنجلترا مما غرسته في هذه السنين الأخيرة، لا هي صانت باب الهند من الخطر كما تروم و لا هي سكنت قلوب الهنديين، و إنما طرقت أبواباً كانت مغلقة و يوشك أن تفتح، ولئن فتحت فإنها تحدث زلزالاً في أركان العالم بأسره هذا شأن الإنجليز و ما يفعلون.

و يوجد أناس لهم مداخل في قلب الأحوال المصرية و لهم مذاهب مختلفة في ترويح مقاصدهم لدى المصريين يمنونهم بالخلاص من أيدي الإنجليز إذا آل إليهم السلطان في مصر، بل يؤكدون لهم أنه لو ثبتت أقدامهم في الديار المصرية لأحبطوا مساعي إنجلترا في عموم البلاد الشرقية، و سعوا في تقليص ظلها من المشرق بأسره، أخذاً بثأرهم منها فهؤلاء سنأتي على أحوالهم، و نبين طرق سيرهم في أعمالهم، حتى يكون ذوو الآمال فيهم على بصيرة من أمرهم.

### هول الأمر على چوردون

أخبر مراسل التايمس في الخرطوم أن تلك المدينة أصبحت معسكراً لأعوان الثورة و مضاربهم محيطة بها من جميع الجوانب و المقذوفات من نيران أسلحتهم تنقض على دار الحكومة بلا انقطاع و المئونة في نقصان و الخطر يشتد يوماً بعد يوم و بعد إفراغ الوسع في اختراق صفوف الثائرين بالمراكب تسير إلى بربر لفتح طريق المخابرة مع حاميتها، حبط العمل و خاب السعي فإن قوة العربان على شواطئ النيل تصل على المراكب بأسلحتها القاتلة و تفتك بمن فيها، و أتبع هذا الكلام بقوله إن الجنرال چوردون عقد العزيمة على أن ينجو بنفسه من طريق إفريقيا الوسطى حيث

تحقق أن حكومته غير مهتمة بإنقاذه، و يرى أنه لا سبيل إلى الاتفاق مع القبائل التي أخذت عليه طريق بربر إلا بمساعدة زبير باشا (اليوم يضطر لمساعدة زبير باشا) وهو من أعدائه ولا نرى الزبير إلا مسلمًا لو سمحت ذمته بإنقاذ حياة چوردون فلا تسمح أن يكون السودان ولاية إنجليزية، و في جريدة (الأكسترايلات) أن الحكومة الإنجليزية ورد إليها كتاب من چوردون مفاده:

ليس في طاقة أحد من البشر أن ينجينا من الخطر لأننا محاطون من جميع الأطراف بالقبائل الثائرة فلم يبق لنا سوى التضرع إلى الله بتبديد شملهم، فإن لم تسعفنا العناية الإلهية بإجابة دعوتنا فلا ريب أن تلك القبائل تنهب و تفتك بجميع سكان الخرطوم قبل وصول نجدة إنجليزية إلينا. (وليتن سأل الله تعالى حل المسألة السودانية وفوض إليه الأمر فيها وأراح نفسه من السفر إلى الخرطوم) وجاءت الأخبار الأخيرة بأن مدينة شندي وهي على النيل في منتصف الطريق بين بربر و الخرطوم وقعت في أيدي رجال محمد أحمد، هذا بعد أن طلب الجنرال چوردون من حكومته أن ترسل فريقًا من الجيوش لتخليص حامية تلك المدينة و موظفي إدارتها. ورأت الحكومة من الصواب أن لا ترسل، فلما ضاق الأمر على الحامية و يؤسوا من القدرة على الدفاع ركن فريق منهم يبلغ ثلاثمائة شخص إلى الفرار و اندفعوا على صفوف محاصريهم لعلهم يجدون من بينها سبيلا فلم يستطيعوا و نزل بهم من أمر الله ما لا محيد عنه. بعث الجنرال چوردون ببرقية إلى القاهرة يشكو فيها عدم وصول الأخبار إليه من السير پارين (وكيل إنجلترا السياسي في مصر) قالت التيمس: ولعل البرقيات التي بعث بها پارين إليه تناولها الثائرون. ومن كلام هذه الجريدة أن الحكومة الانجليزية أرسلت الجنرال إلى السودان و فوضت إليه الأمر فيما يفعله ليصيب بتدبيره غاية حسنة، و نرى أن هذه الحكومة غلت يديها بترك الجنرال و شأنه مما يلحق بها عاراً عظيماً.

اشتدت حملة القبائل على بربر و خارت عزائم حاميتها و سكانها و أخذ اليأس بقلوبهم. و وردت برقية من مدير بربر إلى الوزارة المصرية يشكو بها تلك الحالة و

يقول إنه لا يمضي بضعة أيام حتى يفتحها الثائرون و يحل بها من أيديهم ما حل بمدينة شندي. و بعد هذا جاءت برقية من القاهرة مفادها أن نوبار باشا يخشى أن يمتد لسان الفتنة إلى أسوان في وقت قريب، و أنا نشاركه في هذا الخوف و نزيد عليه الإشفاق من التهاب النيران في القاهرة و أطراف القطر المصري، و لا حول و لا قوّة إلا بالله.

### محاولة في مصر

كل يوم يظهر من إنجلترا شأن جديد في معاملة الشرقيين و الطرق التي تأخذهم بها لقضاء أوطارها من بلادهم، و تلاعبهم و تداعبهم و تجاملهم و تلاطفهم، و تعدهم و تمنهم و تخفيهم و تؤمنهم، حتى تشبه عليهم مسالك الفكر، و تلبس مسارح النظر، ثم تحملهم بعد الدهشة على قبول سلطتها و الرضا بولايتها، بل على طلب ذلك منها، و التماسه من كرمها، و هي في كل أعمالها تهزأ بهم و تحسبهم في عداد الصبيان القاصرين، أو من قبيل البهائم التي لا تعقل. سلكت مسلكها هذا على بعض من أوروبا و انفردت في الأقطار الهندية النائية، و ليس لدولة من الدول إحاطة بما تجريه في حكومتها لتلك البلاد، ثم تطرفت في هذا المشرب فعمدت إلى استعماله في مصر تحت أنظار أوروبا و قصدت أن تدعو المصريين للإقرار بحمايتها، و رفع التماسهم إليها لعل كرمها يسمح بمنحهم شرف سيادتها عليهم، لكن الحيلة لم تذهب على المصريين و لم تختلس عقولهم تلك الشعوذات، فقد جاء في خبر مؤكد أن مأموري الحكومة الإنجليزية في مصر حاولوا تكليف الأهالي بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية دولة إنجلترا ليكون التماس الأهالي حجة لديها عند الدول تقيم بها عذرًا في إخلاف و عودها، حتى إذا حاسبوها على تصرفها في أرض مصر وضمها إلى أملاكها تدّعي إنها مضطرة فيما تصنع و الأهالي هم الذين رغبوا إليها ذلك و هي لا تأبى قبول رغبتهم رحمة بهم و رأفة، هكذا تحاول أن تفعل في مصر و هي متاخمة لأوروبا و فيها من الأوروبيين المختلفي الأجناس ما يزيد على مائة



ألف، ولا تخشى لا ئمد ولا تخاف عاقبة، وإن ظننا بالمصريين على اختلاف طبقاتهم أنهم لن يفعلوا ذلك ما دامت أرواحهم في أبدانهم.

### رأي الجرائد الفرنسية في الإنجليز

ارتفع الستار وانتهك الحجاب عن ضعف الحكومة الإنجليزية ووهن عزيمتها في المسألة المصرية، و لم تبق فيه ريبة لمرتاب بين الدول الأوروبية و انطلقت عليها الألسن و سلت عليها سيوف الملام، من ذلك ما هزأت به جريدة (الريبوبليك فرانسيز) و سخرت فيه بدولة إنجلترا عند كلامها على فصل نشر في جريدة (البال مال جازيت)، قالت: إن ما تهددنا به الجرائد الإنجليزية لا تأخذنا منه رهبة و لا ترعدنا منه خيفة، بعد أن رأى الفرنسيون عجز حكومة بريطانيا عن حماية چوردون و علموا أن عددًا من عرب السودان اخترق صفوف الجيوش الإنجليزية المنظمة و ما كان لهم سلاح إلا العصي و الخناجر، و أن فرنسا لا تزال تطلب من إنجلترا أن تعيد إليها ما فقدته من حظ السلطة في شواطئ النيل، و ما ظهر من عجز إنجلترا وضعفها القاضي بالحيرة و العجب لا يخفف سوء تأثيره إلا بمساعدة فرنسا. قعد كليفورلويد من المصريين مصاعد الأنفاس و خنقهم بخناق من الجور و صار فيهم خلفًا لعراقي (كذا) و نعم الخلف، و إلى القوة الفرنسية فك هذا الخناق الضيق الذي كاد يقطع أنفاس المصريين، أما أوروبا فتستريح خواطرها و يسكن اضطرابها بعد ما أقلقها ضعف الإنجليز الذي لا دواء له و مطامعهم التي لا حد لها ... اهـ.

فهل انكشف للشرقيين ما وضح لدى الأوروبيين أو لا يزالون عنه غافلين؟

### خديعة جديدة

أقبل الإنجليز أيام الحركة السابقة على بعض المصريين و زخرفوا لهم الأمانى وزينوا لهم المواعيد، حتى استعملوها لتذليل المصاعب بين أيديهم، لدخول مصر و الاستقرار فيها بعساكرهم، و تم لهم ما أرادوا، ثم قلبوا لهم ظهر المجن تحت أستار

الحجج و التعللات، و قبضوا على زمام الحكومة المصرية يصرفونها كيف يشاءون. و لما أرادت الدولة العثمانية بما لها من الحق القانوني على تلك البلاد أن تتولى حل المسألة التي كان يعبر عنها بالعسكرية، و أن ترسل بعض جيوشها لإقرار الراحة في بلادها طبقاً لرغبة رعاياها، مانعها الإنجليز و كفوايدها عن العمل و سبقوها إليه بدون حق شرعي و لا أصل سياسي و لا رغبة عامة من أهالي القطر المصري، و اليوم عند اشتداد الخطب على الجنرال چوردون الإنجليزي و عجز حكومته عن إنقاذه و توقيف حركة محمد أحمد ألجأتهم الضرورة إلى الرجوع لما نبهنا عليه مراراً من أن هذه الفتن لا يطفئ شعلتها رذاذ السياسة الإنجليزية، تمنوا لو تتداخل الدولة العثمانية ببعض عساكرها في السودان لتتخذ الجنرال چوردون و تأخذ بناصية محمد أحمد و تبدد شمل أحزابه، هكذا رأى الجنرال في هذه الأيام أن أنجع الوسائل لحل المشكلات تحسين جيش عثماني و سوجه إلى تلك الأقطار فكتب إلى صديقه صامويل بيكر يرغب إليه أن يتقدم لأرباب الثروة في إنجلترا و أمريكا و يحملهم على بذل مائتي ألف جنيه ليعرضواها على السلطان العثماني حتى ينفقها على ألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر التركية، و يسيرها إلى نواحي بربر و شندي، و يكون بهذا إنها المسألة السودانية و هدم سلطة محمد أحمد، و قال إنه مما يعود نفعه على السلطان أيضاً.

يريد الجنرال أن يخدع العثمانيين بتمثيل منافعهم، كما خدع أمثاله بعض المصريين و حاشاهم أن ينخدعوا لمثل هذه التخييلات الوهمية، و من العار عليهم أن يقبلوا ما يتكففه الجنرال چوردون من صدقات أهل الثروة في بلاده للنفقة على عساكرهم، و أشد العار أن يذهبوا بجيوشهم لتدويخ بلادهم و إخضاعهم لسلطة الإنجليز و العساكر الإنجليزية حالة<sup>(١)</sup> بحصون مصر، نعم لو أذعن الإنجليز بما للدولة العثمانية من الحق و تركوا لها بلادها و فوضوا إليها إعادة الراحة فيها و إهماد فتنة

١. مرابطة في مراكز مصر الاستراتيجية.

السودان، فلا تخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض إليها بل هو ما تتمناه و تسعى إليه، و لعل الحوادث تلجىء دولة بريطانيا إلى مثل ما لجأ إليه چوردون فتسلم الأمر لمالكه<sup>(١)</sup>، ما ذلك على الله بعزیز.

### دسیسة أخرى

هيا الإنجليزية فتنة فكانت، و أغاروا على مصر بحجة إهمادها، و أوثقوا الدول على أن تكون إقامتهم في الديار المصرية إلى أن تستقر الراحة فيها ثم يخرجون، لكنهم بعدما حلوها لا يزالون يسعون من يوم وطئوها إلى اليوم في إيقاظ الفتن و يجهدون لإطلاق الخواطر، ليقدموا ما يكون من هذا عذراً لدى الدول في تطويل مدة إقامتهم بالقطر المصري لعلهم يجدون من تقلبات السياسة الأوروبية فرصة للحلول الأبدی. و من ذلك ما سولوا للأروام أن يحتلفوا بعيد استقلالهم على نمط لم يسبق له نظير في الأقطار المصرية من قبل، و زينوا لهم ما فعلوا بما يقدرين عليه من طرق الخفية حتى انخدع الأروام لوساوسهم مع أنهم أحق الناس برعاية الأدب و ما كان مثل ذلك من مأموري الإنجليز في مصر إلا ليقبلوا أفكار المصريين و يحركوا الضغائن في نفوسهم و يذكروهم بما كان بينهم و بين اليونانيين أيام إبراهيم باشا فيوقظوا بذلك الفتنة بين سكان القاهرة و بعض المدن المصرية و بين من يساكنهم من الملل الاجنبية، و يعيدوا تاريخ بعض الحوادث المشؤمة التي كادت تمحى دواعيها بعد ما حدث من نحو سنتين ثم يجعلوا ما يحدث من اختلال علة لدوام الاحتلال أو التسويف في الجلاء.

### الورطة الجديدة

التوى سير السياسة الإنجليزية في المسألة المصرية، و قزلت<sup>(٢)</sup> الوزارة

١. يظهر الأفغاني نواياه هنا بجلاء .. فهو يطلب الخلاص من بريطانيا و احتلالها مصر ..

٢. قزلت بمعنى سارت كما يمشی الأعرج ... أي تدهورت سياستها ...

الجلادستونية في المضي إلى نهايتها فسقطت مرارًا و نهضت مرارًا، و آل بها الأمر بعد هذا إلى عجز عن أداء ما تعهدت به للدول و للدولة العثمانية من إصلاح الأحوال المصرية، و فزع شديد من عقبى هذه الفتن التي تداعت لها أركان النظام المصري. فلجأت إلى الدول الأوروبية تستعين بها على تخفيف الوزر، و التمسست منها عقد مؤتمر في لندن و تعللت في دعوتها إلى الاشتراك معها في الأمر بفراغ الخزينة المصرية لكثرة النفقات و النقص في الإيراد فلا يمكن بقانون التصفية الذي وضع باتفاق من الدول العظام إلا أنها شرطت على الدول أن تكون المداولة في المؤتمر منحصرة في المسائل المالية و لا يجوز لهم أن يتعدوها إلى ذكر شيء آخر في الأحوال المصرية الحاضرة أو الماضية، أما الدول فقد قبلت الدخول في المؤتمر على شرط مبهم و هو أن نوابهم يبحثون فيما يبحث فيه المؤتمر، إلا دولة ألمانيا فإنها لم تجب إلى الآن جوابًا رسميًا و يغلب على الظن في الدوائر السياسية أنها تتبع في جوابها دولة فرنسا و اتفقت على ذلك أغلب الجرائد الألمانية وزادت دولة فرنسا في جوابها أن طبيعة المسائل التي يجري فيها البحث ربما لا تقف بالباحثين عند حد النظر في المالية، بل تنجر بهم إلى ذكر كثير من المشكلات المصرية الحاضرة.

أما هذا فلم يكن خافيًا على إنجلترا فإن النظر في المالية مع اضطراب الواقع في الديار المصرية و تزعزع أركان السلم فيها لا تخلو نتيجته من أحد أمرين:

إما تقدير الإيراد و المنصرف بمبالغ محدودة و تخصيص شيء معين من الإيراد لوفاء فائدة الدين مع تخفيض الفائدة مثلاً ثم يوضع قانون تمضي عليه الدول كما فعل قانون التصفية و هذا مما لا يتصوره العقل فإن عساكر الحلول الإنجليزية لم تزل في أرض مصر و مصاريفها على الخزينة المصرية، و لم يعلم أجل إقامتها و لا مبلغ عددها، و الفتن قائمة في الجهات السودانية و الحكومة المصرية مكلفة بتوقيفها عند حد لا يخل براحة البلاد و لهذا العمل مصاريف و نفقات لا يمكن تحديدها و لا تقديرها، فكيف يمكن للوصول إلى تعيين النفقات و إحصائها على وجه منضبط و الاضطراب الداخلي و الاختلال المتفشي في الإدارات و دوائر الحكومة العليا و

الدنيا الذي حدث بتخلل الإنجليز فيها وقف حركة الأعمال النافعة من زراعة و تجارة و صناعة فكيف يمكن ضبط الإيراد على نمط يعرف و يؤلف فلم يكن غرض إنجلترا من الدعوة إلى المؤتمر أن يصل إلى مثل هذه الغاية التي لا أهمية لها بعدها.

الأمر الثاني أن ينساق البحث في المسائل المالية و النظر في الإيراد و المنصرف إلى ما يلزم لاستقرار الراحة في مصر من العساكر و تطلبه من النفقات و ما يستدعيه إطفاء فتنة السودان و ما تحتاج إليه المحاكم الجديدة و غير ذلك مما تعرضه إنجلترا و تبين للدول أن مالية مصر ليس في طاقتها أن تفي بجميع هذه النفقات الواسعة و لو كلفت بأداء بعضها فضلاً عن كلها لحق الضرر بأرباب الديون فأحسن وسيلة للتخفيف عن المالية المصرية مع حفظ الحقوق لأربابها أن تكون الديون المصرية تحت ضمانه إنجلترا و هي تؤدي فوائدها في أزمانها. تطلب من الدول بعد هذا أن تفوض إليها التصرف في الأقطار المصرية، و تأخذ التبعة على نفسها في بذل الاموال و قتل الارواح، وهذا الذي يمكن أن تفعله إنجلترا بعد عجزها و ربما مست حقوق الدولة العثمانية في مطالبها هذه، إلا أن التلغرافات نقلت إلينا ما يتحدث به في الدوائر السياسية بالأستانة و هو أن الدولة العثمانية ستشترط لقبول انتظامها في المؤتمر شروطاً صعبة يعز على إنجلترا قبولها لينكشف الستار عن مقاصدها في مصر. و من جملة تلك الشروط أن تستبدل العساكر الإنجليزية، المحتلة في مصر بعساكر عثمانية لأن نفقات الجيوش العثمانية أقل من نفقات الجيوش الإنجليزية و هذا هو ما يؤمل في الدولة العثمانية في هذه الأوقات و أنها فرصة لو فاتت فقل أن يأتي مثلها و للدولة العثمانية بسلطتها على قلوب المسلمين شرقاً و غرباً قوة ترتعد منها فرائص الإنجليز، فأمل أوليائها اليوم أن تستعمل تلك القوة الفائقة و تجعل لها أثراً في استرداد حقوقها، و عندنا أن رجال الدولة العثمانية لا يغفلون عن هذا. أما الحكومة الفرنسية فقد عقدت عزميتها على مطالبة إنجلترا بإعادة نفوذ الفرنسيين في مصر كما كان قبل المراقبة و الجرائد الفرنسية على اتفاق في تبين خلل السياسة الإنجليزية و بيان سوء مقاصد الإنجليز و الإلحاح على حكومتهم ألا تعترف بأدنى امتياز بسبب ما فعلته في

واقعة التل الكبير، وهذا ما ترتجف منه الجرائد الإنجليزية عمومًا وتخشى عاقبته و نظنها أسوأ عاقبة عليهم.

هذا ما يتعلق بورطتهم الجديدة التي يظنون فيها خلاصهم، وبقي عليهم ما لا نظن ولا يظنون لهم منه نجاة. دخل الثائرون مدينة بربر كما أنبأت به أواخر الأخبار و لعبت عواصف الفتنة بأطراف مصر العليا و أكدت أخبار البرقيات أنها لم تقف عند حدها، بل حركت السواكن في مصر السلفي، و وراء ذلك من الويل ما وراءه فأين الخلاص لدولة إنجلترا؟ نعم لمعت بارقة حق في عقول بعض ذوي الرأي من رجالها فطلبوا أن تكون العساكر التي تبعث إلى مصر مؤلفة من عثمانية وإنجليزية و هو نوع تقرب لما قلناه مرارًا من أن هذه الفتنة لا يدفع غائلتها إلا المسلمون ولكن عليهم أن يخلصوا آراءهم من الشائبة الإنجليزية و إلا فلا نجاح، و الله يفعل ما يشاء.

### العروة الوثقى توزع مجانًا!!

تأتي في فصولها على أهم ما له أثر في أحوال الشرقيين عمومًا و المسلمين خصوصًا، فلا تلام إذا أطنبت في مسألة شرعية عامة و لا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من أمريكا و جابونيا.

نبهنا في أول عدد صدر منها على أن القائم بها رجال من أهل الغيرة في الشرق هموا بأعمال تفيد أوطانهم و ملتهم مع رعاية جانب العدل و السير على وفق الحكمة، و من ظن أن توزيعها مجانًا يقتضي أن تكون منسوبة لدولة من الدول أو شخص من ذوي المطامع في إمارة أو ملك فإنما نشأ ظنه هذا من اليأس المستحکم في نفسه و القنوط من نهوض همم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا، و لا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون.

هذه جريدة لا سعة فيها للتنابذ و التقاذف، و لا يذكر فيها اسم شخص أو لقبه إلا إذا كان له قول أو عمل يفيد البحث فيه فائدة عامة.

### رياض باشا و السياسة الإنجليزية

نقل إلينا و ذكرت الجرائد خبر مجلس انعقد في سراي توفيق باشا بالقاهرة حضره وزراء الحكومة المصرية و دعي إليه شريف باشا و رياض و سلطان باشا و عمر باشا و لطفي باشا و خيرى باشا و ثابت باشا. و أغلب الجرائد الفرنسية المهمة أتبعَت رواية الخبر بالثناء على رياض باشا و أتت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أمته. و مما ذكرت من صفاته أنه أقوم أمير في الديار المصرية و أشدهم حرصًا على الاستقامة و أنه أبصر أهل بلاده بعواقب الحوادث التي ألمت بمصر و ما تتول إليه. و كان يرى من بداية تلك الحوادث أنه سيكون مصيرها إلى ما لا خير فيه للبلاد و سكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية أعضاء المجلس و إننا نذكر الخبر أولاً ثم نعقبه بما تدعو خدمة الحق لذكره.

بعد انعقاد المجلس قام نوبار باشا و افتتح الكلام بخطاب وجهه إلى الحاضرين فقال: ماذا ترون من التدبير إذا فرضنا أن مدينة الخرطوم و بربر دنقلا دخلت في حوزة محمد أحمد و أشياعه؟ و أي طريقة يمكن الأخذ بها لحفظ الأمانة و تقرير الراحة في مصر العليا (الصعيد)؟ فأعجب الحاضرون بالسؤال و ظهرت على وجههم علائم الاستغراب لمفاجأته لهم بما لم يكونوا يتوقعونه ثم أجابوه بصوت واحد: أن لا سبيل إلى تأمين البلاد من خطر الفتنة إلا باستعمال القوة، فقال نوبار باشا: إننا نروم منكم التصريح بنوع القوة التي يجب استخدامها (أي قوة إنجليزية أو مصرية). فأجابه رياض باشا: إن تعيين القوة من خصائصكم و ليس من شأننا أن نتكلم فيه. فأبدع في الجواب بعض الحاضرين (لا نعرفه و ربما يكون من محبي أوطانهم) و أحسن في التشبيه حيث قال الذي نعرفه: إن العجة لا تكون بدون بيض (العجة طعام يصنع من البيض مع بعض النبات يعرف اسمه عند المصريين و أغلب العرب، فمادة هذا الطعام إنما هي البيض). فأراد العضو المحترم أنه لو أريد استخدام قوة فلا بد أن يكون جوهرها عساكر إنجليزية و لا بأس بإضافة بعض من الجنود المصرية لتكون ترسًا يدفع به في وجوه المحاربين و تنصب إليه قوته، فإن حصل العجز و دعت

الضرورة للفرار أمكن للجيش الإنجليزى أن تعود سالمة أو إذا أضيف مصريون فلا بد أن يكونوا حمالين و خدماً أو حرساً و حفظة لمن يكون معهم من ساداتهم (هذا ما أراد جناب العضو من تشبيه البليغ). بعد هذا قال رياض باشا: إنكم تسألوننا تعيين القوة ولكنني أسألكم: ما هي القوة الموجودة عندكم و بأي حق يؤدي لكم ٤٨ ألف جنيه في كل شهر، أنتم حكومة أم لا؟! أما شريف باشا فقال إنه بذل جهده مدة طويلة في إرضاء الحكومة الإنجليزى بأن ترسل جيشاً إنجليزياً إلى السودان (و هذا مما يقضى بالعجب) ولكنه علم أن نوبار باشا أراد أن ينهي المسألة بإخلاء الأقطار السودانية، فقال نوبار باشا: إن المباحثة خرجت عن موضوعها و تحولت عن وجهها ولكنني أذكر بالأعضاء المجتمعين بأنهم ما طالبوا إلا لإبداء آرائهم فيما يجب العمل به، فأجابه رياض باشا: إن لكم مجلس شورى فكان أحق أن تذاكروه و إن للآن لا نعرف سبباً لاستدعائنا مع وجود ذلك المجلس، فحاول نوبار باشا دفع ذلك بقوله إن مجلس الشورى ليس من خصائصه النظر في مثل هذه المسائل. فقال رياض باشا إنه لا يرجى إصلاح مادام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً، و إنه لا ثقة له بأصل من أصول ذلك النظام و ليس في الإمكان إجراء و لا واحد منها و أن الأغلاط التي كانت منشأ للضعف و الاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنجليز و إن ما نراه من الفوضوية و ارتكاب المنكرات و كثرة التعدي و السرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنجليزى، فعلى إنجلترا أن تعالج هذا الداء و ليس ذلك علينا و لقد قلت هذا مراراً و بلغته للورد دوفرين و شريف باشا و كنت أود أن أرى للورد دوفرين مرة أخرى لأذكره بما جرى من الحديث بيننا و أعرض عليه مصره المنتظمة، إلا أن شريف باشا أتى بما لم يكن يرجى منه، حيث دافع عن نظام دوفرين بقوله إن الإصلاح يحصل تدريجياً، كأنه يريد بما يقول أن ما حوته شريعة اللورد دوفرين يصلح أن يكون شريعة يعود من العمل بها على أهالى القطر المصري شيء من الفائدة. و ما كنا نظن أن مثل شريف باشا يرى مثل هذا الرأي بعد وصول الأمر إلى ما



وصل إليه. بعد هذا قال رياض باشا: إني لا أفهم لفظ پروتكتور<sup>(١)</sup> (حماية) ولا أعلم ماذا يراد منه ولكني لا أرى وسطاً بين أمرين، إما ضم البلاد إلى الحكومة الإنجليزية فتستلم إدارة أمورها و تتولى شئونها كلية كانت أو جزئية، وهذا هو الذي أفهمه من تلك العبارات، وإما ترك البلاد لأهلها فيأخذ بزمام السلطة فيها رجال من أهلها وإليهم الحل و العقد في إدارتها فانتحلوا مذهباً من المذهبين فإن القول بحل وسط بينهما ضرب من الجنون. اهـ

و ليس بعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا فعهدنا به رجل ذو حياة وطنية وإحساس بما يلزم لحفظ حياته هذه، وهي أشرف أنواع الحياة، فإن تكلم فإنما يثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكر تثيره قوة حيوية، و كان أملنا أن يوجد من طرازه كثير في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نزلتهم هذه الحوادث المريعة و مثلت لهم مستقبل بلادهم في حاضرها، و لقد أدى الرجل حقاً واجباً عليه و القائم بأداء الفريضة قد يشكر إذا أهملها المكلفون بها حتى صارت عندهم من نوافل الأعمال أو في منابذ المكاره، ولكن يأخذنا العجب من بقية أعضاء هذا المجلس الموقر كيف مجمجوا أو تلكئوا أو سكنوا وكيف وسعتهم القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم. إنا لا نعلم أحداً منهم تجنس بالجنسية الانجليزية وحاشا جميعهم من ذلك، ولا يختلج في صدورنا أن مصرياً أو تركيا أو شرقياً أياً كان يميل ميلاً صادقاً الى تسلط الاجنبية على بلاده او يخلص في خدمة الإنجليز و مجارة رغائبهم إخلاصاً صحيحاً خصوصاً أولئك الأمراء المصرح بأسمائهم، بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الأسف في ما حل ببلاده و فانيّاً من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه و مضمحلاً من الكدر على ما عقبه حلول القوة الأجنبية من انقباض الأنفس و انقطاع الآمال و عموم الاختلال و شمول الفقر و الفاقة و بطلان حركة الأعمال، بل لو

شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عند ما يطرق آذانه أخبار التصرف الإنجليزي في إدارات حكومته و كَفَّ أيدي الموظفين من أبناء ملته من أداء ما يجب عليهم لبلادهم و بسطة أيدي أولئك الأجانب في الإنفاق من ماله و مال عياله و أقاربه و أحبائه و جميع مواطنيه بدون حق شرعي و لا مصلحة وطنية أو عندما يرى غنيا أعدم و عزيزاً ذل و كاسياً عري و حبا أشرف على الهلاك من ضغط المظالم، و لو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة و في أعضائه من أنواع الرعدة و ما ينبض به قلبه و ما يحدثه فكره من هواجس الهموم و خواطر الغموم، لما استطاع القلم تعبيراً و لوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير.

هذا هو الذي لا يبرأ منه أحد منهم و لو أقام على البراءة ألف برهان. كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم و سيادتهم و ما بلغوا من مراتب الشرف و الرفعة إنما كان بوصف قيامهم على أعمال البلاد و أهليتهم لاستلام مهامها و استعدادهم لإدارة شئون الرعية و هم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبي فلا داعي يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف و السيادة، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم و إهباطهم إلى أحط المنازل ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه. فما الذي أمسك بالستهم عن الكلام؟! هل الخوف؟ فمن أي شيء يخافون و ما الذي يخشونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقاً و ثبتوا عليه؟ ماذا يصنع بهم الإنجليزي إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم و اتفاق كلمتهم على الرغبة في إنقاذها؟ هل علموا من عدل الإنجليزي أنهم يؤاخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة؟ إن كان هذا فما يبتغون من الحياة؟ هل ظنوا أن الإنجليزي إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد و إن كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا أن يوصلوا ضرراً إلى المتفكرين و هم أمراء البلاد و أعيانها؟ إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار فكره، فماذا كان يضرّ الأمراء الوطنيين لو عززوه أو كاتفوه على مثل رأيه؟ قد علم العقلاء من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة و اتحاد الرأي على مصادمتها و ما نراه اليوم من سعادة الأمم العظيمة إنما كان

منشؤه ملومات الشقاء التي أنستهم الضغائن و الأحقاد و حملتهم على ترك المنافرات الخصوصية و أخذ كل بيد اخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينصدع و أساس الملة أن ينقلع و ما سمعنا من أمة اتفقت فخابت و لا ملة افترقت فنجحت. ألا يعلم أمراؤنا أن أوروبا واقفة بالمرصاد لإنجلترا تترقب لها الزلل و تتمنى لها الغلط، و أن جميع الأسماع في الممالك الأوروبية مصغية لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين و هي: إنا قادرون على إصلاح شئوننا و لا نريد قوة أجنبية تحل في ديارنا. امتدت أعناق السياسيين في أوروبا و انحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كلت رقابهم و التوت أعصابهم و المصريون يشحون بها عليهم. ماذا ينتظر الأمراء المصريين في قول الحق؟ إن الأمم لا تطلب منهم إشهار السلاح و لا بذل الأرواح ولكن تطلب منهم قولاً صريحاً لا يجلب إليهم ضرراً و لا يقرب منهم خطراً، لا حول و لا قوة إلا بالله.

### السودان

قدمنا في العدد الماضي أن مدينة بربر في حالة يخشى عليها من السقوط في أيدي الثائرين و جاءت أخبار هذا الأسبوع أن حاكم المدينة، بعد إلحاح طويل على الحكومة المصرية في إرسال نجدة عسكرية إليه، لم يحز طلبه قبولاً فإن الوزارة الإنجليزية لم تر ذلك صواباً و بناء على ما رآته الحكومة الإنجليزية صدرت الأوامر إلى الحاكم (حسن باشا خليفة) أن يخلي المدينة بما يمكنه من السرعة، فشرع في إخلائها متقهقراً بالحامية جهة الشمال إلى كوروسكو و بعث بفرقة من عساكره عددها مائة و خمسون جندياً لتسبقه إلى حيث ينتهي في رجعته، و بعد أيام يرسل ما بقي منها طبق الأوامر التي وردت إليه و في الظن أن إخلاء المدينة لا يتم بدون كفاح و قتال و سفك دماء، و مع هذا كله فمن أمل الحاكم أن يتم له إنقاذ الحامية جميعها و إرسالها إلى كوروسكو، قبل وصول رسل محمد أحمد تحقق أن أربع فرق بين العساكر الاحتياطية (باشبزو) مع خمسمائة عسكري مصري (كلهم من حامية بربر)

انحازوا إلى أشياع محمد أحمد و يخشى أن الثائرين بعد استيلائهم على بربر يحاصرون جملة مدن في وقت قريب.

قالت جريدة التايمس الإنجليزية: ثارت جميع القبائل و أهالي البلاد فيما وراء بربر و لا يمكن أن يوجد رسل يجرءون على المسير إلى الخرطوم لتوصيل المراسلات.

وإن عرض عليهم من النقود أعلى ما يمكن من المبالغ، و قالت تلك الجريدة إن الأخبار الأخيرة الواردة من مصر تؤكد لنا أن قلوب الأهالي (المصريين) طافحة من الغيظ و الحنق على الإنجليز، و أنه لا يوجد في مصر من يحب أن يرى إنجليزيا يخطر في بلاده (هذا الذي قلناه مرارًا فالحمد لله أقره الخصم و ارتفع النزاع)، ثم اتبعت كلامها هذا بأنه لا يوجد في مصر الآن شيء يصح أن يخبر عنه سوى (احتلال و اضطراب)، فما عليه مصر اليوم يمكن أن تعبّر عنه بهاتين اللفظتين، و إن المخبرات مع الخرطوم أصبحت من قبيل المستحيلات، ثم قالت نعم إن الحكومة الإنجليزية صرحت بأنه لا يمكنها إرسال عساكر إلى السودان قبل مضي أربعة أشهر، ولكن عليها أن تنظر في واسطة أخرى لإزالة ما جلبته على مصر من الفوضى.

أنجح الوسائط ترك البلاد لأهلها و تفويض الأمر فيها لصاحب الحق القانوني على تلك البلاد و من له المنزلة العليا في قلوب جميع الأهالي، فتسكن له القلوب و تخدم نيران الفتن، و لعل التايمس بعد أيام قلائل ترجع إلى موافقتنا على تأكيد بغض المصريين للإنجليز و قد تنكره علينا من خمسة و عشرين يومًا و تبالغ في ميل الأهالي لسيادة الإنجليز عليهم.

ذكرت الجرائد أن جاسوساً وقف على عزيمة عثمان دجمة في جهة سواكن فجاء و أخبر بأنه مستعد أن يزحف بألفي مقاتل إلى هندوب لقطع الطريق، و أنه بعد ذلك لا يقف دون الهجوم على حدود سواكن بشدة عنيفة.

جاء في جريدة التان أن دخول الثائرين في مدينة بربر و إن لم يتحقق الآن بطريقة رسمية إلا أن ما أخبر به وكيل إنجلترا السياسي في تلك المدينة يقطع كل ريب و

يزيل كل شك في أن الخطر نازل بها لا محالة فإن قسمًا من حاميتها فرّ لطلب النجاة و الباقي انضموا إلى صفوف الثائرين جبهة وإنا نرى حلول أشياع محمد أحمد بمدينة بربر يهيبىء لهم أن يطئوا قلب مصر العليا وليتهم يكتفون بهذا ولكن ستطمح أنظارهم إلى مصر السلفية. وإن ضباط الحامية المصرية في أسوان وردت إليهم مكاتيب من أحد زعماء الثورة بناء على أمر محمد أحمد ينذرهم فيها بسوء العاقبة و يتوعدهم بالقتل و الذبح إن لم يتركوا المدينة قبل عشرة أيام، ثم قالت تلك الجريدة إذا اجتمعت قوة محمد أحمد عند الشلال الأول فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة!!

هذا الذي كنّا نتوقعه و نخشاه من قبل و أشرنا إليه مرارًا، جلته الحوادث و نطقت به الجرائد الفرنسية و الإنجليزية و لم يبق إلا التفات تلك الجرائد إلى دواء هذه العلة و علاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالاً و تنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة و التبصر و ترشيدها إلى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج إنما هو تسليم الأمر لذوي الحق فيه و العارفين بطرق تصريفه من المسلمين، و سترها بعد أيام تتبع هذا السبيل المستقيم.

### فرصة سانحة

دخيل الإنجليز مصر فزعموا أن ما كان موجودًا من الجند الأهلي نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه، ثم اختاروا من الأهالي جنودًا جديدًا في عدد قليل و استلم الرئاسة عليه ضباطهم البارعون و بعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام و سرعة النجاح و طنطنت بالإطراء عليه جرائدهم و لم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد، فهموا بذلك مرارًا مع العزم على عدم استبداله بآخر من أبناء الوطن و كلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن همهم، كتموا أمرهم زمانًا ثم عادوا للإشارة إليه تعلقًا بما ينسبونه إلى بعض العساكر و هو من دسائسهم، و آخر الأمر خفتت أصواتهم و أحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد

الحامية الوطنية و علموا أن لا بد فيه من مشورة الدول.

في هذه الأيام رغبوا إلى الدول في عقد مؤتمر للنظر في قانون التصفية و تحويله و وضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا في لائحته المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطني رعاية للاقتصاد و بلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية.

إن الإنجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق في المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذي حصل في مصر و ألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم في ذلك الانقلاب و دافعوا عن الدائنين و زعموا من المحال تنقيص شيء من الفوائد و طلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين و اليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) و بسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية. أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج و تصون داخلها من الغوائل التي لا يأمن طروقها حكومة من الحكومات. إن في تلك القسوة الأولى و المرحلة الثانية لسرا عظيماً.

للإنجليز في مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم في الهند، و في خلدتهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية و قوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعون فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية في تلك الأوقات و ألجئوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف في القوتين المالية و الجندية فتمد لهم طريق ما طمحووا إليه. و كان هذا التدبير سبباً في الانقلاب الذي تبعته هذه الحوادث الهائلة و بعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة في مصر طفقوا يسعون بما جبلوا عليه من الهوينا في المضي إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم و مأموريهم في تلك البلاد زمناً طويلاً، و يكون وضع ذلك العنوان برأي الدول تملصاً من الوعد الذي وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة في أوروبا لعل حادثة منها تساعد على إبدال العنوان بما هو

المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية. و لما كان من المحتوم في آرائهم بقاء عساكرهم في الديار المصرية فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصري حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين و غفل عنها كثير من الأوروبيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنجليز و هي التي سلكوها في البلاد الهندية و نالوا بسلوكلها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة و لا مقاومة فتن شديدة. دمر الإنجليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم و انبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء و إغراء كل نواب أو راجا بالاستقلال و الانفصال عن السلطنة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره و التغلب على ملكه فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أو راجا إلى المال و الجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر و انبساط النفس و مددوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين و بسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب و قبضوا بالأخرى على سيف الغلب. بدءوا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية و رموها بالضعف و الجبن و الخيانة و الاحتلال ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية و قوادها و ما هم عليه من القوة و البسالة و النظام حتى اقتنع كل نواب أو راجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنجليزية، فأقبل الإنجليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه و فوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز و يكون بعض الجنود من الهنديين و بعضها من البريطانيين و ما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها، ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم و بهرجة و عودهم و لين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شرّ بعضهم عن بعض و صار الإنجليز بذلك أولياء المتباغضين و سموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها، ففرقة سموها (عمرية) و أخرى سموها (جعفرية) و غيرها سموها (كشتية)

إرضاء لأهل السنّة و الشيعة و الوثنيين.

و لما فرغت خزائن الحكام و قصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنجليز خزائهم و تساهلوا مع أولئك الحكام في القرض و أظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة و بعضهم بدون فائدة و ينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء و بعد مضي زمان كانوا يومئذ إلى طلب ديونهم بغاية الرفق و يشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون و القيام بنفقات الجنود يصعب عليكم و نحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها و نستوفى منها ديوننا و ننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء و الاستغناء و إنما نحن خادمون لكم. فيضعون أيديهم على غضروات<sup>(١)</sup> الأراضي و فيحائها، و في أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة و حصوناً منيعة كما يفعلون ذلك في ثكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، و في خلال هذا يفتحون للأمرء أبواباً من الإسراف و التبذير و يقرضونهم و يقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يحضون نار العدو بين الحكام لتتشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، و هم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق و الناصح الأمين لكل من المتغالبين.

و بعد هذا فلهم شئون لا يهتمون بها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية و يخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته و اضمحلت جميع القوى من الحاكم و المحكوم و غلبت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكاً. ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيف تلك العساكر التي كانت حامية له و اقية لبلاده و كانت

١. معناها أخصب الأراضي.



تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة و ينفق على صقالها من ماله ثم خلفوه على ملكه و كانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون المالك و يولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم أمتيازاً فيحولون الملك من الأب لابن و من الأخ لأخيه و من العم لابن أخيه و في الكل هم الرابحون. هذا سيرهم في الهند و هو على بعد من مراقبة أوروبا. ما فاجئوا أحداً بحرب و ما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة و لا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها و لا أهلها و لا بما تطرف به أجفانهم.

أولئك الإنجليز باقعة<sup>(١)</sup> العالم و أحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية و أرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغني عن حامية فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً إنجليزيا يكون خادماً له و حافظاً لملكه فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول و تكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا. هذا سر انقلاب الإنجليز على الجند الوطني و قدحهم في سيرتهم بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية و العلل الواهنة.

أما المؤتمر فالداعي إليه أن العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقاب الخالية مشوّه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكي و الغبي، بل من أراد عدواناً فلا بد أن يحفّه بمواكب من الأدلة و حفال (جمع) من البراهين و هو ما يعبرون عنه بالحقوق و المصالح، و ما أصعب الوقوف على كنه العدوان و هو في هذه الحيلة و تلك الهيئة الجميلة.

يريد الإنجليز عقد المؤتمر و يرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية

١. باقعة بمعنى داهية من الدواهي.

ليضمنوا ديون القطر المصري و يكفلوا للدائنين أداء حقوقهم و يأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول الإقامة في وادي النيل إلى أمد، فيكون تفويض الدول حجة لهم في التصرف و إدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مضلاً بلاد أوروبا، فإذا حدث حادث حرب في الدول الأوروبية - و ما هو بعيد الوقوع - تربعوا في تلك البلاد و أناخوا بكلاكلهم و ضربوا بجرانهم على أراضيها و ألقوا عصاهم. هذا سر شفقة الإنجليز على المصريين و هو سرّ رغبتهم في وقوف المؤتمر عند شئون المالية.

هذه المصيبة العظمى و الداهية الدهماء التي تتحضر لتتقض على المصريين، هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا، كلا. فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية و هي في الشغل بما هو أهم منها و ليست دولة أستراليا بأقرب المصائب المصرية من ألمانيا على أن كلا من الدولتين ليس في استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل، لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها فإن مواقع الدولتين لا تساعداهما على الإضرار بدولة الإنجليز، أما إيطاليا فهي ساكنة الجأش بما تؤمل نواله في إفريقيا بمساعدته إنجلترا، نعم لهذا السيل الجارف تدفق على بيت محمد علي باشا فيخشى على أركان ذلك البيت لو لم يتدارك أمره!!

أما الدولة العثمانية فلو حولنا النظر عن حقوقها الثابتة في الأراضي المصرية من وجوه كثيرة، فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأراضي هي الركن الأعظم للسلطة العثمانية في سوريا و قسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرى و في الحجاز و اليمن. فمن المفروض على العثمانيين أن يبذلوا و سعيهم لصيانة مصر دفاعاً عن حقوقهم المقررة و حفظاً لشوكتهم في معظم ممالكهم، و لا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا في المسألة المصرية لا في جزئي منها و لا كلي؛ فإن مصر عقدة تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية، فإذا انحلت، فقد انحلت (و العياذ بالله) سائر العقد.

ليس لعثماني أن يتوسد و سادة السيادة البسماركية الناعمة، فإن الحاجات

الطبيعية و الدواعي الجوهرية هي الحاكمة على الأمم و لا اعتبار في السياسة بالأطوار العارضة، ربما يهم بسمارك أن يشتري بمصلحة العثمانيين و داد الإنجليز لتأييد سياسته و ترك فرنسا منفردة بلا حليف و له أن يلقي بمصلحة العثمانيين في أيدي الروس إذا مست الحاجة ليدفع عن نفسه شرا يتوقعه، و ليس لبسمارك أدنى غاية في الاتصال بالعثمانيين إلا بهذا المقدار يفدي بهم منفعة من منافعه. و من نظر إلى أحوال الأمم بما تقتضيه طبائعها، حكم بذلك حكماً قاطعاً.

نعم من الدول دولة فرنسا كانت لها مزايا في أرض مصر أشرفت على الزوال و ليس بالسهل علينا ضياعها، و لها أملاك واسعة فيما وراء البحر الأحمر و لا تصان سلطتها على تلك الأملاك إذا نشبت أظافر الإنجليز في أحشاء مصر بأي اسم كان و تحت أي عنوان، فأصول السياسة الفرنسية لا تسمح للفرنسيين بالتساهل في المسائل المصرية. و دولة الروس تسابق دولة إنجلترا في النصر و الغيب بشرقى آسيا، و تنافس الألمان في القوة بأوروبا و لها مع ألمانيا مزاحمات خفية ثابتة في عناصر الأمتين لا يزيلها هذا التآلف الظاهري، فقد يكون من أحكام سياستها الانضمام إلى دولة فرنسا لمضايقة إنجلترا في البلاد المصرية، بل النظر في طبيعة حال الأمتين يقضي بلزوم اتحادهما في المشكلات الأوروبية أيضاً و ربما تكون هذه المسألة بداية الارتباط بين هاتين الدولتين.

و لعل هذه الفرصة لا تفوت العثمانيين و لا تحجبهم الحوادث الماضية عن إدراك هذه النكته، و هي أن الروسيين هم أشد الناس حاجة إلى الاتحاد مع الدولة العثمانية في هذه الأوقات لما فُتح لهم من أبواب للغنم في آسيا و يرون الألف مع العثمانيين أعظم عضدا لهم في نيل مطامحهم بتلك الأقطار، بما للسلطان من المنزلة العليا في قلوب مسلميها و لا تأخذ العثمانيين رجفة من إرعاد الإنجليز و إبراقهم فليس لهم سلاح يشهرونه على الدولة العثمانية سوى الترهيب. و من المحال أن يفتاحوها بحرب و إلا تقلصت سلطتهم عن البلاد الشرقية بأسرها. فإذا ثبتت الدولة في مطالبها و اشتدت في إرجاع حقوقها لجأ الإنجليز للخضوع و الاستكانة إليها و هذا من

البديهيّات الجلية عند كل من وقف على أحوال الإنجليز في الهند و على مكانة السلطان العثماني في قلوب الهنديين عمومًا، و الحكم لله يفعل ما يشاء.

### العروة الوثقى

لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا و مدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم و بين ما يجاورهم في أوطانهم و يتفق معهم في مصالح بلادهم و يشاركهم في المنافع من أجيال طويلة، فليس هذا من شأننا و لا ما نميل إليه و لا يبيحه ديننا و لا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عمومًا و المسلمين خصوصًا من تطاول الأجانب عليهم و الإفساد في بلادهم. و قد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب و أذلوا أهلها أجمعين و استأثروا بجميع خيراتها، و سنكتب مقالة مفردة في هذا الباب إن شاء الله.

### إسماعيل باشا

لهج كثير من الجرائد الأوروبية في هذه الأيام بذكر إسماعيل باشا خديو مصر السابق، و منها جريدة (البال مال جازيت) قالت: إما أن تستولي إنجلترا على مصر أو تسلم الإدارة فيها لإسماعيل باشا. و نقل أحد محرري هذه الجريدة عن مدام توفيكوف و هي صديقة شهيرة لمستتر جلادستون أنها قالت له: إن أحسن وسيلة لتقرير الراحلة في مصر و جعل مصر للمصريين هو إعادة إسماعيل باشا إليها. و ذكرت إحدى جرائد ألمانيا أن كلامها يكاد يكون رسميًا.

أما نحن فسنبين رأينا في هذه المسألة و نبدي فكرنا فيما يتعلق منها بالسلطان العثماني والطريقة التي ينبغي أن يسلك فيها و ما يرتبط منها بمصلحة المصريين و ما يجب على إنجلترا أن تأخذ به لو كانت كما تزعم تريد التخلص من ورطة المسألة المصرية و لا نظنها صادقة.

## نجد

كتب إلينا أحد أهالي نجد رسالة طويلة يحكي بها ما فعله قنصل الإنجليز مستر (كورنل بيلي) الذي كان قنصلاً لدولته في خليج فارس و مقره ببندرا بوشهر و ما توسل به للمداخلة في بلاد نجد في سنة ١٢٨٠ أيام كان أمير نجد الأمير فيصل، و قصد برواية هذه الحادثة تنبيه إخوانه المصريين لشدة المشابهة بين تلك الوسائل التي تشبث بها القنصل للتدخل في سواحل البلاد النجدية و بين ما اتخذته الإنجليز وسيلة للهجوم على أرض مصر، إلا أننا لا نذكرها الآن لقدم عهدا و سنفرد لها و أمثالها كتاباً مخصوصاً نفصل فيه ما فعل الإنجليز في البلاد التي حاولوا الاستيلاء عليها و لم يستطيعوا مع استمرارهم في طلب ما يمكنهم من مقاصدهم، و نطبع هذا الكتاب و نوزعه مجاناً!!!

## الصُحف الهندية

جاءت إلينا الجرائد الهندية فسرنا اعتدال سيرها في خدمة أوطانها وزادنا سروراً عنايتها بترجمة مقالاتنا المتعلقة بأحوال الشرقيين عموماً و المسلمين خصوصاً و نقلها من اللسان العربي إلى اللسان الهندي، فله شكرها على ما صنعت و نخص من بينها جريدة (أخباردار السلطنة) التي تطبع في كلكتة و جريدة (مشير قيصر) التي تطبع في لكهنؤ. و هذا كان أملنا في أرباب تلك الجرائد و ليس بغريب على غيرتهم الدينية و الوطنية.

هذا ما كان من مسلمي الهند و هم في قبضة الإنجليز من مدة تزيد على قرن. و إننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا عن بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً و رهبة، مع أنهم أحق الناس بالإقدام على أمور عظام في هذه الأوقات، فإن الآمال في خلاصهم قوية و الوسائل إليه قريبة فكيف يصل ببعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم، إذ أهم ما فيها الدفاع عنهم.

### صفقة خاسرة

كتب إلينا صديق فاضل من أخلص المؤمنين بالقطر المصري قال:

إن مأموري الإنجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون في تغريب الأهالي و التحيل عليهم و دس الدسائس بينهم بطريق مختلفة من الترغيب و التهريب، كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنجليزية، إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون في سعيهم إلا خيبة لأن العلماء و أعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنجليز و مقاصدهم و علموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصًا و أن روح الحمية و الغيرة الدينية و الوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالي القطر المصري فاشتدت أنفتهم من تسلط الإنجليز في ديارهم و قاموا مطالبهم بعزائم ثابتة و قلوب غير واجفة و هذا هو ظننا بل يقيننا في أبناء القطر المصري، علمائهم و أمرائهم و حكامهم و أعيانهم و أوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنجليز رغبتهم و أن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم، بل ببقاء شخص منهم في بلاده و على مرمى نظره، فإن وجد بينهم شخص يتخذ إلهه هواه و يميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته في إفناء ليله و أطراف نهاره فلا يثقون به، و مما أخبر به الصادق أن كليفور لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة و سخافة الرأي ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده، لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح في تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقي ممن يسلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم، فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبي، فكيف لو كان الأجنبي لا يقاس بظلمه ظلم، ثم قال صديقنا الفاضل: زاد الويل أضعافًا على الأهالي بالمجالس المحلية، فإن الإنجليز لم يراعوا في تشكيلها مصلحة الرعية و إنما وضعوا في جوهرها ما يضيق عليها سبل المعاملة إخمادًا لنفوسها لينالوا حظهم من السيادة عليها و لم يعلموا أن بنس الحقوق من أشد موجبات العقوق، و في الأمثال العربية: (زر كلبك للطاق يأكلك) أي ضيق عليه. أما الفلاحون فأحوالهم سيئة، ضيق و ضنك و فقر و إعدام

مما يفتت الأكباد و يذيب القلوب و يفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال و ملجأة إلى تكليف الفلاحين بدع ما عليهم، و الأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم و الكساد و رخص أسعار الحبوب و ثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلا عن أداء المطلوبات، فകيلة القمح بستة قروش و الذرة بأربعة و على هذا يقاس. و من ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدالين في فناء ديوان الحفانية على خراب بيوت الفلاحين، هذا ينادي على بيع أراضيها بأسرها و هذا ينعق عليه بمبيع بعضها، و الآخر بالحجر على أملاكه و الحكومة لا تني في طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات، أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصا من تعديات الأجانب على سكانها، فالمنازعات و المخاصمات بين الأجانب و الوطنيين يقضي فيها على الوطني بالتغريم و الجزاء و لا يؤخذ على الأجنبي في شيء و إن كان هو المعتدي، و إن سأل الوطني أين خصمي فيقال له إنه يحاكم في محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسا و اكتفى في فصل الدعوى بأحد الخصمين و هو طرز من الحكم جديد. هذا بعض آثار العدالة الإنجليزية، و جاء في خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التي أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنجليزي في إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولي الأمر من المصريين. أما الأمن فلم يبق له أثر و أما النظام قد انقض بئاؤه و اقتلع أساسه و اختزن الإنجليز أنقاضه في خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص و جاهرُوا بالتهب و السلب و هذا خبر تؤكد روايات الجرائد الوطنية عربية و إفرنجية، فإن جميعها يشتكي الملل و السامة من رواية أخبار السوء كان يوم. إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفي من السارقين على قرية نشرت و نواحيها من مديرية الغربية و قتلهم واحداً و أربعين رجلاً، فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلا على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنار نتصور، نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر و هو على كل شيء قدير.

## أخبار سياسية

قبلت الحكومة الفرنسية أن تدخل في المؤتمر لكن على شرط أن لا تذهب إليه مغلوله اليدين غضيضة الطرفين، و أن لا بد قبل ذهابها إليه من مخابرة بينها وبين إنجلترا فيما يلزم أن يكون موضوع البحث في ذلك المؤتمر. و قد أجمع السياسيون في فرنسا على ضرورة امتداد البحث إلى ماوراء المالية من إدارة البلاد المصرية و إقرار الراحة فيها.

الجرائد الإنجليزية تظهر خوفها من تشديد فرنسا و تستنجد أوروبا و ترى أن تدخل الدول جميعها في مصر و إقامة مراقبة دولية لحكومتها لا تمتاز فيها دولة من دولة خير من مداخله فرنسا وحدها مع إنجلترا، و إن عارضت ذلك جريدة التايمس وحدها. و في بعض الجرائد الروسية أن إنجلترا لا يمكنها أن تضع حمايتها على مصر لظهورها عجزها عن إدارة البلاد بعد احتلالها ستين و هي مطلقة التصرف لا مزاحم لها، و بعد العجز لجأت إلى دول أوروبا. أما دولة فرنسا فلا يهمها إعادة المراقبة المشتركة بين الدولتين ولكن يهمها أن لا تخص إنجلترا بالامتياز في مصر.

ذكرت كثير من الجرائد الألمانية نقلا عن مصدر يوثق به أن الباب العالي لم يقبل الاشتراك في المؤتمر إلا على شرط أن تكون المداولة فيه غير واقفة عند حد المالية بل من اللازم أن يكون موضوع نظره لائحة جرانفيل المرسلة إلى الدول في يناير سنة ١٨٨٣ (عندما كان دوفرين في القاهرة). و على هذا فالدولة العثمانية تطلب النظر في المسألة المصرية بجميع فروعها لاتصال بعض أجزائها ببعض، و في جريدة الثان أن الباب العالي بعد مخابرة الدول و الاتفاق معها خصوصاً دولة فرنسا أرسل تلغرافاً إلى موزوروس باشا السفير العثماني في لندن بأنه مستعد لقبول المؤتمر على شرط أن يكون بحثه في الشؤون المالية و السياسية و الإدارية.

في جريدة (جازيت ناسيونال) الألمانية أن سير فرنسا في المسألة المصرية موافق لسير جميع الدول لا سيما ألمانيا، و قالت إن إنجلترا أصبحت منفردة و هذا مما لا يسر ألمانيا.



استفيد من خطاب المستر جلاستون في مجلس البرلمان أن لنواب الدول عند اجتماعهم أن يبحثوا فيما سوى المسألة المالية إن أرادت الدول ذلك و إن كان هذا يناقض ما صرح به جرانفيل في جلسة أخرى، ولما سئل جرانفيل عن هذا التناقض أعرض عن الجواب و قال إن الحكومة مستعدة لإنقاذ چوردون (هذا مما يضحك). أخبار السودان تشعر بالشدة فقد أخبر الحاكم في دنقلا أن رسلا بعثوا إلى الخرطوم فعادوا و لم يتمكنوا من الوصول و قالوا إن الثائرين محدقون بچوردون من جميع الجهات. في برقية من القاهرة إن الثائرين مجتمعون في عيون أبي سعيد على القرب من أسوان و إن زعماء جيش محمد أحمد طلبوا من حامية دنقلا أن تسلم بعد ثلاثة أيام و إلا فتكوابهم.

جرت مشاجرة بين بعض العساكر الإنجليزية و بين العربان النازلين على شواطئ بحيرة مريوط و قتل فيها عدة أشخاص.

الأخبار متواترة بأن عثمان دجمة يحاول الهجوم على سواكن و ينازل بعض القبائل التي لم تدعن لدعوة محمد أحمد على القرب من طمانيب. المستر جلاستون وعد بأن يرسل جيشاً إلى السودان لكن لا بد من مراعاة الفصول و الأهوية ثم أظهر تجافيه عن حرب السودانين الذين يدافعون عن حريتهم و بلادهم.

### المسألة المصرية دولية

إننا أنذرنا الإنجليز خطراً قريباً على الهند و نبهنا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم ربما يحمل تركمان سرخس على الاقتداء بهم، و أشرنا إلى ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الإنجليز، و اليوم وقع ما توقعناه فاستولت روسيا على سرخس و تاخمت بحدودها حكومة الأفغان و ارتعدت فرائص الإنجليز و غشيهم الفرع و القلق و أعولت جرائدهم نحيباً ورددت نشيجاً و أحست بقرب الأجل و لم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة پترسبرج

الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم يشترك بين مدينتين قديمة و حديثة و إنما دخل في حوزة الروس، أولاهما فإن الإنجليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة (نهر تجند) عرضها عشرة أذرع بالتقريب، على أن سرخس التي حكم مهندسو حرب الإنجليز أنها باب الهند من طرف الشمال و أنها ممر فاتحيه من زمان قديم و من طريقها طرق الهند إسكندر الأكبر و نادرشاه الإيراني، و أن وصول الروس إليها مما يخرق سياج الهند إنما هي سرخس القديمة. و مما زاد الإنجليز فزعاً و اضطراباً أن التركمان النازلين بتلك المدينة و ما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً و اختياراً و بعثوا و فداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندكوف حاكم ما وراء بحر الخزر من الولايات الروسية و وصل الوفد إلى عشقباد و أقام بها ينتظر قدوم البرنس إليها.

وقع الإنجليز الآن بين شرين عظيمين: خطر عاجل و حتف آجل، أما الثاني، فهو أن روسيا إما أن تتحد مع الأفغانين و تحالفهم على مطاردة الإنجليز، و هو الأقرب المتوقع فتصير معهم يدًا واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الإنجليزية، وليس بخاف ما يضممر. كل أفغانى لكل انجليزى من الحقد و الضغينة و الأفغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم فكيف إن وجدوا مساعداً قويا. و إما أن تميل حكومة الأفغان إلى الإنجليز و هو من فرض المحال فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الأفغان مثل جمشيدي و فيروزكوهي و بين قبائل التركمان المتناحمين لهم و يعقبها حرب بين الروس و الإنجليز لأن كلا من الدولتين مضطر للمدافعة عن حليفه، بل للروس حق المناضلة عن رعاياها التركمان، فإذا زحف الروس إلى الأراضي الأفغانية تقطعت حبال حين الإنجليز و امتنعت عليهم وسائل الدفاع و هذا آخر حياتهم في الهند.

و أما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروس على سرخس يوقد فيهم نار ثورة يلتمسون في أضوائها طريقاً للخلاص من الضيق و الضنك الذي شملهم، و سبيلاً للنجاة من الويل الذي جلبته عليهم مظالم الإنجليز هذا يكون كما

اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عندما وصل اليه الهنديين خبر استيلاء ناصرالدين شاه الإيراني على هرة، بل انتفاض الهند على الانجليز في هذه الأيام أقرب فإن خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السوداني بل بما يمكن في أهوائهم من الميل إلى تصديقه وإن لهذه الدعوة حملة عن الهند لا يقاومها تدابير دولة بريطانيا.

تريد دولة إنجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد أحمد وتورط الإنجليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين ولكن سيحمل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج الأفغانيين و البلوچيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة و الكويت، بل يبلغونها على وجه أبلغ مما لو سمعوها بأذانهم.

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها أن تنهض بعزيمة صادقة و جأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في المغلوب، و على السلطان العثماني أن يتذكر أنه خلف لأولئك الأسلاف العظام الذين ما أضاعوا حقاً و لا أهملوا فرضاً و يقتضي من الإنجليز حقه و يسترد مصر من أيديهم و يطهرها من جراثيم الفساد و لا يقنع بما دون الحق و لا يدع لهم فيها شأناً إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، و لا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الإنجليز كما فات الإيرانيين الانتفاع بثورة الهند في الأيام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم و إلا لكانوا أوقعوا بالإنجليز و نالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين أن يتلافوا الأمر قبل أن يشب الإنجليز حرباً صليبية بين الحبش و المسلمين على نفقة الحكومة المصرية، ليس للدولة العثمانية أن تتهاون في مطالبها أو تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة و لا أن تخشى في ذلك تهويل الإنجليز و جلبتهم فإن كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الإنجليز كما دلت عليه منشورات الجرائد و رواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم أنه لا توجد دولة من الدول ترضى بأن يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الإنجليز على مصر

أو وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا و دولة الروس. و إليك طرفاً من آراء الجرائد و ما تنقله عن السياسيين. قال مراسل التايمس في باريس: إن فرنسا لم تقبل ولن تقبل أن يكون بحث المؤتمر منحصراً في المسائل المالية، و لقد أصابت فرنسا في عدولها عن طلب المراقبة المشتركة بينها و بين إنجلترا و رغبتها في مراقبة يشترك فيها جميع الدول، فإن في ذلك فوائد عظيمة لها و غيرها و لا أظن أن حكومة إنجلترا وافقت على ما ترغب فرنسا كما لا أظن أن فرنسا تتساهل فيما تريد، و على هذا فإما أن ينعقد المؤتمر و لا تكون مداولاته مقصورة على مشكلات المالية و إما لا يلتئم أصلاً. و لا أمل لإنجلترا إلا في التستر تحت حيلتها و هي أن ترغب إلى الدول عقد مؤتمرين متعاقبين أولهما للمالية و بعده ينعقد الثاني للنظر فيما لم ينظر فيه الأول، و قال مراسل الديلي، تلغراف في ويانا: إن خطاب المستر جلاستون الذي ألقاه في مجلس النواب حرك دول ألمانيا و النمسا و إيطاليا للاتفاق في المسألة المصرية، فصرحت جميعها بأن مصالحها في مصر تقضي عليها العمل في حل هذه المسألة و ليس من سياسة واحدة منها أن تنتظر زمناً طويلاً بعد ما مضى من الحوادث مع ما يتوقع نزوله بمصر من النكبات و استقر رأى الدول الثلاث على المداخلة في وقتها المناسب و قد انحلت ثقتها في مسلك الوزارة الإنجليزية.

وورد من قينا إلى جريدة النان الفرنسية الشبيهة بالرسمية من مكاتبها برقية قال فيها إنه اجتمع مع رجال عظام في تلك المدينة و استطلع أفكارهم في المسألة المصرية، فإذا هم متباينون في الرأي، فمن ظن بعضهم أن الواجب على دولة النمسا أن تأخذ جانباً عن هذه المسألة و توسع المجال لدولة إيطاليا فإنها إن فعلت ذلك أرضت إيطاليا بدون أن يلحق ضرر بمصلحتها و وافقت رغائب ألمانيا، و من رأى بعضهم أن حكومتهم لا يسوغ لها التخلي عن رعاية مصالحها في مصر مرضاة لإيطاليا، بل لا يمكنها هذا و قد أخطأ من يظن أن ليس للنمسا منافع في البلاد المصرية. ثم قال الكاتب: تلاقت مع رجل سياسي له شهرة بحرية الفكر و إصابة الرأي، فمن كلامه إن دلة ألمانيا ربما تجعل المسألة المصرية وسيلة لمرضاة

الإيطاليين بأن تعد لهم فيها مقامًا رفيعًا لأن ألمانيا ليس لها قوة بحرية و لا يهتمها ما يجري في البحر الأبيض إلا بطريق العرض. أما النمسا فإن لها في ذلك البحر مركزًا مهما فحالها من هذه الجهة يخالف حال ألمانيا، على أن حركات السياسة البرية لا بد أن تقذف بها إلى ذلك البحر و هو مما يزيد لها حرصًا على تعزيز جانبها فيه و ليست المسألة المصرية إلا مسألة البحر الأبيض فمن له فيه. شأن يراعيه فله الشأن في المسألة المصرية، و على حسب درجة الأول تكون درجة الثاني. ثم أطال الكلام في بيان المنافسة السياسية بين دولة النمسا و إيطاليا و ما يطمح إليه نظر كل منهما، غير أن هذا ليس مما يمنع الدولتين عن الاتفاق في معارضة الإنجليز و خفض منزلتهم في مصر و البحر الأبيض. أما جرائد فرنسا و رجال سياستها فعلى رأي واحد في وجوب تحويل المسألة المصرية عن وجه كونها إنجليزية إلى وجه كونها دولية أوروبية و ارتاحت لهذا نفوس الدول و مالت إليه أفكارهم. نسأل الله حسن العاقبة و إليه المصير.

### العروة الوثقى

#### مصادرتها في مصر و الهند و فرض غرامة على قرائنها!!

انعقد مجلس الوزراء المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضيًا عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية و تراقب جولاتها في تلك الديار. فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة في ذلك، و بلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغًا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة و عشرين جنيهًا (و هي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز في مصر!!). أما نحن فلا نظن أحدًا من الوزراء المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى على كرسي الخديوية ميلًا إلى مثل هذا الحكم و لا يختلج في صدورنا أن مصريًا من أي

مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبًا من العدل.

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين و الاستنجد لهم، ولها سعي، بل كان السعي لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصيح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عمومًا على الصفاء والوداد. تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواها لالتهامهم. ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب. هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلمًا أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره؟! ولكننا نعلم أن حركات الأمرين في القطر المصري هذه الأيام قهرية لا يخالطها شيء من الاختيار، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الإنجليز.

ولا نريد أن نقول للإنجليز إنهم ظلموا في الحكم، فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساوئهم و بيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم، لأنهم - الإنجليز - الذين أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه و يسأله: هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا، فإذا أجابه: إنني درویش ملازم العزلة على الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لأنه كتاب ديني ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه و لم يبدل عقيدته و لم يبادر بإرسال تحريفه و تبديله و خروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع لطبع و ينشر، بعثت به الحكومة إلى جزيرة أندومان نفيًا مؤبدًا.

و لو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين، فدولة الإنجليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم و ما يمكن أن يهيجس في حديث نفوسهم لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام في جريدة كافيًا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصًا علق هذا الاسم من أي جنس كان. فلا غرابة في صدور مثل هذه الجور منها غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم و ليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة، ذلك بعزائم أولي العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

بلغنا أن بعضًا من الناس يسئل سيفه و يشخذ سنانة لمناضلة الولي الحميم، و يقابل ثناءه بالذم و مدحه بالقدح و إحسانه بالإساءة، و يواجه نصيحته بالظن، و لا نظن أن هذا منه عن عمد و لا إغراء عدوه، و إنما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه و كانت له مثابة إلى الحق و ركون إلى الصواب.

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصري، و ليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع. فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين و إنما منشؤه حكومة إنجلترا و شأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها.

### تصرف الإنجليز في الهند

لا أريد بما أكتب في هذا المقال القصير تنفير قلوب المصريين من سلطة الإنجليز فإن لي يقينًا بأن المصريين الذين أنبتتهم أرض مصر لا يذعنون لولاية الإنجليز؛ عليهم، بل يعارضونها بأرواحهم و أموالهم و لهم من الغيرة الدينية و الوطنية ما يحملهم على ذلك، و إن رأوا من عدلها ما لا يصل إليه إنصاف أنوشروان، و يفضلون

ولاية مواطنيهم وإن مسهم منها أنكى ما يكون من الحيف اللهم إلا قليل ممن فسدت أخلاقهم و انتكست طباعهم و قليل ما هم، وإنما القصد كشف ما تدعيه هذه الدولة العظيمة من العدالة و ما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الإنسان.

إذا أشرف السائر على أي بقعة من البقاع الهندية الواسعة شخص بصره و دهش لبه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع و ما منحها من الخصب الطبيعي، حتى أن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأفنان، تظل الواحدة منها امتدادًا واسعًا من الأرض و كأن أديم الأرض بما استوى عليه من أنواع النباتات قد بسط عليه بساط من السندس الأخضر فيخيل للناظر أن سكنة هذه الأراضي في خفض من العيش وسعة من الرزق بل يظنهم أسعد من عمر الغبراء، ولكنه إذا تجاوز السهول و الأدوية إلى المدن و القرى ضاق صدره و تفتقر قلبه من مناظر سكانها. يرى آلافًا مؤلفة يعبرون في الشوارع و الأزقة جيئة و ذهابًا حفاة عراة بادية سواتهم، كاسفة أحوالهم، لا يجدون رمة من العيش. يلتبس الواحد منهم عمالًا من الأعمال الشاقة يقضي فيه نهاره و بعض ليله ليصيب من الأجر عليه ثلاث فرنكات في الشهر بل فرنكين و نصفًا و لا يتيسر له. و يرى هذه الحال عامة حتى في المدن التي بسواحل البحر على كثرة الأشغال التجارية فيها. و يشتد به العجب عند المقابلة بين خصب التربة وجودة المناخ و سوء حالة القائمين عليها، و يحكم حكمًا لا ريبه فيه بأن إدارة الحكومة الإنجليزية (حامية النوع الإنساني) هي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله. إذا سأل عن حال كثير من أولئك المعدمين الذين لا يملكون نقييرًا و لا قطميرًا، فربما يقف على أنهم كانوا من أرباب الثروة الواسعة و المقدرة السامية و كانوا يسكنون القصور العالية ثم أصبحوا يأوون إلى خصاص بل أقفاص. إذا انتقل الفكر للبحث عن السبب أوصله النظر إلى أسباب كثيرة يرجع جميعها لتصرف الحكومة الإنجليزية و أشدها ظهورًا و فرة الإتاوات (خرج الأراضي) و ثقل الضرائب على كواهل الأهالي، فإن الحكومة قد فرضت على العالمين في زراعاتهم و لم تجعل الأداء على حسب ما تجود به الأرض



كل عام بقدره ولكنها خرصت (حزرت) ما تأتي به كل أرض على درجتها من الخصب و قدرت مبلغًا معينًا تجيبه من العامل في الأرض سواء سلم زرعه من الآفات أو اجتاحتها الجوائح. و قد يستغرق مطلوب الحكومة جميع المحصول بل يزيد عنه و أدائه حتم لا تردد فيه على أي حال، هذا فضلاً عن الرسوم المختلفة التي لا حد لها و لا نهاية و تعرف عندهم (بالتكس) أي الرسوم غير الثابتة أو غير المحدودة، و ربما أتينا على بيانها مع بيان سائر الأعمال بالتفصيل فيما بعد.

في هذا المقام تذكرت شيئاً قد يخطر بالبال، رب غني في مصر يملك مزارع واسعة و إقطاعات كثيرة (أبعاديات و جفالك) فيركن إلى ما تفيض عليه من الرزق و يطمئن قلبه من جهة معيشته و معيشة أبنائه من بعده فيستوى عنده أجناس الحاكمين و لا يبالي بولاية الإنجليز على بلاده حيث سلم له قوته، و هنا أشير إلى طرف مما يعامل به الإنجليز أمثاله في الهند لتكون له عبرة.

أراد الإنجليز أن لا يكون لغيرهم يد على ملك واسع فيما تحت سلطتهم فضربوا على أرباب الإقطاعات رسوماً زائدة يؤدونها عن أراضيهم في أوقات محدودة ثم وضعوا في قانون الزراعة أنه لا يجوز للمالك أن يقيم الدعوى على مزارعيه إذا تاخروا عن تأدية ما شرط عليهم إلا بعد مُضي ثلاث سنوات من وقوع موضوع الدعوى، و إذا خان المزارعون أو أهملوا في أعمالهم أو استأثروا بمحصولات الزراعة فلا يمكن لصاحب الملك أن يخاصمهم في مجالس القضاء إلا بعد مضي تلك المدة، إلا أنه يؤدي ما عليه للحكومة في أوقاته رغم أنفه و إن لم يؤد إليه العاملون له شيئاً. و في قانون المرافعات عندهم أنه إذا مضي على موضوع الدعوى ثلاث سنوات لم تحصل في أثنائها إقامة الدعوى فلا تسمع. فهذا يحمل العاملين في الزراعة على الإضرار بأرباب الأملاك و لا سبيل لهؤلاء إلى استخلاص حقوقهم من أولئك، و الحكومة لا تترك من فريضتها شيئاً و لا تتساهل في طلب أدائها بوجه فيضطر الملاك للتنازل عن أراضيهم للحكومة الإنجليزية (العادلة)، هذه أعمال من تأخذ ريبة في خبرها فليسأل الهنديين عنها. و إن الجرائد الإنجليزية في الهند تنادي

على حكومتها الهندية دائماً بوجوب التخفيف في الوطأة و الرفق في السطوة و تنذرها بأن الأعمال الإدارية و المالية لو دامت على نمطها هذا لا يمضى قليل من السنين حتى يشتد الضيق و الضنك في عموم الأقطار الهندية و يضطر الأهالي لإصلاء فتنة عمومية لا طاقة لدولة بريطانيا بإطفائها ولكن لا يسمع الصم الدعاء.

### نصيحة في الأدب

إذا صادفت ظالماً أو قابلت فاجراً فلا تقل له أنت ظالم أو فاجر!! وردت إلينا من حضرة الفاضل مولوي عبدالغفور شهباز بمدينة كلكتا و هذا نصها: ليس الأدب كما يظن بعض الناس مجموعة قصص تتلى للفكاهة أو أساطير تنقل في المسامرات أو منظوم من القريض يمتاز بحسن الاستعارة ورقة التشبيه مع مراعاة المحسنات اللفظية و المعنوية من التورية و الجناسات و نحوها من فنون البديع أو منشآت و رسائل تتضمن إطرء في المدح أو مغالاة في القدح، فإن جميع هذا بمجرد لا يتصل بمعنى من معاني الأدب، وإنما الأدب في كل أمة هو الفن الذي يقصد به تهذيب عاداتها و تلطيف إحساسها و تنبيهها إلى خيرها لتجتلبه و إلى ما يخشى من الشر فتجتنبه، فالأدباء في الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم بل هم أجنحتها نظير بهم إلى ذروة فلاحها، فإنهم بما يعلمون من طرق التفهيم يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن إدراكها و يسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه و يعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة فتستفيد منه العامة و لا تنكره الخاصة. فيأخذون على الظالم ظلمه و يعظونه بسوء عواقب الظلم، و ينكرون على الفاجر فجوره و يحذرونه مغبة الفجور حتى يردوا كلاً عن غيه بما يرضون من طبعه بدون أن يقولوا له إنك ظالم أو فاجر!! و إذا رأوا في أمتهم عوائد يابأها سليم الذوق أو وجدوا منها أخلاقاً و أعمالاً لا تنطبق على شريعة الفضل و قوانين الشرع عمدوا إلى تغيير العوائد و تطهير الأعراق و أخذوا في ذلك سبلاً متنوعة في إنشائهم تارة بالقصص و الحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة و بهاء الفضيلة و ما آل إليه أمر المتدنيين

بالأولى و ما ارتقى إليه حال المتحلين بالثانية، و تارة بقريض الشعر يخيلون فيه ما يحرك الهمم و يبعث الأفكار و ينبه خواطر الكمال و إحساسات الشرف الصحيح، لا ما يوقظ الشهوة و يقوي الغرور و يخرج الأنفس عن أطوارها. و الأخذ به من وجهه و الدخول إليه من بابه هو الذي سعدت به الهند الأولى إلى أوج المجد و بلغ به العرب أقصى غايات الرفعة و هو الذي وصل بالأمم الأوروبية إلى ما وصلوا إليه مما لا يخفي على كل ذي بصيرة، و إنا نتأسف على ما نراه من أدباء المسلمين و شعرائهم، فإنهم يقصرون منشآتهم و أشعارهم على ما يكون عدا للصفات، إما مذمومة و إما محمودة و نسبتها إلى شخص يريد ذمه أو مدحه، و يحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة و قصص هزلية و بعض تواريخ ماضية بدون أن يلاحظوا تأثير ما يكتبون و ما ينقلون في أفكار الأمة و أطوارها. و رجاؤنا فيهم أن يسلكوا مسالك أدباء الأمم المتقدمة أو المعاصرة لهم حتى يكون للأمة الإسلامية نصيب من فوائد ذكائهم و فطنتهم وسعة بيانهم و طلاقة ألسنتهم، و أن يأخذوا في منشآتهم و أشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخاملة و يحركون القلوب الجامدة و يحيون مكارم الشيم و يوردون الأمة مورد سابقها من الأمم، و إنا نرى بداية هذا المنهج الجديد في بلادنا و نسأل الله حسن ختامه.

### أخبار سياسية

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأنه ورد للحكومة الإنجليزية أخبار عن الجنرال چوردون، إلا أنه كتمها عن المجلس و لم يطلعه عليها و مع هذا فإنها مهملة من التاريخ، و لم يعهد أن مأموراً سياسياً لدولة عظيمة يخابر وزراء دولته بلا تاريخ و لعل ما ألفه الوزراء البريطانيون من التمويه على الشرقيين أصبح فيهم عادة تجري بينهم حتى على أبناء جنسهم و في مجالسهم العالية.

وردت أخبار إلى (الديلي نيوز) مفادها أن جميع القرى في شمال بربر إلى مراوي جاهرت بالثورة و انقطع الطريق إلى بربر، و في خبر آخر أن من الظنون ميل مدير

دنقلا إلى منابذة الحكومة، فقد كان يطلب من أيام مدداً يستعين به على إخلاء المدينة وإنقاذ حاميتها. و اليوم يأبى الخروج منها بل يطلب أن تبعث إليه نجدة يفتح بها البلاد السودانية فتحا جديداً، ثم استبد بما لم يكن من حدود وظيفته، فأرسل بعض ضابط الباشبوزوق<sup>(١)</sup> إلى وادي حلفا ليأتيه ببعض الذخائر والآلات الحربية و نال رسله ألف بندقية و أربعمئة ألف فشك و نهبوا مخازن الحكومة و أحضروا معهم عدداً من المدافع إلى دنقلا. و ربما يعاب على المدير إتيان مثل هذا العمل و يعد من باب الخيانة لحكومته المصرية، ولكن ماذا يصنع بعدما علم أن الحكومة المصرية خرجت عن كونها حكومة وطنية بتصرف الإنجليز فيها و أن حكامها أصبحوا لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن صدق هذا المأمور في خدمته فلا تكون فائدة الصدق إلا تثبيت قدم الإنجليز في بلاده و تأييد ملكتهم عليها فيكون في الحقيقة خيانة لوطنه و بخساً لحقوقه، فله العذر إذا انحاز إلى الفئة الثائرة مادام الإنجليز حكاماً في مصر.

يقال إن محمد أحمد سارمن الأبيض لفتح دكاشيا أو الخرطوم و يغلب على الظن أن مسيره لفتح الخرطوم فإن حل بها حل ببربر و شندي مع هيجان القبائل في الجهات الشمالية ترقبنا عاقبة هائلة أنذرنا بها و حذرنا منها مراراً عديدة.

من رأي أحد المراسلين لجريدة (الديلي تلغراف) أن الجنرال چوردون سيقم في الخرطوم إلى فيضان النيل، فإن لم تأت نجدة يقوى بها على الفوز بنجاح مأموريته، لزمه أن يصعد على النيل الأبيض إلى خط الاستواء. و إنه يمكنه بعد ذلك أن يعمل أعمالاً عظيمة في الأمم الإفريقية القاطنة فيما وراء خط الاستواء. ثم عقب كلامه بأمانني و أوهام لا تنقص عن أمانني چوردون عندما سار من القاهرة إلى الخرطوم.

في برقية من أسوان إلى (الديلي نيوز) أن ابن أخي حسن باشا خليفة و معه شخص آخر فرا من ببربر و كانا منطلقين إلى جهة الشمال فاعتقلهما عرب روباتاب

١. الباشبوزوق، بمعنى الاحتياطي.

بالقرب من أبي حمد.

يقال إن الحكومة المصرية (أو الإنجليزية) تجتهد بوسعها للمحالفه مع قبائل العرب في جنوب مصر ليكونوا لها عونًا على مدافعة سيل الفتنة إذا ارتفعت غواربها على حدود مصر الطبيعية. ولا نظن أن سعيها ينجح لدى العرب فإن ذمتهم ودينهم لا تسمح لهم بمساعدة الإنجليز في تملك بلاد المسلمين.

أبى اللورد جرانفيل أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير بارين فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد جرانفيل سيطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا.

هذا كله و الإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم، وليس يدري ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في الإدارات والتحكم في أولياء الأمور. هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من جرانفيل، ولا يأذن له و يرى أن له أمرًا على الخديو باستيزار فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة!!

في خبر أن الأميرال هفت وصل إلى أدوفا (من البلاد الحبشية)، و أسلفنا أنه كان في نيته إغراء ملك الحبشة بإيقاد حرب صليبية يهلك بها أمم العالم فداء لشهوات الإنجليز، إلا أنه جاءت الأخبار بعد هذا أن الأميرال لم يصادف سعة من صدور الحبشيين و أن الملك يوحنا وقف على خديعة دولة إنجلترا و لم يظهر عناية بما أتى إليه الأميرال و لم يبعث لملاقاته أحدًا بل أظهر الحبشيون غاية الخشونة في معاملة الوفد الإنجليزي حتى أنهم امتنعوا عن بيع المأكولات لهم و قد ذكرت بعض الجرائد صورة المعاهدة التي يراد عقدها مع ملك الحبشة و لا يهمنا الآن ذكرها.

هجم جماعة من الثائرين على سواكن في التاسع عشر من هذا الشهر وزحفوا إلى المدينة حتى صاروا على خمسين مترًا من أسوارها ثم أطلقوا عليها النيران مدة ساعتين حتى أثر الرصاص في كثير من البيوت و لم يتحرك جيش الحماية أدنى حركة لمدافعة هذا الهجوم العنيف. و يظهر من هذا أن انتصار الجنرال چراهام في سواحل

البحر الأحمر لم يكن له أثر وإنما هو قول يذكر ورواية تؤثر و أن غزواته لم تزد  
التأثيرين إلا إقدامًا.

كتب مراسل الثان في القاهرة أن لا صحة لما أشاعته الجرائد من القبض على  
مسيو أو كلي النائب الأيرلندي الذي حملته همته على السفر إلى الأبيض.

### في التواني الهلكة

هذا ما ساقته إليه الحوادث المصرية و هي مفتاح الكوارث الشرقية و فيها  
مغلاقتها. العظام من الدول في يقظة لا سنة معها، و حركة لا فتور فيها، مفاوضات  
متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر، و مجادلات متلاحقة يدأب فيها، السياسيون من  
كل أمة، بعضها بالمراسلة، و شيء منها بالمشافهة، كثرت خلوات السفراء من كل  
دولة مع وزراء الخارجية من سواها، يتهامسون و يتغامزون، و يسرون خلاف ما  
يعلنون، و يذهبون إلى ما لا يقصدون، و قد حمل كل بصره للآخر لعله يلمح من كان  
وجهه ما ينبىء عن مضمرة سره، و يصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله،  
عسى أن لا يفوته شيء ربما يعتل به، و جل ما انصرفت إليه قواهم تمثل الرغائب، و  
تخييل المطامع، في صور أبعداها عن الحقيقة، أقربها إلى الخيال، يعظمون الحقير، و  
يحقرّون العظيم، و يجسمون الموهوم، و يضلون عن المعلوم، و يقربون البعيد، و  
يبعدون القريب، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الأمانى باهرة الأنوار بزهور  
الآمال، و ما نبت بهارها إلا على حبال من المكر، و فخاخ من الخديعة، حتى إذا راقه  
المنظر و خطا خطوة سقط من حيث لا يشعر. هذا يسهل صعبًا، و الآخر يوعر سهلاً،  
و كل يتبع لحاظ رصيفه إذا أحس منه لمحا لمقصده أبرز له ألوانًا من الفوائد  
الموهومة ليستلفته عن مرامه، و إذا شعر منه بفكر يوصله إلى ما يمسسه، فتح عليه  
أبوابًا من الفزع ليزعجه عما يطلبه، و يشوش عليه سيره و يقطع سبيل فكره. منهم من  
يكسب الأصدقاء بمال غيره، و منهم من يستفيد الرفقاء بكف شره، و من الناس  
أقوام آخرون على غوارب أمواج الحوادث نائمون، تغذفهم كريمة و تتلفهم أخرى،

و هم عنها غافلون. زلزلت بهم الأرض زلزالها، و دهمتهم الخطوب بأرزائها، و توالى عليهم المزعجات، و تناولتهم عواصف المفزعات، و هم في سكرة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون، و المقبل على الفوز من هؤلاء و أولئك إنما هو أحزمهم رأيا و أثبتهم عزيمة و أشدهم بشئونه بصيرة.

يقول الإنجليز: إنا عدونا على الهند من زمان طويل فاجتصبنا و حققت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة و قوانين التغلب. و أين ديارنا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا. المسافات طويلة و الشقة بعيدة فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطىء لأقدامنا لنحتفظ بأملنا، فلنا حق في اغتصاب جل العالم لأجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فإن به السبيل التي لا يماثلها سبيل، و ليس لنا عنها غنى و كنا في تطلع إليها من زمن قديم و كثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل إليها فرثت في أيادينا بقوة حكام تلك البلاد حتى هيأت لنا حوادث السنين الأخيرة ما أحلنا دارهم و أقرنا في قرارهم. إنا ذهبنا لتقرير توفيق باشا و تثبيتته على كرسي الخديوية المصرية، إلا أنه بقتال و نزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح، فلنا حق التملك في تلك الأقطار و قد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة و إزالة الاختلال و كأننا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي إنما هو تأمين طريق الهند فتسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل، فثبتنا فيما أصبنا و ليس لنا أن نتركه بعد الوصول. و حيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر و أضربنا عن إخلائها لزمنا ضمانه الديون المصرية و حملها ثقيل على كواهلنا فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة و تكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد و لا نحب أن تكون مذاكرتها معنا إلا في المالية خاصة، فإننا لا نرجو من مفاوضاتها فائدة. أما سائر الشئون فعلىنا تدبيرها و إلينا مصيرها. هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها إلى برلين و يرجون أن تكون مواصلها و معاقدها في تلك المدينة عاصمة الألمان.

أما البرنس بسمارك و هو مدير السياسة في أوروبا و بيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً و ينكي عدواً و ليست له علائق سياسية تحمله على

المدافعة عن مصر و لا منافسة له مع الإنجليز تبعته على معاكستهم، بل له إليهم حاجة في ضمهم إليه و إبعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها، وقد تكون له من صلة الإنجليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا من الحلفاء ينالها يوم لحاجة إليها و ما هو عنه ببعيد، فماذا يضره إذا ادخر عونًا و أساء عدوا و النفقة على خزينة غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا و إيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض و يصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مراعاة إنجلترا لنيل مصافاتها و بين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضيق بالإشارة إلى طرابلس الغرب و بلاد الأرناؤط و الإيماء إلى الأراضي البلقانية و سالونيك و يجلوها لأنظار معاهديه، فيسكن جأشهم و يطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين، و يقلم أظفار روسيا من أوروبا الشرقية و يضع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عمومًا و مصر خصوصًا و في كل ذلك الربح له، و الخسارة على غيره، و ليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها فهي شرعته التي يرد إليها و يصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت.

و فرنسا واقعة بين مراوغات الإنجليز و مكائد بسمارك، لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحي أثرها بمدخلة الإنجليز و بها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين و البحر الهندي و مدغشقر. لهذا تبذل الجهد لإجلاء العساكر الإنجليزية عن مصر و تخفيض سلطة الإنجليز فيها و يوجد لها عون من دولة روسيا و لها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين و آراء ذوي العزيمة من رجالهم و ميل أفئدتهم لمكنها من تخليص مصر و انتزاعها من أيدي الإنجليز سعيًا في حفظ مصالحها و وقاية حقوقها، و هذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية و يشد عضدها في مدافعة الإنجليز و مطاردتهم من بلادها للدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الأوقات لتستنفذ ممالكها من طمع الطامعين و تعيد ولايتها على الأقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين، و أن جميع المسلمين ينتظرون منها الحذق في هذه



المسألة ولهم فيها الأمل القوي و الثقة الكاملة، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون أن ينالوا بها حظهم من الغنيمة، وليس على الدولة من بأس إذا طالبت الإنجليز برد حقوقها كافة، فإنهم بالنسبة إليها أضعف من أن يجاهروها بالعدوان، وإنا نكرر ما قلناه سابقا من أن الإنجليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حرباً خصوصاً في هذه الأوقات التي أصبحت فيها دولة روسيا متاخمة لمملكة الأفغان، فإن أول إشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، و هذا جلي عند كل إنجليزي أن التغافل و الوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسألة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب، و ليس للمصريين في طورهم هذا أن يركنوا إلى من ليس من أبناء جلدتهم، فإن الثغرة التي تحمل على الحماية تكاد أن تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم.

فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية و الاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعنيين بأفكار الدولة التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في إنقاذها و إعادة شأنها الأول و تحقيق ما يقال من أن مصر للمصريين.

و بالجملة فلأطماع فغرت أفواهها، و الأفكار في اضطراب شديد، و ظنون الناس شتى، فمن قائل إن المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا و إنجلترا على القواعد الأساسية للمداولة فيه، و من قائل إنه ينعقد على أن يضع مصر تحت حماية عموم الدول و يقرر إنشاء مراقبة دولية مع بقاء العساكر الإنجليزية مدة سنتين، و على أي حال فالرزية إنما تصيب الغافل، و السوء إنما يحيق بالمتساهل، و الجبان محروم من حقوقه و العامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين و الدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة و الإقدام، و يرفعوا علم الهمة إبقاء لحياتهم، و صوتاً لشرفهم، و الأمر لله يفعل ما يشاء.

### منشور إنجليزي قديم

نشرت حكومة إنجلترا في الهند منشوراً منذ مائة و ثمانين سنة و هذا ترجمته:

إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها إنجليزي (أي لا تليق أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف) وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين الباقين على دين زرادشت (المجوس)، فإن لم يكن منهم مقتدر على القيام بها، أقيم فيها وثني (عابد صنم)، فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها كلف بها مسلم، فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسي والوثني، وهذا هو عنوان محبة الإنجليز وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم، لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار!!

### إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم أن تسود عليها وتستعبد لها وتذلّلها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار، ووجود المقاومة الطبيعية، فضلاً عن الإرادية. إن الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون، تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحريمه، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذل الأمة إلا بإفنائها عن آخرها، أو إفناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزمنى<sup>(١)</sup>. هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة، نعم يسهل للقوة الأجنبية أن تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحي تجتمع عليه قلوبها، وتدين له رقابها، لمنزلة له في أفئدة أبنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم، فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لإيقاع الرعب في قلبه، فيجبن ويقبل ما تحكم به، أو نصب حباله الحيل له فتخدعه بالأمانى والآمال، فيذعن لما تقضي به فإذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتوح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقواد الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في

١. شخص أزمّن أي أتى عليه الزمان.

الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد و التخويف، أو يملكونها بالخدعة و تزيين الأماني، فينالون بغيتهم و يأخذون أراضي الأمم، و هذا الطريق هو الذي سلكه الإنجليز مع السلطان التيموري في الهند، و لو لا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري، و قبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة، لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة.

هذه قبائل الأفغان عندما انحلت ثقتها بأميرها، و صار الأمر إلى الأمة قامت كل عشيرة، بل كل فرد للدفاع عن نفسه، بعدما تمكنت عساكر الإنجليز في قلاعهم و حصونهم، و استولت على قاعدة ملكهم، و فتكوا بالعساكر الإنجليزية و هزموا قواتها و أجلوها عن بلادهم، و هي ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة، المسلحة بأحدث الأسلحة، و اضطر الإنجليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها.

لا ريب أنه يسهل على الإنسان أن يأخذ شخصاً واحداً و أشخاصاً محصورين بالترغيب و التهديد، و يتيسر له أن يقف على طباعهم، و يدخل عليهم من مواقع أهوائهم، و يأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها، و عقولها مختلفة عليه نفوسها في وحشة منهم إلا بالإبادة و التدمير. من هذا نجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أمثالهم بل و من هو أشد منهم قوة ولكنهم يفرقون، بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم، و ما هذا إلا لأن قوة المغالبيين داخلية تحت الضبط، و أما آحاد و قواها فلا تضبط و لا يمكن مقاومتها إذا تغاضت و شحت بنفسها عن الذل لسواها.

إن الأمراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها و علوها و عظمتها و اشتداد عضدها، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها و هبوطها و انحلالها، و إنا نخاف، و لا حول و لا قوة إلا بالله، أن يكون أمراؤنا و الأعلون منا آلة لاضمحلالنا و فنائنا، لما غلب عليهم من الترف و الانهماك في اللذائذ، و الانكباب على الشهوات، مع سقوط المهمة، و تغلب الجبن، و الحرص و الطمع على طباعهم، إن الله و إنا إليه راجعون.

### هجوم على السودان عبر النيل!!

جاء من لندن لإحدى وكالات الأنباء ما ملخصه: لا يظن أحد من الناس هنا (في لندن) أن الجيوش التي عزمت حكومة إنجلترا على سوقها إلى السودان يقصد منها إنقاذ چوردون. فإن چوردون معزز برجال من الوطنيين (المصريين أو السودانيين) أولي عزم وقوة، ولهم سطوة تدفع بأس الذين يبغون به الشر. وإذا مست الحاجة إلى تخليه عن عمله وتركه لمركزه فلا يعدمون وسيلة لخلاصه، أما القصد الحقيقي من بعث الجنود إلى السودان فإنما هو افتتاحه تحت العلم الإنجليزي، وهو وإن كان يحتاج إلى زمن طويل إلا أنه قليل الخطر ولا توجد في سبيله عقبات سياسية حيث تنازلت الحكومة المصرية عن سياستها في تلك الأقطار.

يسهل على العساكر الإنجليزية أن تسير إلى الخرطوم على طريق النيل وإن سلكت سبيلا من الأرض اليابسة فلا تبعد عن شواطئ النهر (لتكون تحت حماية المراكب و ترافقها في السير مراكب تعد لقطع النيل و الصعود إلى الشلالات، فإذا وصلت العساكر و الأساطيل النيلية إلى الخرطوم و استولت عليها اعتصمت فيها حكومة عسكرية تمت نفوذها إلى قلب السودان و يكون في هذا عوض للإنجليز عما يخسرونه في مصر لو ألزمهم المؤتمر بالتنازل عن شيء مما يطمحون إليه فيها.

و قالت جريدة (الريوبليك فرانسيز): إنا نذكر هذه الرسالة على أنها شبه حجة على مقاصد الإنجليز وإلا فإننا نعد ما تحتويه من قبيل الأوهام و الخيالات. اهـ

أما نحن فنقول: من أمعن النظر في أعمال الإنجليز و تتبع سيرهم في افتتاح الممالك الشرقية، علم صحة ما روته وكالة الأنباء. فإنه منطبق على قواعد السياسة الإنجليزية و آت على أساسها الذي بنوا عليه فتوحهم من أزمان طويلة و هو أصل تعارفه الإنجليز حتى صار كخاصية لازمة لطباعهم ترد إليه جميع أعمالهم من حيث يشعرون و لا يشعرون، و عليه كان بناء ملكهم في الهند.

إن الإنجليز أول ما خطوا خطوة في الهند وجدوا مملكة (أود) من الممالك الواسعة و أغلب أهاليها على مذهب الشيعة و لها نواب (حاكم) عظيم من أهل ذلك

المذهب، فأروا أن يحملوه على الاستقلال و زينوا له الطمع في لقب شاه لينفصل عن الملك التيموري. و في التنازع لنيل هذا المطمع يصيب كلا من الطامع و صاحب الملك سهم من الضعف و الوهن فيتهدأ كل منهما للوقوع في مخالب الإنجليز و قد حصل.

و أول ما حلوا مصر و لمحوا شرارة في السودان أدنوا منها و قودها لتكون ناراً مهلكة فبعدما طردوا الجيوش المصرية إيذاناً بالغضب عليهم. جمعوهم ليسوقوهم إلى السودان تحت قيادة أعداء لهم من الإنجليز، فذهبوا و هم موقنون أنهم يساقون إلى الموت ليدوقوا و بال الانتقام فقولهم منكسرة و عزائمهم واهنة و عقائدهم لا تسمح لهم بالانقياد لرؤسائهم الأجانب، و أحس السودانيون و هم مسلمون أن قواد الغارة عليهم ليسوا على شاكلتهم، فزادهم حمية و إقداماً، فكان هذا و ذاك سبباً في استفحال أمر السودان بعد ما هلكت رجال و أنفقت أموال و ساءت أحوال من السودانيين و المصريين، كل هذا ليتوسل به الإنجليز لفصل السودان عن مصر بعد خراب الدارين و كأنهم عندما أرسلوا چوردون باشا و أدنوه أن يمنح محمد أحمد لقب أمير كوردفان قصدوا أن يتمموا عملهم ولكن لم ينجحوا.

و عندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمدخان أمير أفغانستان و بين (رانجيب سنك) البنجابي تخوف الإنجليز من تسلط الأفغانيين على بنجاب فتدخلوا في الصلح و سحروا قلوب الأفغانيين بلىن القول و لطف الوعد حتى أرضوهم بترك مدينة بيشاور و ما يليها لرانجيب سنك. و انعقد الصلح على هذا و أجلى الأفغانيون عن مملكة بنجاب و رجعوا إلى بلادهم. و بعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الإنجليز إلى بنجاب و افتتحوها لأنفسهم و استولوا على مدينة بيشاور فقال بعض أمراء الأفغان إن ذاك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح و إن الإنجليز في تعيينهم للحدود إنما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين.

و من نحو سنة و نصف أوما اللورد دوفرين في تقرير كتبه بالقاهرة، إلى أنه لا حاجة بالحكومة المصرية إلى السودان بل لا فائدة لها فيه، و فهم الغرض في ذلك

الوقت من أصابه، و غفل عنه قوم آخرون اغترارًا بظواهر العبارات، ثم لم يلبث الإيماء أن صار تصريحاً رسمياً وإلزاماً للحكومة المصرية أن تتخلى عن السودان. فلم يكن التلميح و التصريح ثم الإلحاح و الإلزام إلا ليهيئوا البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم في وقت من الأوقات لسبب من الأسباب التي لا يعجزون في اختراعها متى شاءوا!! هذا سير يعرفه من قرأ صفحة من تاريخ الإنجليز في الممالك الشرقية.

تريد حكومة إنجلترا إذا عارضتها الدول في السيادة على مصر أن تنشئ لها سلطة في الخرطوم يمتد حكمها إلى جميع أراضي السودان و عساكرها الآن حالة في سواكن و ما أسرع أن تصل بين المدينتين بالسكة الحديد فتكون القوة الإنجليزية بعد هذا محيطة بمصر من جميع الجوانب. وقفت على بابها من طرف الشمال في قبرص و طوقت حدودها من الغرب إلى الشرق في السودان و تحكمت في منابع النيل و تصرفت في أعلاه و أخذت كل طريق يمكن منه الاستيلاء على الديار المصرية، و هنالك يرصد الإنجليز حركات الدول في أوروبا. فكلما أضاءت لهم بارقة فرصة مشوا فيها، و إذا أظلمت عليهم قاموا فيتقدمون إلى مصر خطوة بعد خطوة و لا يبالون، طال الزمان أو قصر، فإنهم يعرفونها لهم على أي حال، ولكنهم يتقون معارضة الدول في هذه الأوقات. هذه غايات سير الإنجليز في الحوادث المصرية و هي كما قالت (الريبوبليك فرانسييز) خيالات و أوهام إذا اشتدت الدولة العثمانية و رجال مصر في المطالبة بحقوقهم الشرعية و المحافظة على شئونهم و أخذوا بالحزم و عقدوا العزم على مقاومة سعي الإنجليز في أوطانهم و ديارهم بعدما ظهر لهم ماذا يقصدون بهم، فإن تهاونت الدولة العثمانية أو تغافل المصريون حسبها الإنجليز طريقاً مطروقة و سبيلاً مسلوكة، و عدوا مطامحهم حقائق ثابتة و مطالب مقرر، لا نجح سعيهم، و لا صدق ظنهم.

## السودان و مصر

نشرت جريدة البوسفور أچيبسيان، التي تطبع في القاهرة، خبراً - مصدره توفيق باشا نفسه - و هو أن الجنرال چوردون أنذر حكومته الإنجليزية بأنها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحي و يدخل في دين الإسلام!! و ضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا و صفته الجريدة بالعجب). و غرابة الخبر إن كانت من جهة أنه تهديد بما لا يهم الحكومة، فنحن نعلم أن الإنجليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم و إن كانوا يرشدون الناس إلى ترك الدين و يعيبون على المستمسكين به، لكنهم أشد الناس تعصباً فيه فلا محل للغرابة، و إن كانت من جهة أن چورودن، و هو من أشد قومه تمسكاً بدينه، كيف ينجح للإسلام فهو الإنجليزي الطبيعة كما هو إنجليزي الجنس يتلون ظاهره بأي لون و يبرز في أي ثوب لإصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب إن قال و فعل!!

في خبر أن محمد أحمد طلب إلى أعوانه المحاصرين للخرطوم أن يأتوا إليه بچوردون حياً و لا يمسوه بسوء إذا وقع في أيديهم.

و في برقية من أسيوط إلى جريدة التايمس أن مركباً من مراكب البريد وصلت إليها تحمل ثلاثة أشخاص مرسلين من طرف زبير باشا لاستكشاف حالة چوردون و توجهت في الحال بمن فيها إلى أسوان. هكذا الدهر أبو العجب، من سنين قليلة فتك چوردون بأولاد الزبير و ذوي قرابته و أفسد عليه شئونه و أخرجه عن جميع أمواله و اليوم رأينا كدر الضغينة في صفاء المحبة يبعث الزبير على الرأفة بچوردون و توجيه الرسل للسؤال عن صحته و الاستخبار عن سلامة حاله.

جاء الخبر أن أهالي جرجا (مدينة من مدن الصعيد مركز مديرية في جنوب أسيوط) في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة، وورد إلى تلك المدينة رجل من أشياع محمد أحمد قادماً من القاهرة و دعا الأهالي للأخذ بطريقته، فإذا بينهم جم غفير يجيب داعيه و يذهب مذهبه و هو مما يدل على أن القائم السوداني مهتم بنشر

دعوته محتاط لنفسه حاذق في عمله و له دعاة في أرجاء الديار المصرية حتي في عاصمتها (القاهرة). فإن ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها و يشتد الخطب، و لربما صار له بقوة ميل الأهالي إليه منعة يصعب على حكومة غير إسلامية أن تقارعها. أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها و المسيحيين فهو ما لا نصدقه و لا ينطبق على الواقع لأن الأيام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين زمام الآخر في جميع الأحوال التي عرضت على بلاد مصر. المسلمون و المسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها و المقاتل التي وقعت أيام الحرب الماضية إنما كان منشؤها إفساد المفسدين على أنه لم يمس فيها قبضي بسوء، و الأخبار الصحيحة تؤيد ما نقول<sup>(١)</sup>.

و أرسلت الحكومة المصرية الآلاي السابع من المشاه إلى أسوان مع جملة من المدافع الجبلية و عدد وافر من الجمال.

و في برقية من سواكن إلى جريدة الديلي تلغراف أن مناوشات وقعت من أتباع محمد أحمد بالقرب من سواكن، و في جريدة التايمس أن الثائرين أطلقوا مدافعهم على تلك المدينة في الساعة الثانية صباحاً من الثامن و العشرين من شهر مايو، إلا أنه لم يُصب أحد من الحرس و تقهقر المهاجمون بسرعة.

عثمان دجمة - مع ألف من رجاله - نازلون على القرب من طمانيب و معظم قوته حالة بتلك البلدة و يقال إن بنفوس عساكره كدراً من قلة الأزواد<sup>(٢)</sup> و هو من أخبار العدو يسمع و قد لا يصدق.

و إن الأميرال هفت المبعوث من طرف إنجلترا الخديعة الملك يوحنا ملك

---

١. شكر الله فما من زعيم أو مصلح شهدته أرض الكنانة إلا و قد كانت رابطة محبة الأديان رائده. فالتعصب سرطان يفتك بأبناء الوطن الواحد و يشل نشاط أبنائه ... فتنتفح ثغور .. تتسلل منها نفوس عفنة تهدم في الظلام ما تنبيه الأمة في أجيال. و قد حذر الأفغاني مسلمي مصر و مسيحييها من شر هذه الفتنة و هو في باريس، فنعم الرجال و نعم الأخلاق.

٢. يقصد عدم زيادة المرتبات.



الحبشة لم يحظ عند الملك بقبول.

أراد رجال الإنجليز أن يخففوا على القلوب المنخلعة من أبناء أمتهم أهوال السودان و ما يتوقعونه من مصائبه فأشاعوا ظهور شخص يدعى المهدوية في دارفور، و يقول إن محمد أحمد ليس إلا تلميذاً له من قدماء تلامذته، و كان الإنجليز يستبشرون بتفريق كلمة السودانين كما يسرهم تخالف المسلمين أجمعين.

### فرية دنيئة على الإسلام!

في برقية وردت لجريدة الديلي تلغراف من القاهرة في ٢٧ مايو ١٨٨٤ أن زبير باشا طلب إلى سراي توفيق باشا، بناء على إشارة الحكومة الإنجليزية، و التمس منه المستر أجرتون أن يجد وسيلة لإرسال مندوب إلى چوردون باشا يأمره بالعودة حالاً. و اتباعاً لأمر توفيق باشا بعث الزبير بأحد خدمه لأداء هذا العمل و كان فرصة انتهزتها حكومة فرنسا لاستدعاء قنصلها في الخرطوم. و قد ضمن الزبير وصول المندوب و عودته بالجواب في خمسين يوماً. اهـ

إن صح هذا دلنا على أن چوردون ليس معزراً برجال أولي بأس و شدة كما جاء في البرقيات و أن الإنجليز عجزوا عن إنقاذه بقوة حربية و إن كانوا ربما يقصدون الحرب لغاية أخرى.

و نقلت الجرائد الأوروبية ما يعجب من نسبه لزبير باشا. ذلك أنه أشخص ثلاثة من أولاده إلى رؤساء الثائرين و مع كل واحد منهم كتاب إليهم و هذا مفاده نذكره ترجمة من تلك الجرائد بلا تصرف في عباراته:

شكراً للخديو و لدولة بريطانيا العظمى و للجنرال چوردون. كل أملاكنا التي انتزعت منا سترد إلينا. يا أحبابي و يا أهل وطني إنني أبعث إليكم أولادي الثلاثة مصحوبين برقيم إلى الجنرال چوردون فدعوهم يصلون إليه و سلخوا سبلهم، و أقسم عليكم باسم النبي و أسماء أجدادي الذين أكرموا الأسراء أن ترافقوا چوردون إلى كورسكو و أن تعاونوه حتى يعلو متن النيل. كل معاملة تسيء الجنرال فهي تكسر

خاطري إلى الأبد. و أنا و عيالي هنا رهن إلى أن يعود الجنرال چوردون، فإن عاد صحيحاً سالماً فمحمد يحفظكم أبد الأبدین. اه!!

و أنا أتبرأ ما في هذا الرقيم<sup>(١)</sup> و نسبته لزبير باشا، فإننا نعرف الرجل مسلماً فقيهاً في دينه عالماً بفروضة، و هو من سلالة العباس عم النبي - صلى الله عليه و سلم - و في نفسه حزازات مما نكاه به الجنرال چوردون عندما كان حكامدار السودان، و ليس من أحد يحفظ تاريخ چوردون و يحصى سيئاته كزبير باشا، علمنا ذلك منه و هو يتنفس الصعداء من ذكرى مصائبه أيام كنا في مصر، فكيف يمتدح الإنجليز و يشكرهم و كيف يقوم بعمل يعود بالمنفعة عليهم اغتراراً بما وعدوه من رد أملاكه إليه و هو يعلم أن كل ما يفيدهم لا يزيد قدمهم إلا رسوخاً في أوطانه، و من لاحظ أسلوب الرقيم تبين له أنه ليس بأسلوب عربي خصوصاً ما جاء في خاتمته من الدعاء، فإنه لم يعرف في عبارات المسلمين ما يشابهه. فمحمد لا يحفظ أحداً بل الله على كل شيء حفيظ. فلا يبعد أن عدو الزبير أراد أن يشوه سيرته فرماه بهذه النسبة أو أن يكون الرقيم من مخترعات بعض الجرائد الأوروبية للتلميح!!

### صراع بشأن تثبيت الاحتلال!!

و جاء في برقية من برلين إلى جريدة (جازيت دو كولوني) ثبت أن من عزم دولتي فرنسا و إنجلترا أن تتفقا قبل انعقاد المؤتمر على موضوع البحث فيه كما اتفقت دولتا روسيا و إنجلترا على مدار النظر في مؤتمر برلين قبل انعقاده بواسطة اللورد سالسبوري و الكونت شوفالوف. كل من الدولتين المتفاوضتين تمد نظرها إلى ما عسى أن تثول إليه مداولات المؤتمر و تحدده و تقدره (ثم تدخل فيه على أن تكون الغاية ما قدرت).

ربما حلت الدعوة إلى المؤتمر محل القبول عند بعض الدولة إلا أن رضاء الباب

١. الرقيم: الخطاب.

العالي شرط في قبول حكمه و التسليم لقضائه، و لو أن دولتي النمسا و ألمانيا أو الدول جميعها قضت بأن يكون من قواعده الأساسية إجابة جميع الدول التي دعت إليه مؤقتًا لم يكن قاضيًا بوجوب الإذعان لما يبرمه. و هذا هو شأن المؤتمر بالنسبة إلى الباب العالي على أية حال.

و قالت جريدة التايمس، تيسر لوزارة إنجلترا أن تتغلب على مجلس النواب لكن ليس لها أن تعتمد على هذا الظفر الهين و عليها أن تستفيد في مدة البطالة لعيد العنصرة فتتجو بما تستفيده من الخطر العظيم الذي ربما يحقق بها من المفاوضات الجارية بينها و بين وزارة فرنسا، و تساهلت الوزارة في عقد عهدة تخالف مصالحنا مع شركة قناة السويس ثم نجحت في التملص من قيودها و مزقت المعاهدة و تركت مسيو ديلسبس على أرض قفراء و ليس بالسهل عليها أن تسلك اليوم ما سلكت في تلك الأوقات. فلو رفض البرلمان ما انتهت إليه المفاوضات في المسألة المصرية لما أمكن للوزارة أن تبقي في مساندتها. و إذا تعذر الوصول من هذه المفاوضات إلى غاية صالحة أمكن الوزارة أن تتنحى عن العمل، أما فرنسا و سائر الدول فليس لها أن تطالب مجلس العموم في إنجلترا بمنحة شحت بها نفوس أهالي بريطانيا كافة و رفض السماح بها عموم الآراء في بلاد الإنجليز (يريد بالمنحة ما تفضل به وزراء إنجلترا على الدول من دعوتها للمباحثات في أحوال مصر).

### الثبات الثبات

حملت قوة النافرين على مدينة بربر فافتتحتها بعدما فتكت بجميع حاميتها و لم يبق موضع للريب في استيلاء أعوان محمد أحمد على تلك المدينة، و بعد تمكنهم فيها زحف منهم ثلاثون ألفًا لمهاجمة دنقلا، و في برقية من كورسكو إلى التايمس بتاريخ ١٣ يونيو أن محمد أحمد يزحف بنفسه مع خمسة و ثلاثين ألفًا لفتح دنقلا و له أمل في الفوز قبل أن يهل رمضان، و قد بعث برقيم إلى مديرها و سماه أميرًا عليها سنة السلطنة فيها مع ما يليها.

و انقطع الطريق بين دنقلا و وادي حلفا و امتنع سلوكها و أيست الحكومة المصرية من صيانة تلك المدينة فأصدرت أوامرها بتمهيد سبيل لرجوع حاميتها إلى مصر و شعرت حكومة إنجلترا بتعاصي الفتنة فعملت على إرسال نجدة لإمداد حامية الخرطوم، كما أكدته جريدة (المورنج بوست) الإنجليزية قنوطاً من نجاحها، و عثمان دجمة يشتد عضده يوماً بعد يوم و له في كل ليلة هجمات على مدينة سواكن بل و على بعض المراكب في البحر.

أخبار ما نزل ببربر و ما يتوقع نزوله بدنقلا و غارة الثائرين على معسكرات الحكومة في وادي حلفا كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً في أسوان و هيجاناً في خواطر الكافة من أهل الصعيد و ربما يخشى من وقوع ما لا تحمد عاقبته على الناكثين.

هذه مراكب الإنجليز في مصر و هم في أحوالها لا يفترون عن السعي إلى ما يثبت قدمهم فيها. و جاء في برقية إلى وكالة هافاس أن الجند المصري دخل بأسره تحت إمرة الجنرال استفانوس (قائد جيش الاحتلال الإنجليزي) فصار الجنرال كأنه وزير الحربية و تحول الجند الوطني إلى إنجليزي و جيش الاحتلال إلى حامية مصرية، ثم هم يسعون لإلزام توفيق باشا بنصب ثلاثة مفتشين من الإنجليز أحدهم في القاهرة و الثاني في مصر السفلى (مفتش وجه بحري) و الثالث في مصر العليا (مفتش وجه قلبي) على أنهم لا يعزلون إلا بأمر من إنجلترا فتتقلب الإدارة إنجليزية محضة لا يبقى فيها لحكام مصر إلا نهاية حال الدليل، الامتثال و الطاعة. تصرفوا في الأراضي المصرية العثمانية تصرف المالك فمنحوا منها بقاعاً و فرضاً على البحر لملك الحبشة، و حالفوه على أن يسوق جيشاً ينزل المسلمين في أراضيهم، رجاء تذليلهم و إخماد أنفسهم و في أثناء هرولتهم إلى مطاعمهم يثيرون في أعين الدول غباراً، و يرفعون جلبة، و يصيحون بأن لا غرض لنا إلا إقرار الراحة و إعادة النظام، و يقيمون الحجة على إخلاصهم برغبتهم إلى الدول في مساعدتهم على حل بعض المشكلات المالية، مع أنهم لا يرغبون عقد المؤتمر إلا لينالوا منه ما يزيد قدمهم

رسوخاً في مصر. و علموا أن لفرنسا مصلحة في مناوأتهم فطفقوا يهددون بها بالتحالف مع ألمانيا أو التقرب إليها إن لم تتساهل معهم ليحملوها بالتهديد على الرضاء بإبقاء عساكرهم في مصر إلى سنة ١٨٨٨ تحت اسم إقرار الراحة، على شرط أن لا يكون بعد مدة إلا بإجماع جميع الدول التي يكون لها نواب في المؤتمر، بحيث لو وافقهم إحداهن على إطالة المدة فيما بعد لكفى في تمديد الأجل أو إطلاقه، وليس بخاف ما يقصدون من هذا الشرط. فإنهم يعلمون في اختلاف مصالح الدول و تضارب السياسات ما لا يعدمون معه وسيلة لإرضاء دولة واحدة في زمن من الأزمان بالموافقة على مد الأمد، و لا نخال دولة فرنسا يقف نظرها دون هذا الحجاب الرقيق وهو يشف عن ملم عظيم لا تسلم منه مملكة من ممالكها في المشرق، و لا نظنها تدعن لقبول هذا الشرط، وإن قبلته دولة لا مصلحة لها في مصر و لا يهمها إلا معاكسة فرنسا.

فكأنما سلك تصرف الإنجليز من خمس سنوات في سلسلة من الألاعيب نهايتها للتسلط على مصر في هذا المؤتمر بدعوى ثروة المالية المصرية، و إن عجزها من الخيانة فيها، و توسلوا بذلك لانقلاب في هيئة الحكومة ثم ألجأوا عرابي للدخول في العصيان ليعتلوا به في الزحف لتأييد الحاكم، ثم وسعوا دائرة الخلل ليكون وسيلة إلى سلطة لا تحد يؤملون نيلها في هذا المؤتمر. زينوا للدولة العثمانية أن تصول على السودان مع وجود عساكرهم في مصر، ثم تخرج و قد مهدت لهم مصر و السودان معا. فلما لم تنخدع لهم و حق لها أن لا ترضي شدوا عليها بالتهديد قائلين إنهم لا يسمحون لعسكري تركي أن يذهب إلى السودان من بعد، و لو لم تقبل الدولة العثمانية حضور نائب لها في المؤتمر على أنه منحصر في المالية فإنه سينعقد بدون رضاها. و لئن كان الإنجليز صادقين في طلبهم، إقرار الراحة في مصر، لوكلوه إلى عساكر العثمانيين و فوضوا الأمر لحازم حاذق من أمراء المصريين، فإن في ذلك إطفاء للفتن و تثبيتاً للسلم، و لا خوف من الدولة على الاستقلال المصري فليس من شأنها أن تنقض عهد دولة واحدة في هذا الوقت فضلا عن عهود الدول. ولكن لا

يهولن الدولة هذا التهديد فدعوة محمد أحمد بلغت في الهنديين و تغلغت، و خبر قرب الروس منهم ملأ آذانهم، و الإنجليز يتوقعون الفتنة فيهم ساعة بعد ساعة، و القوة الإنجليزية قاصرة عن مدافعة محمد أحمد، فلو ثبتت الدولة العثمانية لخضع الإنجليز لقوة الحوادث رغماً عنهم، فإنهم يفرقون من أن يشاع عنهم أنهم مضادون للدولة العثمانية، فالثبات الثبات و الله المستعان.

### برهمن لاهور

قد انكشفت لفندت اللاهوري (صاحب جريدة أخبار عام) أن ما أئذنا به عند دخول روسيا في مرو من وشك دخولها في سرخس ليس من قبيل كان و يكون و سيكون، فقد دخلت روسيا مدينة سرخس برضاء من التركمان كما قدمنا في العدد الماضي، فليس له أن يستبطىء سير الهول الشمالي ليدكدك أسوار الحكومة التي يظهر المدافعة عنها (و هي الحكومة الإنجليزية) فعما قريب تظله هبوة الزحف في أرض بنجاب تحت جدران، و له بعد أن رأى ما رأى من صدق ما نقول أن يطمئن إلى ما نبىء به فيما بعد، فإننا نحكي عن طبائع الأمم و حقائق السياسة و مقتضياتها و ليس يغني ظنه من الحق شيئاً.

### هذا

سررنا بملاقاة أفاضل من أرباب الجرائد في مصر أتوا إلى أوروبا ليحضرؤا مؤتمر في لندن و يقفؤا على دقائق المفاوضات التي تجري فيه متعلقة بالمسألة المصرية و ينشروها مع ما تجود به قرائحهم من الرأي الصحيح في جرائدهم تنويراً للأفهام، و تنبيهاً للأفكار، فحمدنا سعيهم، و شكرنا صنيعهم، و أعظمنا همتهم، في خدمة البلاد المصرية، قياماً بما فرضته عليهم الجامعة الشرقية، و ما أوجبته ذمة الجوار، و إن لم يكونوا ممن نبت في تراب مصر، و لا جبل من طينتها، ولكننا أسفنا غاية الأسف على احتمالهم لهذا العمل العظيم أفذاذاً بلا معززين لهم من أبناء الديار المصرية

لأمن المسلمين، ولا من المسيحيين، أولئك الذين حفت بهم المكاره، و داهمتهم  
مغيرات الرزايا من كل جانب، ولهم في البلاد نسب صريح، و ورثوا ما أقاموا فيه عن  
آبائهم و أجدادهم من أجيال طويلة، و فيهم عارفون باللغات الأجنبية على اختلافها،  
و منهم من نال شرف المعرفة على نفقة بلاده، و إنما كانت تعده البلاد لمثل هذه  
المهمات. ألا يوجد بينهم شاب يغلي دمه و تجيش أحشاؤه لما تزل بدياره و بني  
وطنه مما يتألم له العالم أجمع؟! أو إن لم يكن هذا ففتى يعظم همه، و يسمو عزمه،  
فيطلب ذكراً رفيعاً، و ثناء باقياً، فتنهض همته للشكاية من مصابه و مصاب إخوانه، أو  
لإرشادهم إلى ما به النجاة، و ما يتوسلون به إلى الخلاص، ألا يوجد شيخ قضى و  
طره من الدنيا و فاضت عليه البلاد بخيرها يتذكر نعم الأوطان عليه، فينبعث لأداء  
شكرها بما يستطيع من خدمتها؟! ألا يوجد من هؤلاء و هؤلاء أغنياء لا يخافون  
إعداماً فيتسامحون في بذل شيء من فضل ما لهم ينفقونه على أنفسهم في طلب  
الإنصاف لدى الدول التي يهتمها النظر في شئونهم؟! ألا يوجد فيهم من ورث عن  
آبائه ثروة واسعة و هو يبدها فيما لا يعود عليه بمجد ثابت و لا شرف دائم، فيجعل  
الإنفاق على نفسه في السفر لهذه الغاية المحمودة داخلاً في دائرة إسرافه.

يا عجباً، ما هذا الخمول؟! و لم هذا الانزواء للذهول عمّا رزئت به أوطانهم؟!  
كيف و أسنة الحوادث مصوبة إلى أفئدتهم؟! و ألسنتها تلغ في دماء قلوبهم العوز و  
الحاجة؟! كيف و إنا نعرف فيهم الأغنياء الموسرين، و من لا تنفد ثروتهم إلا بأيدي  
أعدائهم المتغلبين، إذا استمروا في تماديهم هذا الشح و الحرص؟ كيف و فيهم  
الأسخياء و من أشرفوا في البذل على الإسراف و التبذير فيما لا ينالون منه إلا مدحة  
في الوجه، و رفعة لا وجود لها إلا في الوهم؟! الخوف و الجبن. كيف و قد بدا لهم أن  
الخطر في سكوتهم أشد من الخطر في عويلهم و صياحهم، الراحة مفقودة، و النظام  
مختل، و الحقوق ضائعة، و الفتن محدقة بهم. و الأجانب ضربوا خناجرهم على  
خناجرهم، فلو لم يتداركوا أنفسهم بالسعي في كشف هذه البلايا لأصبحوا لا ترى إلا  
مساكنهم، بل الخطر كل الخطر إنما هو في إهمال مصلحة الوطن و ليس على ساع في

خير وطنه و ملته في خطر. إذا أتى البيوت من أبوابها، و طلب الغاية بأسبابها، فمن أي شيء يخافون، و أي سلطة يرهبون؟! إن لم يكن لجراح الوطن أثر في أفئدتهم، فأين الإحساس الطبيعي المودع في نفوس البشر، الباعث على المباراة و المنافسة؟ إنا لله و إنا إليه راجعون.

### العدالة الإنجليزية!

الركون إلى العدالة و السكون إلى الأمن و الراحة من الأمور الطبيعية في الإنسان، و هذه حقيقة أدركها الجنس الإنجليزي الشريف، لهذا تراه يجوب الأقطار و يتقلب في الأمصار حاملاً على أحد عاتقيه علم العدالة و على العاتق الآخر لواء الأمن و الراحة رجاء أن يملك أهواء العالم أجمعين و ينال الكرامة في جميع أنحاء المسكونة.

إلا أنا نعجب غاية العجب لجفلة الناس من ألوان هذه الأعلام و فزعهم من الاستغلال بظلمها و من تقيأه يوماً فزع للانتباز عنه في آخر و لو لفحه لهيب جهنم، هؤلاء الأيرلنديون من جنس الإنجليز و على دينهم و ينطقون بلغتهم و لا يوجد بينهم و بين سكان بريطانيا العظمى فرق إلا فيما لا يعد الاختلاف فيه خلافاً حقيقاً من عقائد المذهب الكاثوليكي و البروتستنتي. و يصح أن يقال إنه خلاف في فروع الدين لا في أصوله. و جزيرة أيرلندا تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا و سكانها يعدون عنصراً داخلياً في قوام الأمة و عليهم بسط جناح المرحمة الإنجليزية من أجيال طويلة حتى حسب الجميع أمة واحدة، و مع ذلك ترى آلافاً مؤلفة من الأيرلنديين يهجرون أو طانهم و يهاجرون إلى أمريكا و يتخذونها سكناً لهم فراراً من عدالة الإنجليز، و كل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم في أعمال يقصدون بها هدم السلطة الإنجليزية و إهلاك القائمين بها، و في كل يوم يخذون الأخايذ و يدفنون المواد الملتهبة (الديناميت) في أماكن مختلفة من مراكز الحكومة و طرق مسير الكافة من الإنجليز تارة تحت قصر الملكة و أخرى في مقاعد الوزراء و طوراً تحت دار الندوة و آخر في جسور السكة الحديدية ليدمروا كل مكان



بمن يقله، وزاد ذلك حتى أفزع الحكومة في هذه الأيام و ما من مدة تمضى خدمت إلا و تسمع بمواقع بين عساكر المحافظة الإنجليزية في أيرلندا و بين الأهالي، و منها ما حدث في ثامن هذا الشهر (يونيو) من معركة بين العساكر و العامة جرح فيها كثير. هل جلاء الأيرلنديين و تهافتهم على الموت و سآمتهم من الحياة في معاندة السلطة الإنجليزية ناشىء عن نفرتهم من العدل و كراحتهم للراحة و الميل إليهما طبعي في فطرة البشر؟! أظن لو كان عدلا حقيقيا يعرفه بنو الإنسان لما نبت عنه الطباع، و لا آثرت الأنفس الموت على التمتع به، و لا طلب الخلاص منه أقوام يتحدون مع أرباب السلطة في الجنس و اللغة و الدين، و لا فضلوا على مهاجرة الأوطان و احتمال آلام الغربة، و مشاق التطوح في أراض لا يجدون فيها من العيش إلا لماجا (أدني ما يؤكل) ولكنه عدل تفرد به الإنجليز من بين الحيوانات الناطقة، من أحكامه أن توضع الجزية على كنائس الكاثوليك تؤديها إلى كنائس البروتستانت عن يد و هي صاغرة، و استمر ذلك إلى عهد قريب، و من مقتضياته أن يكون الأيرلندي خادماً بل عبداً رقا لأمراء البريطانيين لا يتركون من لوازم الحياة إلا ما يشتغل به لتنمية ثروتهم و توفير لذتهم - إن كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقيين معهم في الصفات السابق ذكرها فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم و بينهم و لا صلة تجمعهم معهم لا في لغة و لا جنس و لا دين - هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له آثار في البلاد الهندية - دخلها الإنجليز و هي أغني أرض في العالم، و أخصب تربة في المسكونة، و سكانها أنعم الناس عيشاً، و أوسعهم ثروة، فإذا هي اليوم بسر العدالة كأنها صفاصف و أمرات (أراض لا نبات بها) أهاليها حفاة عراة أذلاء، رضوا من المعيشة بالشظف، و من القوت بالعلف، و ما يجدون ما به يقنعون، تراهم بعد ما سلبوا أملاكهم، و ابتزوا ثروتهم، و استأثر الإنجليز بجميع ما كان لهم يطلبون العيش في المهن الدنيئة و لا يصلون إلى ما يطلبون، يكون منهم الكاتب المنشئ البليغ الحاسب يقطع الأرض سعيًا من بلد إلى بلد و من ولاية إلى ولاية ليحصل خدمة ينال من أجرها ثلاثين فرنكا في الشهر و لا يسعده الحظ بنوالها - و

من سنتين دخلوا مصر و هي أرض الراحة و السلام و أهلوها في رغد من العيش، و أمن من الغوائل، فإذا هي اليوم ببركة العدل الإنجليزي، و حسن الإدارة البريطانية، أرض الفتن، و مجالات الحروب، و مضارب الخلل و الفساد، قضت العدالة بحرمان آلاف من الوطنين و طردهم من وظائفهم في الحكومة، و هم ذوو أهل و عيال لا عيش لهم إلا من رواتب الخدم الوطنية، و حل محلهم في الوظائف أخلاط من الإنجليز و كسدت أسواق التجارة و غلت أيدي الزارعين عن العمل في الفلاحة بفقد الأمن و عموم الاضطراب و امتنعت الأرض عن الإنبات بإهمال الأعمال العامة و استولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم و قصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم.

و مع كل هذا ترى الإنجليز لا تأخذهم ريبة في أنهم عادلون قوامون بالقسط، و أن حلولهم في أي قطر و سلطتهم على أي شعب مقرونة بالسعادة و الرفاهة و الأمن و الراحة، و يعجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم و نفرة قلوبهم منهم و يقولون يا سبحان الله كيف يوجد بين جمعيات سرية أو جهرية تتخالف على بعضهم و تجتمع الألفة من العبودية لهم؟! و كيف يختلج في خاطر مصري أن ينقم على الإنجليز؟!

و لما أحسوا بحركة الخواطر و اشتعال الحمية في نفوس بعض المصريين و توجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق، و هي بلادنا لنا، و نحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا، و لا نريد أن نكون طعمة للإنجليز، أرادوا أن يقيموا برهاناً على عدلهم و يوطنوا النفوس على الرضا بحكمهم كل ضغينة من قلوب المصريين، بالقوة العسكرية، كأنهم بإطلاق النيران و سل السيوف يودعون في القلوب محبة، و في النفوس رضاية، و هي طريقة جديدة في إزالة التنافر و إيجاد التآلف و ربما كانت سنة قديمة عند الإنجليز.

و جاء في برقية من مراسل التايمس في القاهرة أن العساكر الإنجليزية انتشرت في شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن، و الحامل على ذلك ما تأكد عند

حفاظ الأمن من الإنجليز أن في تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية، أو أن فيها أشخاصًا مصريين يحبون بلادهم ولا يودون أن يكون السلطان في حكومتها لأجنبي عنهم خصوصًا إن كان ظالمًا فيهم، أو أن في تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجل من الإنجليز: إن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الإنجليز لا خير في ولايتهم، و يرى شقاء بلاده في سوء إدارتهم، فهاج غيظ مأموري الإنجليز و بعثهم على الشدة في طلب الوقوف على مكامن أولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤاخذوا كل ذي سريرة بما اختلج في صدره من الانتقاد على أعمالهم، و من عزمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلا في كل شوارع المدينة و أزقتها من القلعة إلى أضيق حارة فيها ليحققوا ما ظنوه و يكشفوا ما توقعوه (و هم في عملهم هذا يراعون مصلحة المصريين و يأسفون على حالهم حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للإنجليز بهذا الإحسان الذي تفضلوا به عليهم من مدة سنين و يأسفون)، و يرون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات، و ربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون.

### إنجلترا و فرنسا

أصغت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية من يوم دعت إنجلترا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية. إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان و إنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة أو غمغمة أو جمجمة، و كل حس يصلها يثير رواكد الأوهام فتهيج فيها غرائب الصور و الأشكال، و المداعون من أرباب الجرائد في أوروبا و هم أشبه بالداعين إلى الألاعيب و الكموديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهًا مختلفة و يتنافسون في التمثيل و التصوير للتغريب و التهويل حتى أبرزوا الأرض في صورة السماء و السماء في صورة الأرض خصوصًا

فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وإنجلترا، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب و المدرعات يصادم بعضها بعضاً و أن فضاء البر أعزل بالجيش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً و تجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة، فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع العساكر و طرق المصاولة و جموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً و شمالاً و يموج بعضها في بعض و كأنما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين و كان في كل فوج داعياً و في كل قبيل منادياً يقول حقي هذا، فهيئات تتعالى و زفرات تتصاعد و أرغاء و أزباد و تقطب في الوجوه و شزر في المناظر، و في كل ذلك هول يأخذ بالألباب.

و العارفون بقوة فرنسا البرية و البحرية و الذين يقدرّون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر قد هوى بهامته إلى ركبته يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه و عجزه، و أن حكومة إنجلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد و جحافل من الأوغاد) و تقوت هذه الأوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، و ولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة و انبعثت رسل الأفكار تجوس خلال الشئون و الأطوار، لتصل إلى شيء من هذه الأسرار، و اجتمعت الأرواح في الأذان لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداونات، و كمنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبىء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم، و الجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق و بعد طول الانتظار كشف الستار.

فإذا عائدة الإنجليز جالسة في هيكل آمون و بيدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها و الملوك العظام و قوف بين يديها مستعدون لتهنئتها كأنما هذه المفاوضات و المخابرات إعداداً و تجهيزاً لإجلاسها على كرسي مينا الأول و رمسيس الأول، لا حول و لا قوة إلا بالله.

قام رئيس الوزراء الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع حكومة إنجلترا ليرى النواب رأيهم، و قبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة و الفصاحة و

حسن البيان لإقناعهم بقبول ما أجرا، تلتطف في الكلام و أبدع و صوب و صعد و أتى على ترغيب يشوبه ترهيب و يأس يحوطه أمل و أدرج في طي خطابه أن فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، و به نالت أشياء و أومأ إلى أن وزارته لو طلبت أزيد مما حصلت لأدى الأمر إلى ممانعة الحكومة الإنجليزية و أفضى الخلاف إلى انقلابها و ربما يخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر. و جاء في نقطة بما حرك الطباع و مال بالأسماع حيث قال: يلزم لسياسي قبل إبرام حكم أن يلاحظ جميع أطرافه و لواحقه فهذه الكلمة الرفيعة جددت في السامعين آمالاً و ظنوا أن المراقبة الثنائية قد أعيدت أو تقرر اشتراك فرنسا مع إنجلترا في الاحتلال العسكري أو إبرام الحكم بخروج الإنجليز من مصر و بالجملة أنهم فازوا فوزاً عظيماً و بعد مقدمات طويلات<sup>(١)</sup> بين الاتفاق فإذا هو بعد إمعان النظر على هذا النحو. إن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون و ليس لنا أن نعارضهم فلا المراقبة الثنائية عادت و لا الاشتراك في التداخل العسكري أو النظر الإداري حصل و لا قررت حرية القتال على أصل ثابت و لا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية و لا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين بل كما كان يلجأ إليه الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثر من سياسيينهم. فانقبضت صدور النواب، فلما رأي<sup>(٢)</sup> شدة تأثرهم دفعة واحدة و أحس منهم القنوط حاول إحياء آمالهم بقوله إنا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدولة و من السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف حتى يتقاربوا و يتعادلوا فيسهل اتفاقهم - يوهم بهذا أنه و إن ترك كل حق لفرنسا في مصر إلا أن الإنجليز أيضاً تساهلوا معه في أمور - ... هذه المسامحة التي لم تكن منتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ما وراء الظاهر المعروف و منه ما بعث مراسل جريدة (التاج بلات الألماني) في قيينا على قوله يظن ههنا (في قيينا) أن الدول ستعارض هذا الاتفاق رغماً عن كل وهم. اهـ

١. هكذا ذكرها الأفغاني و قد راعينا بقدر الإمكان على روح الأفغاني في كتاباته!!

٢. يقصد رئيس الوزراء الفرنسي.

و ليس ببعيد أن يكون نعيم الإنجليز و هديدهم وإرهابهم للوزارة الفرنسية بالميل للألمان هو الذي دعاها لهذا التساهل الغريب، بل حملها على ترك الحق بالكلية، أو ربما ظن رئيس الوزراء أن اشتداده في اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغييراً في وزارة جلادستون فيقوم خلفها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا في ضياعها. فسارع إلى موافقتها على ما تشاء و طرح مصلحة فرنسا في مصر بين يديها لتكون المنة في استيلاء الإنجليز على مصر للفرنسيين. ولكن نظى أن هذا النوع من العاملة لايفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر، فإن التساهل و سوء السياسة الذي كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا في الهند عندما كان للأمتين منافسة فيه آلت إلى تغلب الإنجليز على جميع الممالك الهندية و رجع الفرنسيون بخفي حنين و لم يمح أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن و المستقبل أشبه بالماضى من الماء بالماء. و قد يقال إن الحكومة الفرنسية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى. و بقي رجاؤنا في نواب الأمة الفرنسية فإنهم و إن أظهروا ثقتهم بالوزارة بعد مجادلات طويلة إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكماً في المؤتمر إلا بمشورتهم (اللهم حقق الرجاء) و إنا في عجب من حرص مجلس البر لمان الإنجليزي حيث يعارض جلادستون في هذا الاتفاق مع أن أقرب نتائجه الاستيلاء، و قد طلب البر لمان من جلادستون مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها. أما حقوق العثمانيين و المصريين فلم لها بين المتفقين ذكراً، اللهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها. و عند ذلك نرى لها فصلاً بين هذه الأبواب.

### الاتفاق

عهد بين وزارتي فرنسا و إنجلترا، تواطأنا عليه ليكون موضوع البحث في المؤتمر، و أشرنا إلى أن غايته تنازل فرنسا عن جميع حقوقها في مصر ونفص يديها من كل مصلحة لها فيها و الاعتراف لإنجلترا بالسيادة عليها و إن لم تذكر حروف

السيادة و هذا ما يحتوى عليه من المواد.

الأولى: أن يستمر حلول الجيش الإنجليزي في الأراضي المصرية إلى أول يناير سنة ١٨٨٨ (ثلاث سنوات و نصف)، ثم لا يخليها إلا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الإخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول، فإن حصل اختلاف ولو من دولة واحدة ترى ضرورة إطالة المدة كان الخيار لدولة إنجلترا في الجلاء أو البقاء.

دولة إنجلترا هي الدولة التي أطلقت مدافعها على مدينة الإسكندرية و المؤتمر منعقد<sup>(١)</sup> في الأستانة من رجال الممالك العظيمة و فيهم نائب لفرنسا، و لم توقع المؤتمر و لم تراع حرمة الدولة و لم تتفق مع واحدة منها على العمل الذي باشترته، فهل يعجزها في خلال هذه المدة الطويلة أن تستميل دولة من الدول إليها، حتى إذا انعقد المؤتمر بعد ثلاث سنوات و نصف ذهبت إلى أن إخلاء القطر المصري من العساكر الإنجليزية يخشى منه على نظام البلاد أو سلم أوروبا، فيكون حجة لإنجلترا في إطالة المدة و إن خالفها بقية الدول و منطوق الشرط يؤيد حجتها - و كيف يمكن لبقية الدول إذا خالفت إحداها أن تلزم دولة بريطانيا بالخروج من ديار مصر بعدما غلت أياديها بتقرير هذا الشرط و كتبت على نفسها أن الجلاء لا يكون حتماً إلا إذا اتفقت عليه جميع الدول!! السياسات في أوروبا سريعة الانقلاب و المنافسات لا تقف عند حد يحيط به النظر و مطامع كل من الدول لا تنتهي عند غاية فليس ببعيد بل هو أقرب من كل قريب أن توجد دولة في دول أوروبا تشد عضد إنجلترا على دعوى أن إخلاءها لمصر يحدث هزة في سلام أوروبا، و ربما تكون تلك الدولة هي الدولة القوية التي يصعب على سائر الدول مخالفتها، و لا تجد فرنسا عند ذلك مؤثلاً تلجأ إليه سوى الرضاء و التسليم. إذا فرضنا عجز إنجلترا عن استهواء دولة أوروبية

١. أعاد التاريخ نفسه بعد ٧٤ عامًا و أطلقت بريطانيا و فرنسا و إسرائيل جحيم قنابلهم على مصر لينالوا مأربهم و يحققوا غايتهم و قد نجحوا في قتل أبرياء و تحطيم مبان ولكنهم فشلوا في القضاء على معنويات الشعب و روحه في حياة حرة كريمة.

توافقها على المكابرة في أحوال مصر و أن سياسة أوروبا وقفت على حالتها في وقتنا الحاضر و أن جميع الدول تحالفت على قول الحق، فهل تعجز دولة بريطانيا و هي هي عن أن تثير شغبا في بعض الأرجاء المصرية بأن تغري مالطيا بقبضي أو روميا بفلاح أو حمار فتسيل قطرات من الدماء تخيل كل قطرة منها بحرًا و تنادي أن للفتن مثرات و للعصيان أمارات و النظام في خطر و لها حق المحافظة عليه إلى أن تنقلب أرض مصر جنة يكون فيها أمم العالم إخوانًا على سرر متقابلين. و لو اعتبر المسيو چول فري بالمعاهدات التي عقدتها إنجلترا مع السلطنة التيمورية و غيرها من ممالك الهند و كيف أقدمت تلك الدولة على نقضها و لم تبال فيه بعهد و لا ذمة لظهر له أن نقض روسيا لعهداها مع بولونيا ليس شيئًا يذكر بالنسبة إلى حفظ إنجلترا لذمها مع تلك الممالك العظيمة. لو تأمل هذا الوزير في الأعمال الإنجليزية للام نفسه في الاحتجاج بشرف إنجلترا على خلو غرضها و إخلاصها فيما واثقته عليه. إن لم يكن في خاتمة الشرط سر فلم اهتمت بها الوزارة الإنجليزية و ألحت على تثبيتها؟! إن لم يكن لها غرض في استعمالها وقتها، فلم أصدرت أوامرها بمد سكة الحديد من سواكن إلى بربر على نفقة الحكومة البريطانية؟! إن كان لمسيو چول فري ثقة بمسيو جلاستون و اعتماد على عفته و طهارة ذيله، فمن يضمن له بقاءه في رئاسة الوزارة إلى نهاية المدة حتى يوفي بعهدة؟! فإذا استعفت وزارة جلاستون لعدة داخلية أو أزمة خارجية و خلفتها وزارة تحت رئاسة اللورد تشرشل أو اللورد سالسبوري - و هما من الطالبين الاستيلاء على مصر أو إعلان السيادة الإنجليزية عليها فأي مانع يمنعهما من الاستفادة من هذه الخاتمة السيئة في مقصدهما المعروف؟!

المادة الثانية: ألغيت المراقبة الثنائية و سيعوض عنها بتوسيع السلطة لقومسيون الدين العمومي، فيمنح حق الاطلاع على مصاريف الحكومة و الاعتراض على ما يزيد منها عن المقرر في الميزانية و يكون له ذلك ابتداء من سنة ١٨٨٥ و ميزانية تلك السنة تحصرها حكومة إنجلترا و تعرضها على المؤتمر الدولي ليقرر ما تحويه على أن يكون قانونًا للنفقات لا يخالف إلا لضرورة تخرق النظام و فيما بعد سنة ١٨٨٥



يخول لصندوق الدين حق مساعدة الحكومة المصرية على تحضير ميزانيتها السنوية بمعنى أنه تعرض عليه قبل تقريرها ليبيدي فيها رأيه. إلا أن ما يكون له من الرأي في جميع الأحوال ليس إلا استشارياً محضاً لا ينقض ولا يبرم، فإذا انجلت العساكر عن مصر يكون له حق المراقبة على تحصيل الإيرادات جميعاً و ضبطه على قواعد صحيحة و طرق منتظمة، و بهذا يحوز حقوق المراقبة الثنائية ما عدا الحضور في مجلس الوزراء و رئيس القومسيون في جميع الأحوال يكون الإنجليزيا - إن كانت مراقبة قومسيون الدين على تحصيل الإيرادات لا تكون إلا بعد انجلاء الجيش الإنجليزي، أفلا يكون هذا أملاً من الآمال ربما ينال و هو يكون فيه عرض حقيقي عن المراقبة و هو من رسوم الخيال و بينه و بين الثبوت أمد غير قصير. إن رضيت الأمة الفرنسية بتنقيص فائدة الدين لهذا الأمل الموهوم فقد خسرت كما قالت جريدة (لا جوستيس) خسارة محققة لوعد لا كافل لها بوفائة.

المادة الثالثة: إحماء مصر و المكافلة لها (ما يعبر عنه بالحياد) بأن تجعل حكمه في إفريقيا على أصول حكومة بلجيكا في أوروبا و تحرير القناة، أي بإباحته ممراً لجميع مراكب الدول من أي نوع كانت فإن كانت الدولتان متحاربتين ضرب لبقائها فيه مدة لا يسوغ فيها إنزال عساكر أو ذخائر على حافتيه و لا تباح المناوشة فيه و لا على القرب منه و لا فوق شيء من المياه المصرية و إن كانت الدولة العثمانية إحدى المتحاربتين، إلا أن شيئاً من هذه القيود لا يحذر أخذ الاحتياط للدفاع عن مصر نفسها إذا دعت إليه أحوال و إذا ألحقت مراكب دولة من الدولة ضرراً بالقناة ألزمت بتعويضه، و على حكومة مصر أن تهيب ما يمكنها من تنفيذ الشروط على المراكب الحربية مدة الحرب و لا يجوز أن يبنى على حافات القناة و لا على مقربة منه معاقل و حصون و هذه الشروط جميعها تقرر و يجري حكمها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عن وادي النيل، و فاتحة هذا الفصل تنطق بأن الإنجليز إن قصر بهم السعي عن التملك في الأراضي المصرية فقد هيئوا كلاليب لاختطافها من أيدي المسلمين و الانقلاب بها إلى قوم آخرين كما أشرنا إليه في موضع آخر. هذا الذي صرح به من

تشكيل الحكومة في مصر على مثال حكومة بلجيكا هو الأمر العظيم الذي نوهه مسيو چول فري وقال إنه من أجل أحكام السياسة و أسماها، و صحيح العقل يرتاب في كونه حكما سياسيا فضلا عن كونه ساميا لما يلا حظ فيه من عواقب المكالبة و الشحنة بين الأمم الأوروبية إلى أجيال بعد ما تقرر لديهم أن الشرقي لا يليق به أن يستقل بحكم نفسه!! فإن خدعه الظاهر فربما يرى فيه خيرا لفرنسا أو لأوروبا بمعنى أنه أفضل لها من التملك الإنجليزي. أما المسلم فيراه نكاية لملته و الشرقي يجده خرابا لبلاده. هذا الأود الذي ظهر في سياسة مسيو چول فري لا يقومه إلا حماية الدولة العثمانية و اشتدادها في حفظ مكانتها السياسية و حرص مجلس النواب الفرنسي على حماية المصالح الفرنسية التي يسهل صونها بشيء من العزيمة و بصيص من البصيرة و لله الأمر يفعل ما يشاء<sup>(١)</sup>.

### الباب العالي

روت جريدة الديلي نيوز خبرا يسر كل مسلم يهمله نجاح الدولة العثمانية و يرى عزته في عزتها و ذلك أن الباب العالي يأبي أن يرى جيشا إنجليزيا يحتل مصر و يرغب إذا اشتد العصيان أن يفوض الأمر إلى الخديو الذي يتبع نصائح الدولة العلية صاحبة السلطة الشرعية عليه، و كل شرط يرمي إلى جعل مصر تحت حماية أجنبية فليس عند الباب العالي في موضع القبول لأنه يكون تمهيدا لإضعاف سلطة السلطان على تلك البلاد و يمكن أن يقبل الاتفاق الفرنسي الإنجليزي في غير هذين الأمرين (الاحتلال الإنجليزي و الحماية الأجنبية).

و ورد في رسالة من مراسل جريدة نوكل بريس لپير الفرنسية مناقشة جرت بينه و بين أحد السياسيين الروس نقلتها جريدة التان، جاء فيها أن دولة الروس ستقاوم دولة بريطانيا في مطامعها و تؤيد الدولة العثمانية في مطالبها رعاية لمصالحها المرتبطة

١. تأميم قتال السويس، و سده بقنابل الأعداء، و استئناف الملاحة فيه بإدارة مصرية، خير ما يمكن أن يعتز به الأفغاني و محمد عبده، لو بعثا من عليائهما.

بمصالح العثمانيين في المسألة المصرية و في الاتفاق المنعقد بين دولتي فرنسا و إنجلترا.

### الإنجليز والإسلام

الحكومة الإنجليزية عدوة المسلمين عداً شديداً لالتهامها الممالك الإسلامية، تغذ المسير إلى آرابها منها سالكة جادتها المعهودة من اللين و الموارد و الخديعة و المختاتلة، فإن بلغ بها السعي حداً من الغرض فذلك، وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لانتزاع قطعة من أيدي المسلمين بأية وسيلة و تسليمها لقوم من سواهم أيا كانوا، كأن لها لذة في نكاية أهل الدين و كأنها تبتغي السعادة في تذليلهم و محو ما يكون من ملكهم. و كمال بهجتها في أن تراهم أذلاء عبيداً لا يملكون من أمرهم شيئاً و في تصانيف جلادستون و خطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس و مقالات أشباهه نبأ بل أصدق الأنباء عما تكنه صدور الإنجليز من العدواة للمسلمين.

لهذه الحكومة طمع التمكن في أرض مصر و لها من كل جبل قبضة و في كل سبيل خطوة لتنال مطمعها. و همتها اليوم في إرضاء بعض الدول على استبدادها بالأمر في مصر بما تسول لسياسيتها من أوهام المنافع و خيالات الفوائد و في تثبيط بعضها بالمراوغات و التهديدات. فإن بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير ما تطلب و إلا عقدت عزمها على نقل الولاية في مصر من أيدي المصريين و العثمانيين إلى أيدي أقوام آخرين. هذا ما تشير إليه جريدة الديلي نيوز الوزارية «الإنجليزية» عند كلامها عن قناة السويس حيث تقول: يمكن القطع بحياد القناة على الأساس الموضوع في برقية اللورد جرانفيل المرسلة إلى الدول في ٣ يناير سنة ١٨٨٣، و ليست تلك الحيدة إلا حكماً من أحكام النظام الذي وضعته الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها. ولكن لا يرى الإنجليز في حيدة القناة وحدها ضماناً صحيحاً لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها، و لا كفالة كافية لاستقلالها، بل يمكن أن يذهب الرأي إلى ضرورة حيدة مصر

نفسها بأن تحول حكومتها إلى حكومة سويسرية أو بلجيكية في إفريقيا و توضع تحت حماية الدول عمومًا فتؤمن الإغارة عليها من إحداها إذا آل الأمر إلى هذه الحال «و العياذ بالله» فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة و القضاء و المالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم: كيف نظن هذا و قد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئي أو كلي في خدمة أوطانهم و أن من الضروري لحياتهم أن يكونوا آلة صماء في أيدي غيرهم من الأوروبيين. قد يعقب ذلك لو حصل تشكيل مئات من المجالس في القطر المصري كلها تشبه المحاكم المختلطة، أما مجالس الفصل و القضاء ابتدائية و استئنافية، فالأمر فيها بين، و أما إدارة الداخلية و المالية و فروعها فلا تستقل بها دولة من الدول فإن طبيعة الأمر تأباه، فلا يتولى أعمالها إلا مجالس مؤلفة من أقوام مختلفة الأشكال و اللغات متبائني الحكومات. و لو تفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون في كل مجلس واحد منهم إلى زمان محدود.

أولئك الأعضاء الأجانب و هم نواب دولهم لا يكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم من قبل. كل منهم يستدعي من أبناء جلدته من يستخدمه في وجهه من وجوه الأعمال التي يولى النظر فيها و تقع بينهم المنافسات ثم تكون المحاباة، كل يتغاضى عما يأتيه الآخر ليتغاضى الآخر عنه فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب و لا يعود فيها مقر لوطني، هذا إلى ما يتبعه من إقامة عسكر مختلط للمحافظة في المدن و الأقاليم، فلا يبقى للمصريين إلا خسائس الأعمال يفلحون الأرض و يعانون الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسقاء لغيرهم يؤدون ثمرات ما يكسبون إلى من لا يعرفون، يخرجون عن جميع ما كانوا نالوه في الأزمان الأخيرة من عهد محمد علي إلى الآن، و لا يمر زمن طويل إلا يصبحون كسكان الأمريكتين ينحسرون إلى بعض الأطراف القاصية عن العمران أو يندمجون مع الأجانب فلا يوقف لهم على أثر صحيح و تصير الأراضي المصرية مأهولة بأخلاق مختلفة كما في أراضي أمريكا الجنوبية و الشمالية، و يقوم لفيف أولئك الأغراب مقام أبناء الأرض الصادقين و هذا

مما لا يسر عاقلاً - وإن راق في نظر بعض المباركين - و أملنا في الدولة العثمانية أن تقوم على قدم ثبت عليها الأسلاف الأولون و تقدم بعزيمة ثابتة على المطالبة بحقوقها في مصر و إعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الإنجليزي، ثم تلقي بزمam الحكومة فيها إلى ذوي عزم من المصريين صيانة لحوزة الإسلام. و في الظن أن دولة روسيا لا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين لتستميل إليها قلوبهم و لا تختلف عنها دولة فرنسا فإن مصالح الدولتين في فتوحاتها بالبلاد الشرقية تقضي على السياسيين فيهما - إن كانوا كما يقال سياسيين - بالاتحاد مع العثمانيين<sup>(١)</sup>.

### الباب العالي و الإنجليز

يهتم المسلمون في كل أرض بأمر ما يجري في مصر، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً و ليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الإسلام و باب الحرمين الشريفين، فكل نازلة بها تزرأ الدين و تصدع من أركانها و المسلمون في قلقهم هذا ينظرون إلى الدولة العثمانية و يقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية و المعنوية يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الأراضي المصرية من تبوء الأعداء و يحفظ بها شرف المسلمين و مكائنتهم بين الأمم، و تصان بها ولاية الإسلام من السقوط في حبال هذه الدولة الداهية - دولة الإنجليز - التي أخذت على نفسها أن تبديد ولاية هذا الدين و تحول حابله على نابله، هذا فضلاً عما يراه كل مسلم أن عزة الدولة العثمانية و شوكتها ليست إلا بسلامة ملكتها على مصر فإن قضى فيها الأمر لغيرها - و العياذ بالله - أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر، فهذه دولة الإنجليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدئه ثم يذهب في البدن فيفسده و

١. مرة أخرى هذا هو المأخذ الوحيد على الأفغاني فهو لا يزال يصر في صراعه الصحفي على طرد الإنجليز و الأجانب و استبدالهما برمز الدولة العثمانية لأنها على حد قوله صاحبة الحق الشرعي مع المصريين في إدارة البلاد!!

يبليه بدون أن يشعر المصاب بالألم - هكذا شأن الإنجليز في لينهم و تملطفهم و حلاوة و عودهم و تملقهم و خضوعهم، يسلبون المالك ملكه بل الحي حياته و هو مأخوذ بما يشعوزون له - و لا ريب في أن الإهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق و الغرب، فإن كل مسلم - و له الحق - يعد هذه الدولة دولته و لو تباعدت الأقطار. إن الهنديين إلى اليوم و ما بعد اليوم يباهون بها و يحسبون أنفسهم في عداد الأمم التي لم تذهب سلطنتها و يعتقدون أن لهم سلطاناً قويا في الدولة العثمانية بل يرون أن خلاصهم من قيد الرق الإنجليزي لا بد أن يكون يوماً ما بسعيها، و قد أظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحمتهم معها باللحمة المليية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها.

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الأزمان الأخيرة عندما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة و تصارعوا في المفاوضات و المجادلات محاماة عمالهم من المصالح في مصر مع أن الدولة كانت أحق و أولى من جميع الدول بالاهتمام و بذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاء لخواطر المسلمين عموماً و استبقاء لحسن عقيدتهم فيها و حماية عن ممالكها و أهم مملكة منها إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا و إنجلترا في المسألة المصرية أتى فيه عل بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الاحتلال الإنجليزي في مصر، و أظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الإنجليز عن حرصهم و غاية ما فيه أن يستتبع مداعاة الدول و الدولة العثمانية مع الإنجليز، و برهن على أن بقاء العساكر الإنجليزية في مصر ليس بضروري في حل المسألة. فإن كانت الدول لا ترى في العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل، فالباب العالي مستعد لإرسال العساكر إليها على ما تقتضيه حقوقه فيها كما عرضه على الدولة لبريطانية و جرى البحث و فيه ولكن حال دون الإجراء موانع سياسية. فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فإنه يعرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين و فرنسيين و إنجليز و

إيطاليين وإسبانيين وإلى الدول تعيين الأجل في الوجهين، وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشًا لخواطر الإنجليز حيث قال إن الإنجليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان و تثبيت سلطة الخديو إلا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر و تقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة.

و إنا نقول كما يهتف به كل مسلم، إن من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الإنجليز عنها و أن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الأستانة و ليس لها أن ترهب هذه الرعود و تلك البروق التي لا تعقب مطرًا، و من الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلوري «بيت العظمة الإنجليزية» بحجر واحد فإذا اشتدت الأزمة تيسر لهم السعي في الوئام بين الإيرانيين و الأفغانيين و البلوچيين و لا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل ديني قويم، و عندها يعرف الإنجليز مقام أنفسهم في الأقطار الهندية و الممالك الشرقية. هل تسلط الإنجليز في الأراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التي كانت بين الأفغانيين و الإيرانيين، و لو نظرنا إليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا و تفريق الكلمة و لاربية عندنا أن رفع الشقاق و تجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة. و لا يظن أن اعتصام الإنجليز في جزائر بريطانيا و الهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانتقطاع السبل بين هؤلاء و أولئك و انسداد المسالك بين الممالك العثمانية و الإنجليزية. فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان و الإيرانيين و اتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين، هذه طريق محمرة و بندرعباس إلى بلوچستان، مفتوحة للسالك مطروقة للسابل، و هي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند، إن هذه لجولة لو كانت لأثارت في وجوه الإنجليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم.

و معلوم أن الحي لا يسلم نفسه بلا مدافعة مادام قادرًا عليها. يكفي لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين و البلوچيين، تحرك خمسة آلاف عثماني إلى أحيائهم.

لست أبالي أن أقول إذا حصل التساهل في أمر مصر وانفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة و عزت بعد هذا وسائل التلاقي. فلتأت الدولة العثمانية على ما في الوسع، و من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

### أسف

غالت نائبة الدهر طراز العرب، و زهرة الأدب، صفينا أديب أفندي إسحق. قضى نحبه في شرح الشبوية، و عنفوان الفتوة، و ترك لنا قلوبًا آسفة، و شئونا فائضة، إنا لله و إنا إليه راجعون.

### حرية الصحافة و الاستعمار!

أسف يصهر الجسم و يذيب الفؤاد و حسرة تلفذ الأكباد على قبيل من أمة أو شخص منها ذي هممة يستعين الله في عمل ينقذ أمته من ضعة أو يرجع إليها بمنفعة ثم يوجد له في وجهة عمله من تلك الأمة من ينجم كقرن المعز ليفقاً عن العامل الفاضلة فيقطع عليه أسباب العمل و يعرقله عن القصد ليكسب مدحة باطلة أو منفعة عاجلة، و إنما مثل من يكون على هذه الصفة في الأمة كمرض السكتة في البدن أو الصدع في الرأس أو الخبل في العقل أو الشجى في الحلق أو القذى في العين، هؤلاء هم الذين يقعدون بكل صراط يوعدون و يصدون عن سبيل الله و الحق و ييغونها عوجاً.

لو كان في هؤلاء العصا الطباع (الأعصل المعوج في صلابة) بقية من الإنسانية أو أثر من العقل يدركون به ما ينشأ من أعمالهم الجزئية من المضار الكلية و يشعرون بهذا الجرم العظيم الذي يدك الرواسي ويهدأ الشامخات، لذا ابوا خجلاً و استتروا عن الناس بحجاب العدم و تمنعوا لو محيت أسماؤهم من لوح الوجود. ولكن يظهر من جرأتهم على خطيئتهم أنهم ذهلوا عن أنفسهم فلا يعملون ماذا يعلمون، هذا العمل الصغير الذي يجلب على الأمة شراً كبيراً أو يحرمها من خير عام ليس في وسع حكيم



من البشر أن يحدد درجته من الخسة و السفالة و لا في طوعه أن يحيط بكنه الفساد الذي ضرب في طمع شخص يقدم على مثله و لا توجد كلمة و لا جملة و لا كتاب يفني ببيان حاله سوى أن يقال خائن ملته و وطنه.

أولئك أشخاص كثيرًا ما يوجدون في الأمم المعتلة، يشبه أن يكون منهم صاحب جريدة «أوده أخبار» التي تطبع في «لكنهو» من بلاد الهند، أنفض رأسه و رفع عقيرته على جريدة «امير تابازار برتركا» التي تنشر في بلاد - بنجاله - كتبت هذه الجريدة «البنجالية» فصلاً بينت فيه سوء معاملة الحكومة الإنجليزية الهندية و خشونتها على الهنديين و إهانتها لهم و إجحافها بحقوقهم و حرمانها لم من خدمة أوطانهم و إثقالها عليهم بالضرائب الباهظة و استئثارها بجميع ما يكسبون من كدهم و تعبهم مع احتكارهم جميع ينابيع الثروة مما أوجب شدة الضيق و الضنك في عامة الأقطار الهندية و كان سبباً في انحراف قلوب الهنديين عن الحكومة و نفرتهم منها.

ثم انبعث هذا بقولها: فليس لحكومة الهند بعد ذلك كله أن ترجو مساعدة رعاياها لها عند وقع حرب بينها و بين الروس و لا أن تؤمل في العساكر الهندية بذل أرواحهم في الدفاع عنها، فإن الجند يشركون الأهالي فيما ألم بهم و يألمون كما يألمون، و ليس من الحق لحكومة بريطانيا مع سلوكها هذا أن تلوم الهنديين إذا آثروا عليها دولة الروس و اختاروها حاكمة لهم، هذا مجمل ما قالت و أقل ما كان يترتب على هذا الكلام و أمثاله من الفوائد هو تنبه الحكومة الإنجليزية لما خرجت به قلوب الأهالي و أخرجت صدورهم فتعدل مشربها و تقوم منهجها مع الهنديين و ترفع عن كواهلهم بعض الضرائب الثقيلة و تمنح الوطنيين بعض الوظائف في الدوائر الملكية أو العسكرية و تكف عن إهانتهم و تذليلهم ليكون لها عدة إذا دهمتها أم صبور (الداهية أو الحرب الشديدة) من جهة الشمال.

و كان على الهنديين خصوصاً أرباب المعارف منهم أن يؤيدوا القائل في قوله أو يحمدوا له سعيه أو يتركوه و شأنه، لعل خيراً كثيراً أو قليلاً يستتبع ذلك لأوطانهم و أبناء أمتهم، ولكن و أسفاً بدل هذا يلتوى صاحب جريدة (أوده أخبار) و يجور عن

جادة الصواب في تقرير الجريدة البنجالية و تعنيفها ثم يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تمحو حرية الجرائد من بلاد بنجالة، و هذه الجريدة و إن وصفها مقوم الجرائد في الهند (مدير المطبوعات) بأنها متملقة معمرة للحكومة، إلا أنه ما كان يخطر ببالنا أن تنحط و تسفل إلى هذا الدرك و لا أن ترتكب في تملقها هذه الجريمة العظمى و هي طلب محو الحرية في البنجالة و صد أبناء وطنها عن التنبيه على بعض حقوقهم و شكاية شيء من أرزائهم، لا حول و لا قوة إلا بالله.

### تركيا

ليس في التعلات أعجب مما يتعلل به الإنجليز و لا في المحاورات أغرب مما يستدلون به. لا مقدمات بينة و لا حجج قيمة و أقوى ما يكون من أدلتهم أولى به أن يكون في معرض الهزل من أن يكون في جانب الجد. ولكن أغرب من جرأتهم على الجهر بمداعبة الأمم بما هو أشبه بالترهات إصغاء الأذان لما يقولون و انصراف الأذهان عن بيان الهجو فيما يوردون و إظهار الوهن فيما به يتعللون ليتهتك الستار عن أغراضهم و تظهر خفيات مقاصدهم و ترتفع الريبة عمن يخدعون بملاعباتهم. إن الإنجليز ساقوا جيشاً إلى مصر و بوءوه أرضها مدة لا تزيد على سنتين، فكان حلول جيشهم سبباً في انحلال النظام و اختلال الأحكام و عموم الفساد في أرجاء البلاد حتى صار الناهبون و قطاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا و كتائب تزحف للغارة على القرى و البلدان ضاحية بلا استتار، و سرى الاختلال في عموم الأعمال الإدارية و القضائية ففقدت الأمانة على الحقوق كافة و سقطت البلاد بسبب ذلك إلى درك من الضيق و العسكر لم يكن يخطر على بال، و ما كان شيء من تلك الفظائع و لا واحد من هذه المفاسد و لا قليل من هاته الشدائد موجوداً أيام الحركة التي سموها فتنة عسكرية و اخترعوا منها دليلاً على الفوضى و زعموا فيها وسيلة للتدخل بعساكرهم.

حالة مصر شاهدة على أنه لم يكن للاختلال فيها اسم و لا للفوضى أثر إلا بعد ما

وطىء الإنجليز أرضها، و مع ذلك يزعمون أنهم ما أتوهم إلا لتقرير الراحة وإصلاح النظام وإزالة الفوضى، و يريدون أن تمتد إقامتهم فيها إلى أجل بعيد ليتمموا القصد الذي أتوا إليه و شرطوا جلاءهم عنها برسوخ الأمن و انقطاع شأفة الاعتداء و اجتماع خواطر الأهالي على الرضى بما يرسم عليهم من السائدين في ديارهم و التسليم لما يقضي به فيهم - ألا يعجب من هذه التعلة!! - هل يوجد أبله في أي أمة يظن في المصريين الركون إلى السكينة مادام الجيش الأجنبي متبوءًا ديارهم؟! أليس وجود عسكر أجنبي تحت أنظارهم كافيًا في نفرة قلوبهم و ازدياد شغبهم؟! - الطبيعة تحكم باستحالة ما يطلب الإنجليز منهم، و التجربة من مدة سنين طبقت بين الحكم العقلي و بين الواقع الحقيقي - هل يمكن سلامة خواطر المصريين من القلق بعدما علموا أن الإنجليز لم يفتتحوا بلدًا من بلاد الشرق إلا تحت راية هذه الحجج و على هذه الطريقة التي يسلكونها في مصر؟! و هل كان لهم سلطان في جهة من جهات الشرق إلا بدعوى أنهم يريدون فيها الإصلاح ثم ينجلون عنها أتقياء الراحة أعضاء الذبول؟!

ماذا يريد الإنجليز من تقرير الراحة بعساكرهم في مصر؟ هل يريدون مكافحة اللصوص حتى يقهروهم على طرح السلاح و يقوا الأهالي شرهم؟! إن كان هذا قصدهم فياخيبه الأمل، فإن شيئًا من هذه الفضائع لم يكن إلا وجيوشهم نازلة بالبلاد، فكأنما كانت تلك الجيوش مثارًا لهذا الفساد مضى عليها ستتان و هي في معاقل مصر و هبت أعصار سوء بقدمها، و كلما طال الزمن زاد الخطر و قويت عصابات الشر، فماذا قيل يكون منها في ثلاث سنين و نصف إلا مثل ما كان من أثرها في ستين أو أشد فتنة. فكيف يعقل أن يكون بقاؤها في مصر مفيدًا لرد الأمن إليها، و هل تكون علل المفاسد مجلبة للمصالح؟! نعم يكون هذا إذا قيل إن حصو الرضاء يطفئها أو إن وقود النار يخمدها، هل يقصدون من تقرير الراحة إخماد فتنة السودان؟! إن صح هذا القصد منهم فمتى سعوا إليه و أي جيش ساقوه و أي قوة وجهوا بها لتكسر سورة الثورة و تمحو أثرها. تهافتوا بجيش عظيم على منازلة رجل من رجال محمد أحمد

(عثمان دجمة) في سواحل البحر الأحمر فما كانت إلا مهارشة هرت فيها العساكر و بلغ صوت وقوف القواد إلى أقاصي المسكونة و ارتد بهم الذعر إلى البحر و قفلوا إلى ديارهم يتلفتون إلى ما وراءهم خوفاً و رهبة. كان الواجب أن يتبعوا عثمان دجمة إلى بربر و الخرطوم حتى يبددوا جنده و يلحقوا به صاحب الدعوة. فإن عجزوا عن الكل فلا أقل من أن يأتوا على البعض، فما الذي صدهم عن سبيل القصد؟ لو كانوا فيه من الصادقين رجعوا و تركوا چوردون باشا في فم التنين ثم التجئوا إلى ملك الحبشة ليشروا به حرباً صليبية تسود بها وجوه الكاذبين الذين يزعمون أنهم دعاة الإنسانية و رعاة التمدن. فماذا يكون من عساكرهم لو أقامت في مصر أضعاف ما أقامت؟! أظن لا يختلف المستقبل عن الماضي إلا بعظم خطوبه و اشتداد نوبه.

هل يبتغون المحافظة على حدود مصر الأولى و حمايتها من هجمات السودانين و يقفون عند حد المدافعة و لا يذهبون إلى ما وراء ذلك؟! إن كانت بغيتهم، فهي بغية البقاء في مصر ما دامت مصر أو السودان سودان، لأن صيال الثائرين يتوقع في جميع الأطراف من حدود مصر و أداموا قائمين بنشر هذه الدعوة، بل كلما طال الزمن اشتد خطرهم و قويت أعضادهم، و كل كرة لهم أو فرة تقوم بها للإنجليز حجة في ملازمة الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون لحلول الجيش للإنجليز بأرض مصر أمد ينتهي و لا أجل ينقضي. فما لهم ينبسون على الدول و الدولة العثمانية و المصريين بتحديد مدة الحلول إلى ثلاث سنوات و نصف مع سرد الألفاظ المبهمة كتقرير الراحة و حفظ النظام و إعادة الطمأنينة إلخ مما يسمع و لا يفهم؟! و ليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الإنجليزى كان و سيكون من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد و لولا وجود العساكر الإنجليزية في مصر ما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة، و لقد كان يتبرأ من نسبتها إليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته أو يدخل تحت رايته. هذه تواريخ الأمم و هذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين إلى أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها و زحف الأغراب إليها.

أي حجة لمحمد أحمد في دعوة الناس إليه و أي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أي يقول إن الإنجليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر و هي في عداد الأراضي المقدسة و باب الحرمين الشريفين و مهد العلوم الدينية و دعامة القوة الإسلامية فمن كان يؤمن بالله و رسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم، و إنقاذ البلاد من رجسهم. و هذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم و يبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء. هل يتوهم بعد سقوط الخرطوم و جيش الإنجليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد أحمد عند تخوم محدودة و هو الزاعم أنه منقذ المسلمين. هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق شعلته إلى أقطار إسلامية يخشى الإنجليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند. قد نرى الحالة أقرب إلى المخافة منها إلى الأمن و سيلعم الإنجليز أنهم كانوا أحوج الناس إلى السلم و أفقرهم إلى القناعة.

أي قوة تقف هذه الدعوة و تحجبها عن الانتشار بل تردّها على قائلها و تذهب بها كأن لم ينطبق بها لسان أو يذعن لها جنان. ليس لقوة أن تأتي بهذا الأثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين و أولي العزم من المصريين - هو تظن دولة بريطانيا أن عقد مؤتمر لتصفية الدين المصري يبطل سير محمد أحمد أو يخفف من وطأته أو يرده على عقبه فتتال مقصودها و تصبح آمنة مطمئنة في ديار مصر؟ إنها إلى الآن في عجز عن إرضاء الدول بقبول الأصول الابتدائية التي تحب أن تكون موضوعاً لبحث المؤتمر - إن تصفية الدين المصري يهم إنجلترا وحدها و لا نظنه يهم الدول و لا يهم محمد أحمد، و إنا نرى الدول خصوصاً دولة روسيا و النمسا و الأمة الفرنسية مهتمة كل الاهتمام بكشف مقاصد الإنجليز و النباش عن غاياتهم فيما كانوا شرطوه من تخصيص البحث بالمسائل المالية، حتى إن شدة المعارضات و كثرة المفاوضات و الاشتداد من الدول في طلب تعميم البحث في المؤتمر ليحيط بجميع فروع المسألة المصرية أحدث شكاً عند صاحب جريدة التايمس في انعقاد المؤتمر و دفع بالمسيو جلادستون إلى ربكة شديدة فهو من أمره في حيرة لا يهتدي إلى ما يسكن به خواطر الدول بل و لا ما يقنع به أوداءه المخلصين، بل و لا ما يوفق به بين زملائه

في الوزارة لتفرق كلمتهم و تباين آرائهم. أما قائم السودان فهم في إعراض عن كل هذه المجادلات و إغضاء عمّا يكون في عرضها من المحاولات. سواء عنده انعقد المؤتمر على رغبة الإنجليز أو على وفق الآراء العمومية. و هو مغذ في سيره ذاهب وراء فكره و لا يمر يوم من أيامه إلا و نسمع فيه بخبر فتح أو حديث زحف حتى جاءت الأخبار الأخيرة بدخوله عاصمة السودان (الخرطوم).

و ورد في برقية من القاهرة إلى (الديلي تلغراف) بتاريخ ٣ يولية أنه وصلت رسائل من بعض عساكر السودانيين و هم في مدينة الخرطوم إلى أناس يوثق بهم في القاهرة ذكر فيها أن حامية المدينة ضعفت عن دوام المدافعة و أعلن محمد أحمد بتأمين جميع السكان على أرواحهم و أموالهم و أخذ على نفسه وقايتهم من كل ضرر يتوقعونه، فبضعف الحامية وثقة الأهالي بوعد الفاتح فتحت المدينة بغاية السهولة في نهاية شهر مايو بدون سفك دم، و أن كثيرًا من الإفرنج أسلموا و أن چوردون مع كونه مستمسكا بدينه و لم يبدل دخل في أمان الفاتحين وسيق إلى محمد أحمد محفوظاً لم يمسه سوء.

و في خبر آخر بالتاريخ عينه أن القسيس (سوقارو) و كهنة الرسالة الكاثوليكية في السودان وردت منهم أخبار من أهالي الخرطوم تفيد أن المدينة فتحت و وقع چوردون أسيرًا و ما زال إلى الآن على قيد الحياة. و نقلت جريدة (الديلي تلغراف) أن تاجرًا في القاهرة أتاه كتاب من جنوب بربر يخبره أن الخرطوم مفتوحة الأبواب لمن يقصدها بالتجارة و إن كانت في قبضة جيوش السودان، و في رسالة من مكاتب التان بسواكن أن جماعة من الوجهاء في مدينة الخرطوم دفعتهم الحمية للانتقام من چوردون أخذًا بثأر الضابطين الذين قتلها بتهمة الخيانة (حسين باشا و سعيد باشا) فهجموا عليه و قتلوه ثم اتفقوا مع المحاصرين على تسليم المدينة فدخلوها آمنين، و يزعم المراسل أن للحكومة البريطانية علمًا بهذه الحادثة من زمان طويل إلا أنها كتمته خفية هيجان الأفكار عليها، و نحن لا يهمنا موت چوردون و لا حياته و لا راحته و لا عناؤه و إنما يظهر من كل هذه الأخبار أن الخرطوم أصبحت سودانية لا

إنجليزية و لا مصرية. فإن تمكنت وزارة مسيو جلادستون من تنفيذ المستفيض من هذه الروايات فربما يصعب عليها المكابرة فيما يعقبها. إن شوكة الداعي تقوى بعد فتح الخرطوم و تمهد له سبلا عديدة للوصول إلى مصر العليا أو السفلى، وإن تأثير دعائه يقطع مسافات بعيدة في هنيهات قصيرة.

ماجت خواطر المصريين واهتزت قلوبهم لسماع هذه الأخبار و ربما نسمع بعد اليوم أن ريح الجنوب حملت قسطلا تثيره سنابك خيل الفتنة و جاوزت به حدود مصر، فإن كان هذا شأن الحركات في بلاد السودان فتعليق الإنجليز جلاءهم على انقطاعها يشهد برغبتهم في الاحتلال الدائم ما بقي محمد أحمد و ما بقيت له خلفاء، على أننا نرتاب في قدرة عساكرهم على صيانة التخوم المصرية، فقد ظهرت نهاية قوتها على سواحل البحر الأحمر. نعم ربما يختلج بخواطر الوزراء البريطانيون أن يخدعوا الدولة العثمانية و يحملوها على الحكم بعصيان محمد أحمد و تضليله ليحولوا القلوب عنه ثم يجنوا الثمرة كما جنوها من الحكم بعصيان أحمد عرابي، ولكن قد تبين الرشد من الغي و ظهر للدولة العثمانية سوء طوية الإنجليز و عدوانهم على حقوقها فليس من المحتمل أن تنخدع لهم مرة ثانية و لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، كما أنه يشبه المحال أن عثمانيا يجوز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله و عساكر الإنجليز في القاهرة، ينتظر العثمانيون بعد انقضاء الفتنة نهاية المراوغات الإنجليزية حتى تتول مسألة مصر إلى مثل ما آلت مسألة بوسنة و هرسك مع دولة النمسا، فعلى العثمانيين و أصحاب العزيمة من المصريين أن يجمعوا أمرهم على كشف هذه النازلة صوتاً لأوطانهم و لاتقاء شر ربما يحدث في جهات أخرى، فإن قضى حرص دولة الإنجليز بصد أرباب الحقوق الشرعية عن أداء المفروض عليهم جهلا منها بمصلحة نفسها و بمصالح تلك البلاد، فعلى العثمانيين أن يقيموا الحجة بسيوفهم و جيوشهم لا بالرقائم و الأوراق فإن هذا فساد لو أهمل لعم و عمت زواياه و لا نظن أن دولة بريطانيا تثبت على نفختها هذه فإنها ستشتغل بداخل البيت عن خارجه بعد قليل.

لسنا نقول ما نقول جزافاً، ولكن دعوة القائم السوداني أشربت قلوب الأكثرين في الهند و بلوچستان و أفغانستان، و قد علق شرر الثورة بأهداب الخواطر فلا تلبث أن تلتهب فللدولة العثمانية أن تمتد نظرها إلى أعماق المسألة و تقدر قوة الإنجليز و أهبتهم العسكرية مع ملاحظة ارتباطاتهم في ممالكهم و ظهور عجزهم و ضعفهم في الحوادث الأخيرة و مراعاة آراء الغالب من الدول العظيمة و بعد الإحاطة بهذا كله و هي أسهل من كل سهل تظهر عزمًا ثابتًا و بأسا قويا يليق بدولة عظيمة كدولة آل عثمان طالما ظهرت على يديها خوارق العادات، و لله الأمر من قبل و من بعد.

### الباب العالي

ذكرت جريدة استنداران معارضة الباب العالي لمطامح إنجلترا ليست قاصرة على الممانعة في جعل مصر حكومة بلجيكية في إفريقيا تحت حماية الدول، كما في عزم جلادستون أن يعرضه على المؤتمر. بل صرحت الدولة العثمانية لسفيرها في لندن مرزوس باشا بأنه متى وضعت لائحة جلادستون موضع البحث في المؤتمر بعثت إليه بتعليمات للمعارضة الشديدة في هذه المادة و كل ما يكون من قبيلها (ما يمس حقوق الدولة و المصريين)، و لا ترتاب في أن الدولة العثمانية بعزمها هذا قد قامت بفريضة شرعية ومثلها من يقوم بها في مصر و في سائر الممالك العثمانية فإن كل ذي بصيرة يدرك أن صيانة جزء من ممالكها موقوف على صيانة الآخر و التفریط في شيء منها يحدث الخلل في الباقي. و كفانا عبرة أن مجرد طلب جلادستون لحرية قناة السويس حمل دولة الروس على طلب بوغاز البوسفور كما ذكرته الجرائد الروسية و دعا بعض سياسيين الروس أن يقول إن المسألة المصرية قد صارت الآن مسعراً للمسألة الشرقية. و لا نظن شيئاً من هذا يخفى على عقلاء العثمانيين.

### يقظله من سينة

«رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» [الكهف: ١٠]، ربنا اشرح



صدورنا لما فيه خيرنا و خير أهل ملتنا أجمعين. اللهم إنك تعلم خيرنا و فلاحنا في اجتماعنا و ائتلافنا، و ارتباطنا بعلائق ديننا، و اعتصامنا بحبلك المتين، اللهم كفر عنا سيئات التفریط فيما أوجبت علينا من ذلك بالهداية إلى الإنابة و الإعانة على تلافي ما فرط و القيام بالمستطاع مما فرضت.

مضى زمان فرط فيه الهنديون عند تداخل الإنجليز في شئونهم فتدابروا، و حول كل وجهه عن الآخر، و لم يصغوا لدعوة الله في طلب الاعتصام بحبله. فذاقوا و بال أمرهم، و سقطوا جميعاً تحت سلطة الدولة الإنجليزية، و سادت عليهم و اتخذت السادات منهم خدماً لرجالها و خولاً بعد أن كانت تدعي أنها خادمة لهم أمينة في الخدمة، و لم يهن لها أن تكون سيّدة عادلة، بل تجاوزت فيهم حد العدل، و استبدت عليهم ظالمة جائرة، فلما لفحتهم نيران القسوة، أقبل بعضهم على بعض و نهضوا جميعاً للتملص من أغلال ظالمهم، من نحو أربع و عشرين سنة إلا أن إخوانهم الأفغانيين و البلوچيين و الإيرانيين كانوا في غفوة عما نهضوا إليه و لم يمدوا لهم يد المساعدة، بل كان الإيرانيون في حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون و لم يرتبطوا بهم في التعاون على شأنهم كما أنهم لم يرتبطوا في ذلك مع العثمانيين، فإهمال جيرانهم، و رسوخ أقدام العدو بينهم، كان سبباً في تغلب الظلمة الأغراب عليهم، و لو عقل المهملون لعلموا أن العدو أن العدو إذا تمكن في الهند قويت شوكتة ثم كر عليهم، و أوقع بهم ما أوقع بإخوانهم.

بعد هذا زحف العدو الغريب على بلوچستان و اشتغل معها بالمنازلة، و فرط الأفغانيون و الإيرانيون في تعصيدهم، فتم له بذلك أن يسود في جزء عظيم من أراضيهم ثم انقلب على الأفغانيين و كانت بينه و بينهم حرب هائلة، امتد زمنها نحو سنتين و ما نبض في الهنديين عرق، و لا امتد من الإيرانيين ساعد، و لا كانت بينهم و بين العثمانيين وصلة، و لو كان لجميعهم بصر بالعاقبة لأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين، بالغ الخصم في تطاوله حتى اعتدى على الممالك العثمانية بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التي هي أعظم أيلة من إيلات العثمانيين، بل

أهم أقطار المسلمين، وهو الآن محاولة الاستيلاء على تلك البلاد، والاستبداد بالحكم فيها غير مبال بحقوق الدولة العثمانية، ولا محترم ولايتها الشرعية، وكان المسلمون لبداية الأمر على مثل تفريطهم السابق غير ملتفتين إلى ما حل بهذا القطر الإسلامي العثماني، ظنًا منهم أن العدو يصدق مرة في وعده أو يخشى عاقبة سوء من طمعه، فلما رأوه غريقًا في غيه، متغلغلًا في سيره، مغرورًا بقوته، ناصبا لحبالته، اهتزت رواسيهم، وتحركت ثوابتهم، وتنبهوا من سباتهم، وندموا على ما سلف من سابق التفريط، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم فلا بد أن يمس يومًا جميعهم، فصارت المسألة المصرية سببًا في إحياء الإخوة الدينية، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس و الهند و أفغانستان، فلو تمادى الإنجليز في حرصهم، وحملهم الشره على غمط حقوق العثمانيين، وثبتت الدولة العثمانية في المدافعة والمطالبة، لوجد لها من المسلمين القادرين على نكاية الإنجليز من يقوم بنصرها أداء لما أوجب الله عليه.

و إنا بعد أداء الشكر لأولئك المؤمنين الصادقين، على ما أظهروا من حميتهم الدينية التي أشارت إليها رسائلهم، نرغب إليهم أن يحافظوا على وحدة العقيدة العامة و جامعة الشريعة الحققة و أن يصغوا إلى أصوات الغيلان التي تناديهم في الليالي المظلمة، بما يحاكي أصوات الإنس و إنما هي أصوات مردة الشياطين، يبتغون تفريق الكلمة، و تشتيت الشمل و إخماد الغيرة، و نسأل الله تعالى ثباتًا للمسلمين على أصول الاتحاد، و قواعد الألفة، و أن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف في المسائل الثانوية، سببًا في حل الجامعة الإسلامية، التي قوامها الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر، و أن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محق ملتهم و إفساد ولايتهم، و الله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

### حيلة إنجليزية

ذكر كثير من الجرائد الهندية، و فيها جريدة (أخبار عام) أن عددًا وافرًا من

الإنجليز يدخلون في دين الإسلام، في هذه الأيام، وكثرت الظنون في هذا العارض الجديد، الإجماع على أن ليس الباعث عليه حسن العقيدة في هذا الدين، والإذعان لأحكامه القدسية، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشكلاتهم، ليركبوا إليهم، و يحسنوا الظن بهم، فيبيحوا لهم بما تكنه صدورهم من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السوداني، وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهنديين، وعظمت منزلتها فيهم، وتوقع الإنجليز شرا من فشوها، و امتداد شهرتها، بين مسلمي الهند، و طلبوا للاحتياط هذه الوسائل، وقالت بعض الجرائد: إن الخشية من الإذعان لدعوة السوداني قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند، فكان من مجموعهما فرع شديد حمل الإنجليز على التودد للمسلمين، والظهور في مظاهر العدول المنصفين، بل الأصفياء المخلصين، حتى إن الإخلاص و العدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامي ليملكوا بذلك قلوب السذج، و يمحسوا بعض الصدور من الحقد عليهم، و يثقوا به شرا عاجلاً أو آجلاً، ولكن الصيف ضيعت اللبنة.

كان يمكن لهم ذلك بالاعتدال في السطة، و الأخذ بشيء من النصفة قبل اقتراب النكبة، أما الآن و قد أوغرت الصدور غلا، و وقرت القلوب أحقاداً، و تحقق عند الكافة من المسلمين، بل و غيرهم من الهنديين، أن الإنجليز لهم في كل مصلحة مفسدة، و في كل حسنة سيئات، و في كل صفاء دخل، فهم الخادعون الخائنون، بل هم الكاذبون المنافقون، هذه صفاتهم لم يبق فيها ريبة عند مسلم، فلا تفيدهم الحيلة أدنى فائدة، و لا تعود عليهم إلا بأسوأ عائدة، و لا ينالون منها إلا وقوف المسلمين على غاية سيرهم عند عجزهم، و ازديادهم بصيرة في أمرهم، و يقينا بضعفهم، حيث لم يبق لديهم من الوسائل إلا خلع دينهم، و الدخول في دين المسلمين إرضاء لخواطرهم، و لسنا في حاجة لتحذير المسلمين منهم، فإن لنا يقيناً بأنه لا يوجد مسلم في أقطار الهند جميعاً إلا و هو على علم تام بما يريد به حاكموه من الإنجليز، فما هو بمؤمن لهم حتى ولو كانوا صادقين.

### وداد الإنجليز للمسلمين

يظهر من الرسائل و البرقيات الواردة من القاهرة أن الإنجليز وفقوا لإلهاب حرب صليبية بين الحبشة و مسلمي السودان، و الله يعلم ماذا تكون العاقبة إذا طار شررها. ربما لا يوجد مسلم يعتقد بدين محمد ﷺ - إلا و يسعى ببذل روحه و ماله لإحباط أعمال الإنجليز ورد كيدهم، خصوصًا مسلمي الهند المغرورين بخديعة حكامهم، و دعواهم أن دولتهم نصيرة الإسلام، و حليفة الدولة العثمانية، فمما نقلته الأخبار بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤، أن من أحكام الاتفاق الذي عقده الأميرال هفت مع ملك الحبشة أن تكون مصوع مباحة لإرساء المراكب الحبشية ابتداء من شهر سبتمبر. فإما أن يكون هذا بنزعها من أيدي المصريين، بل العثمانيين، بل المسلمين و جعلها بلدًا إنجليزية يبيعها الإنجليز لمن شاءوا و يمنعونها من أرادوا، و إما أن يكون بتقديمها أقطاعًا للملك الحبشة، و من أحكامه أن يأذن الملك للحامية المصرية أن تقيم حصونًا على حدود مملكته حتى إذا هجم السودانيون عليها باعتبار أنها حصون مصرية تدرع الملك لمواثبتهم بدعوى أنها في حدود بلاده فتشب الحرب و يحمى و طيسها بين مسيحي الحبش و مسلمي السودان، و لما كان غرض الحكومة البريطانية أن تضم مصر و ملحقاتها إليها كما يدل عليه اهتمامها بمد سكة الحديد بين سواكن و بربر، أخذت على الملك عهدًا بقبول ما تحكم به ملكة إنجلترا عند عروض مشكلات بينه وبين الحكومة المصرية و إن جرى الحكم على العرف و لم تلاحظ فيه الأصول السياسية، هذه هي الدولة التي بلغ الخافقين صوت دعواها أنها حامية الإسلام و المسلمين، و ظهيرة للعثمانيين، فليعلم كل مسلم أن من نيته انقراض هذا الدين و أهله من وجه الأرض و إن لم يكن ذلك عليها بيسير.

### التهتك في الحيلة

اشتهرت دولة الإنجليز بخلاصة الشرقيين و أخذهم بالرواية<sup>(١)</sup> حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت، و انقلب وجه الحيلة فظهر مستورها، و عادت تشبه ألهيات الصبيان، و ألعيب الأطفال، يدرك سرها الذكي و الغبي، من يوم كان اللورد دو قرين في القاهرة لكشف حالة مصر و تقرير نظامها لحكومتها (كما يزعمون) لوح للحكومة بترك السودان، ثم جاء من بعد الماچور بارنج و ألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه، لأنه يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفائدة، فامتثلت الحكومة أمر غالبها و همت بإخلائه و لم تلبس عملها حتى صدرت أوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال چوردون للقيام بتخلية السودان، فتكون المنة على السودانين في استقلالهم (الموهوم) لدولة بريطانيا، و تكون الصلة بينهم و بينها خاصة، و ما وصل الخرطوم إلا و أقام محمد أحمد أميرا على كوردفان، و أخذ في إرجاع الولايات السودانية لملوكها الأقدمين أو أبنائهم، و لم يكن القصد من هذه الزغزة إلا أن يكون السودان بعد تنازل المصريين فراطة لا حق لأحد فيه فيأخذه السابق إليه بدون أن تعترض فيه المشكلات السياسية ليتيسر للإنجليز عاجلا أو آجلا أن يستولوا عليه و ينزعوه من أيدي أمرائه الصغار، و يكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومات الدول عنها كما أشرنا إلى ذلك في أحد الأعداد. و في هذه الأزمان الأخيرة أخرجت حكومة إنجلترا من جرابها ألعوبة أخرى، و مثلت من ضيق چوردون في الخرطوم سببا عظيما لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه، فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات، و تعيين المهندسين و الصناع، ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر و يباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر كما ذكرت ذلك جريدة (البال مال چازيت) و تزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخليص چوردون، إن كان چوردون في خطر و يحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش، فهل يبقى حيا إلى أن تمد سكة الحديد و تخرق الجبال و الأدوية و تسير عليها العربات

---

١. الرؤيعة: المكر و الحيلة.

حاملة الجيوش، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيرا أو هلاكه قتيلا، إذا فرضنا هلاك چوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه فهل تهدم دولة إنجلترا طريق الحديد، و تنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاء وجودا؟ كلا والله لا هذا ولا ذاك ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان، فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقي، فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالبحر و لم تلاق في ذاك صعوبة، على أنها في خلال المدة بعد مد السكك الحديدية تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية، فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية بابا و تغلق، بصفته باب المنفعة عن مصر فتأتي بضائع البن و نحوها هما يحتاج إليه السودانيون من إنجلترا إلى سواكن، و من سواكن تذهب إلى السودان، بدون أن تصل إلى أيدي المصريين، و تنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربر ثم تحمل إلى سواكن و تصدر إلى أوروبا و لا يراها مصري. فإذا تولى الإنجليز مصر (لا قدر الله) حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان (و هي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية) و إذا ألجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان و بذلك يتقوض كثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية، و يعدم بخرابها آلاف مؤلفة من النفوس فليس حقيقة الغرض من مد سكة الحديد من سواكن إلى بربر إلا التوصل إلى ينبوع متدفق من ينابيع الثروة المصرية، و تحويل مجراه عن مصر إلى جزائر بريطانيا. و سنأتي على تفصيل الخسائر التي تلم بأهالي مصر من مد هذه السكة في عدد آخر.

هذه إحدى خطيئات الإنجليز الذين بعد استيلائهم على الهند حظروا على الأهالي في جميع ممالكهم أن يعاجلوا زراعة الأصناف التجارية كالنيلة و نحوها، واختصت الحكومة الإنجليزية بزراعتها وزادوا في المظلمة فحكموا على جميع الحكومات المستقلة التي يتولاها النوابون و الرجوات أن لا تزرع الأفيون بحجة أن الحكومة الهندية الإنجليزية تزرعه فلا يجوز لغيرها العمل في زراعته كيلا تقل الفائدة

أو لئلا يستفيد شيئاً مما تستفيد. هذه آثار جورها يثبتها خراب البيوت القديمة وفاقاة العائلات الشريفة. في كل بلد لها فيه أمر ونهي، ولا تزال ترد شرعتها هذه في كل قطر تطأه أرجل رجالها قريباً أو بعيداً. فعلى البصير أن ينظر و على اللبيب أن يحظر.

### فرصة يجب أن لا تضيع

نشرت الدعوات و طلبت الدول العظام لعقد مؤتمر في لندن بعد مفاوضات طويلة بين حكومتي فرنسا وإنجلترا. ماذا كان المؤتمر و ماذا نوت الحكومة الإنجليزية بالدعوة إليه؟ و ماذا كانت تقصد الدول من وجود نوابها فيه؟ و أية غاية كان يطلبها خريت السياسة اللورد بسمارك؟ انعقد المؤتمر ثم صار عقيماً، و بقيت تلك المقاصد مكنونة في صدور أربابها، كانت حكومة إنجلترا تطمح للاستيلاء على مصر باسم أمير مصري. و حالت دون مطمحها المصاعب أزمانا حتى سنحت لها الفرصة المشئومة بتشويه وجه الحركة العربية فتيسر لها بتلك الحركة إرضاء الدول. و استئذان الدولة العثمانية بالتدخل في توفيقها. فسهل دخول مصر على نية أن لا تخرج. و هل يمج الظمان بارد الزلال من فيه!! ظنت أنها ملكت أرض مصر و وجدت عليها دينا ثقلا فرغبت تخفيفه لأنها ترى ما ينفق من خزانة مصر إنما ينقص من خزانة إنجلترا. و لم تقصد بتخفيفه رحمة الفلاحين. و لم يبعثها عليه الشفقة على المصريين. و عميت بصيرة من ظن بحكومة إنجلترا قصد المرحمة في هذا أو في غيره من الأعمال. قصدت تعمية الأمر على الدول لتنال منهم تصديقا على أعمالها فيتسع لها المجال فيما بعد، و بدأت باستمالة فرنسا و عقدت معها اتفاقا يوطن نفوس السياسيين على الرضاء بما تريد، ثم أنشأ السير بارنج لائحة للمالية أثبت فيها عجز مصر عن أدايونها. له لا أن رجال الدول كانوا احذق من أن ينخدعوا لعلمهم أن وادي النيل أحوج إلى العدالة و حسن الإدارة من تخفيف الدين. لم يخف على السياسيين أن مصر لو سلمت إدارتها لحاكم نافذ الكلمة قوي العزيمة واسع الخبرة بأحوال البلاد لو سعت قدرتها أداء ما عليها بل و ما يزيد عليه، و إن كان يثقل على

دولة تجارية. قررت في الاتفاق الفرنسي إطالة مدة حلولها العسكري إلى ثلاث سنوات و نصف ثم تخرج على شرط اتفاق جميع الدول على خروجها فعلقته بما يشبه المحال لتسهيل عليها المواردية ولكن لم يذهب على رجال السياسة في سائر الدول أن بقاء إنجلترا في مصر لا يزيدها إلا خرابا.

و لما انعقد المؤتمر كشف مسيو ديلنيير الفرنسي ما في لائحة بارنج من الأغلاط فشرعت إنجلترا في تهديد فرنسا بالميل إلى ألمانيا. إلا أن السفير الألماني و هو تلميذ البرنس بسمارك و لا يعمل إلا بإشارته كان أميل إلى فرنسا، فإن سياسة البرنس مبينة على التفريق بين فرنسا و إنجلترا (وقد حصل) فحصل اليأس لحكومة إنجلترا من تخفيف النفقة على الملك التي زعمت أنها ملكته، فحلت المؤتمر أو انحل بطبعه.

و صارت الدول الأوروبية في جهة، و إنجلترا وحدها في جهة أخرى<sup>(١)</sup> و لم يكن من رأي الدول أن يقعوا آلة في يد إنجلترا تستعلمهم في قضاء أوطارها فطاشت جرائد الإنجليز غضبا على ألمانيا و أخذت تذكرها بأن استيلائها على الألزاس و اللورين إنما كان بمساعدة إنجلترا المعنوية، و هاجت الجرائد النمساوية و الألمانية، و صالت بالطعن و التجريح في السياسة الإنجليزية، و اتفقت حكومة ألمانيا و النمسا على إلزام إنجلترا بتحديد أجل لدفع الخسائر التي نشأت عن ضرب الإسكندرية. الحكومة الإنجليزية في رجفة شديدة، و خيفة من سوء العاقبة، إلا أنها على عاداتها تظهر الإقدام و تنطق بالحماس و توهم أنها غنية عن العالمين. عمدت إلى الاستقلال بتدويخ مصر، و تقرير سلطتها فيها و إخماد فتنة السودان، و ظنت أنها قادرة على كل ذلك، فجهزت القواد و عينت اللورد نورثبروك أعدى أعداء المسلمين و مخرب بيوت الشرقيين ليتولى العمل لدولته في القطر المصري. ولكن

١. ما أقسى التاريخ و ما أعظم دروسه، فيوم أمتت مصر قناتها و ثارت ثائرة فرنسا و إنجلترا و غيرهما انعقد مؤتمر لندن عام ١٩٥٦ ليسترد القناة من أبنائها .. و كتب لهذا المؤتمر الفشل، و لأصحاب القناة الشرعيين النصر المبين.



هيهات و هيهات. نترك الآن بيان ما يترتب على انفراد الإنجليز عن سائر الدول في أمر مصر إلى عدد آخر و نقدم كشفًا لجوهر حالهم العامة.

أولاً: إن الإنجليز على عادتهم المألوفة إذا قصدوا الاستيلاء على قطر لا يصرحون بقصدهم حتى يتمكنوا فيه، و لا يبقى لهم منازع في الداخل و لا في الخارج، فلو فرضنا أن المصريين و الدول أجمعين اتفقوا الآن و طلبوا من إنجلترا أن تعلن بتملكها لمصر لامتنت الحكومة الإنجليزية و أظهرت العفة و القناعة، و لظهر المستر جلادستون في دلوق الزهاد و لصالح جميع الإنجليز من جميع الأحزاب.

أستغفر الله لا نريد سوى إصلاح البلاد و توفير خيراتها!! و تحت هذا الحجاب يتصرفون تصرف الملاك و يختصون بالوظائف العليا، و يديرون حكومة البلاد على رغبتهم، و ينقلون ثروتها إلى جزيرتهم، و يمزقونها قطعاً يهبون منها ما لا يهمهم لأعداء البلاد، ليعينوهم على تذليلها و استعبادها.

و ثانياً: إن حكومة الإنجليز من أضعف الحكومات في القوة العسكرية البرية، و أحد سلاحها التهديد، و أكبر قوتها التهويل، و وضع الأمور الصغيرة، تحت النظارات المعظمة، لترهب بذلك كل جاهل، و تخيف كل غبي، لهذا لا تتمكن بدسائسها في قطر إلا عند سكون أهاليه، فإذا نبذ الأهالي طاعتها، و عارضوها في أعمالها، سترت ضعفها بترك البلاد لأهلها، فإن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين، تنهزم بانهمز امهم، و ما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد على ما نقول.

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكري و استولت على المدن و كاد قدمها يرسخ في البلاد، فلما قام الأهالي من كل صقع. و التحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألف عن الوقوف موقف الدفاع، و اضطرت حكومة إنجلترا بعد تسلطها ستين، و بعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني أن تطلب الأمير عبدالرحمن خان من روسيا بعد ما أقام عند الروسيين اثني عشرة سنة معززا مكرما و أن تقدم له أربعة ملايين من الجنيهات لينفقها في إدارة

بلاده و تركت له البلاد و ولت.

حكومة الإنجليز إنما تخضع لضرورة و للضرورة أحكام - فعلى قبائل العرب في مصر و شمائها أن يتذكروا شهائمهم العربية، و حميتهم الدينية و يقتدوا بالأفغانيين لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب الذين لو تمكنوا في البلاد لمحقوقهم و أذلهم، و ليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق و الدفاع عن الدين و الوطن كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة، فإنما ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه و ماله و شرفه، و أن يخرج مخالف عدوه من أحشائه، و هي سنة جرى عليها دعاة الحق، في كل أمة، و تاريخ أوروبا القديم و الحديث، و تواريخ الأمم الشرقية أولها و آخرها تنطق بصدق ما نقول و على المصريين عموما و الفلاحين خصوصا أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم و أن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين لا نطيع إلا حاكما وطنيا مسلما نافذ الكلمة حازم الرأي قادرا على إدارة البلاد بقوة وطنية، و ليستصرخوا في ذلك جميع الدول و يبرهنوا على قدرتهم، الأدلة على أن مصلحة الدائنين، لا يمكن حفظها إلا بإجابة طلبهم، فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارا، بل و من الجنس الإنجليزي نفسه!!

على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لو لا فرمانها بعصيان عرابي لما سهل للإنجليز أن يدخلوا أرض مصر<sup>(١)</sup> و لا أصابوا هذه الغنيمة باردة، فلتنظر إلى قوتها و نفوذها و تلاحظ أن الحل على من عقد، و العقد على من حل. و لا تنس أن مصر حبكة الممالك العثمانية كما بينا مرارا، و لا تغفل من النمسا و شرهها، و روسيا و طمعها، و فرنسا و آمالها، فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع. و إذا فرط متساهل في أهل ملته فلن يجد منهم فيما بعد عوناً. لو تحرك العثمانيون لرأوا عوناً من جميع المسلمين خصوصا و قد حصلت كدورة

١. هذا هو أول هجوم يشنه الأفغاني على الدولة العثمانية لأنها أصدرت فرمانها الخاص باتهام عرابي بالعصيان و نكست حركته مما أدى إلى تسلل الإنجليز و استعمار مصر سبعة عقود!!

بين إمارة الأفغان و حكومة الإنجليز. بل نكرر ما قلناه مرارا من أن نفوذ العثمانيين في الهند يمنع الإنجليز من الجهر بعدواتهم البتة. فهذه فرصة الإقدام فإن ولت الفرصة فربما يصعب التلافي، ولا يبقى إلا الندم، حيث لا ينفع الندم، وفق الله الدولة العثمانية إلى ما فيه خيرها و خير المسلمين، و بصرها بالرشد و كفها شرور المفسدين.

### تنبيه

طلب إلينا أحد الأعظم من ذوي الحل و العقد في المسلمين أن ننشر الجملة الآتية بنصها فما هي:

«وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»

[التوبة:٣]

ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به، ملعون من يمكن الأجانب من دياره، محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير، و يصغر العظيم، و يمهّد الطرف لخفض كلمته، إعلاء كلمة الأغراب، ملعون من يختلج في صدره أن يلحق عارًا بأمتة ليتم ناقصًا من لذته. عجبًا عجبًا. لا حول و لا قوة إلا بالله. هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة و خمسة ملايين لا حقة تمكن الأجانب من مصر، و هي مفتاح الحجاز و باب الأقطار الشامية. هيهات هيهات. أظن مريض القلب أن يترك حتى يأتي هذا المنكر؟! أظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه؟ أيتوهم أنه يبقى حيا على وجه الأرض و فيها مسلم؟! لا أظن أن يكون له حظ من البقاء، و لو كان في أبرج من الفولاذ. اهـ

### مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيدًا!!!

يتوكأ الإنجليز عن توفيق باشا في حركتهم بمصر، و يتخذونه آلة لتخريب بلاده و هدم ملكه، و ما يكون من شر ينسبونه إليه، و ما عساه يوجد من خير يصلون نسبته

بهم، و يردونه إلى أنفسهم، و فيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية، و يجيبون إليه إغفال الأصول الدينية. و هو يميل معهم و يمدهم في مقاصدهم و يطوع البلاد لهم بما بقي له من السلطة الصورية كما يتظاهر بالتدين و المحافظة على الصلوات. فإن كان باطنه يطابق ظاهره، و كان معتقداً بدين الإسلام، فعليه أن يتنحى عن الأمر و يترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبراً ذمته من العار الذي يلحقه و يلحق بيت محمد علي من تصرفه، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته، و يقاوم الإنجليز بما في جهده، و يموت شهيداً في سبيل دينه و وطنه، وإلا فليس يغني عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته و حاشيته أنه ناقد على الإنجليز كاره لوجودهم في بلاد مصر و يودلو يخرجون كما أنبأنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصري.

إذا تمادى توفيق باشا في سيره اللمتوي فعلى المصريين أن لا يقعوا صيداً في يد الإنجليز بهذه الحبال البالية و هذا الفخ الواهن، و لينظروا في شئونهم و ما توجه عليهم فروض دينهم، و إلا فما الله بغافل عنهم.

### هؤلاء رجال الإنجليز و هذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياماً لضرورة ما مسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداء الهواء في البلاد الفرنسية هذه الأيام، و الحمد لله على زوال المانع. إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين. فقد خلقنا و الشكر لله لهذا العمل و طبعنا عليه و نرجو ديان السموات و الأرض أن نموت في هذه السبيل و أن نعث في زمرة السالكين فيها.

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا، و من يؤمل فيهم صدق النية، في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية. و ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي ما مرت قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه، و ليسبر أغوار

المطامع الإنجليزية التي لا يدرك متنهاها. تلك المطامع التي بعدما التهمت ثلث المسكونة و طوقت كرة الأرض بالفتح و الاستملاك لم تزل في مد لا جزر معه. و لا يزال رجال حكومة بريطانيا في لهم شديد لابتلاع ممالك العالم وكلما أساغوا قطراً طلبوا إليه آخر. و ليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الأفكار و غضون الأقوال. و ليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين. و يتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الأعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر إليها و إظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص، كيلا يغتر الجاهل، و لا يزل العالم.

لاقي (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية و أنفذ الناس رأيا فيها، و قد جرت بينه و بينهم محادثات طويلة في الأحوال المصرية، و من محادثاته التمهيدية ما نشر في بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال چازيت) و جريدة (التروت)، التي يحررها النائب الشهير مستر لا پوشير و جريدة (التايمس) و سيذكر شيء مما جرى بينه و بين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً، و المصريون خصوصاً، و ستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم و أدركه من مرامي أفكارهم. أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه و بين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الإنجليزية. ليأخذ كل مصري منها حظه، و يصيب كل شرقي سهمه، و يقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار الحكومة الإنجليزية.

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية: ألا يرضي المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية؟ و ألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك، و فلان باشا و فلان باشا؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا): كلا إن المصريين قوم عرب و كلهم مسلمون إلا قليلاً، و فيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين و الجنس، و لا يصح لحضرة اللورد و هو على علم بطبائع الأمم أن يتصور

هذا الميل في المصريين، فقال الوزير: هل تنكر أن الجهالة عامة في أقطار مصر، و أن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي و الحاكم الوطني، و أن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المذهبة؟ فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرضه الدين، و أوجبه حقوق الشريعة، و قال: أولا إن النفرة من ولاية الأجنبي و نبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر و ليس بمحتاج للدرس و المطالعة، و هو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدموه منهم في الدفاع عن أوطانهم، و ثانيا أن المسلمين مهما كانوا و على أية درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التي يتصورها الوزير، فإن الأميين منهم، و من يقرءون و لا يكتبون، لا يفوتهم العلم بضروريات الدين، و من أجلاها و من أظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفهم فيه و أن لهم في الخطب الجمعية و مواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية و أن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم و يحدث فيهم من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم خصوصا المصريين الذين ينطقون باللسان العربي و يفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان و هو لسان دينهم، و ثالثاً أن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم و الآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوروبا، و أخذ كل مصري نصيباً منها على قدره، و لا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون، و الأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، و من لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئ، فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعي و التقليد الديني محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي قوي بها الميلان الأولان، و لا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الأمم. اهـ

أين العلماء الأذكياء؟ أين الجهلة الأغبياء؟ أين الأباة الأعلياء؟ أين السفلة الأذنياء؟ ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية. كل ذي شكل إنساني، و صورة بشرية، يدرك ما وراء هذه الأسئلة، و ما تشف عنه هذه الظنون العجيبة. هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من

المسلمين عموماً، و المصريين خصوصاً، إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنساني، وأنهم في حضيض من الجهل، لا يميزون فيه بين الغريب و القريب، و لا بين العدو و الحبيب، هذا دليل على أن الإنجليز (إلا من أنار الله بصيرته و وفقه لفهم الصواب) يعتقدون أن الأمم الشرقية، و الأمة المصرية، في درجة الحيوانات السائمة، و الدواب الراحية، لا تتألم إلا من الجوع، و فواعل الطبيعة المادية، و ليس لها من الإحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية، و لا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية، فتألف راكبها، و العامل عليها و مستخدمها، في أي عمل من الأعمال الشاقة، ما دام يقدم لها طعاماً و شراباً، و أنها تهش و تبش لرؤية من يقدم لها غذاءها و عشاءها، و إن كان من أشد البلاء عليها، بما يسومها من مشاق الأعمال، فإذا عجزت عن العمل ذبحها و تغذى بلحومها، ألا فأعجبوا .. إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية في الأمم التي يتسلطون عليها، فأى معاملة تكون منها لها؟! ألا يعاملونهم معاملة العجموات و الحيوانات الرتع؟! بلى، و هكذا يعاملون، و هذا تصرفهم في البلاد الهندية، يشهد بأفصح لسان على ما يعملون.

فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أسرهما: إما أن يتناكفوا و يتضافروا و يبذلوا أموالهم و أرواحهم في حفظ شرفهم الإنساني، و مكانتهم العربية، و أداء حق عقيدتهم الدينية، و يخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إلهم إلا كما ينظرون إلى البغال و الحمير، و إن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم و هذا أشرف الأمرين و ما هو عليهم بعسير، و إما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية، و يخلعوا حلية الإيمان، و يتبرأ منهم شرف العرب، و ليحملوا ناف العبودية على أعناقهم، و ليقاسموا الحيوانات في حظوظها، و ليستعدوا لكل ذلة، و ليقبلوا كل ضيم، و هذا أعسر الأمرين و أدناهما و ما أظن مصرياً يختاره لنفسه، ولئن اختاره (معاذ الله) فسيذهب الله بهم و يورث الأرض قومًا آخرين، فإن الله غيور على دينه، غيور على العدل، منتقم من الضالين، و إنا لله و إنا إليه راجعون.

### اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد

كثيرًا ما أتينا في جريدتنا على بيان مسالك الإنجليز في تملك الهند و تذليلهم لأهاليه، و ذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية في افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم و رجالهم على الأقطار، فيقتلون و يقتلون، حتى يتغلبوا على من يريدون. و قلنا إن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة، و لا صرف أموال وافرة، و إنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون في كل بلد أسود ضارية، في جلود ضأن ثاغية!! يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين، و أمنه ناصحين، طالبين للراحة، مقومين للنظام. نادينا مرارًا بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل في ملك للشرقيين، و رأوا أن القائم به رجل حاذق بصير، و أن وجوده في الملك يبطئ سيرهم إلى ما يقصدون. بادروا إلى التشويش عليه، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته. و يثيروا عليه أحقادها، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان و طلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر، أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة. ثم ينصبون بدله إما ضعيفًا أحمق، و إما صبيًا لم يبلغ الرشد، إما من أبناء الملك أو أقاربه ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه، و يبلغوا غاياتهم باسمه و يقطعوا المسافة الطويلة في مدة قصيرة، بلا ممانع و لا عائق، مع إصابتهم جزيل الأجر، على ما عملوا في بداية العمل.

هذا كما فعلوا من مدة غير بعيدة مع «راجا برودا»، خلعه بدعوى باطلة، لما أحسوا فيه البصيرة و الحزم، و أقاموا بدله ولدًا صغيرًا من عائلته، ثم انتصبوا له أوصياء، فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه، و تولوا إدارة ممالكه، و استلموا قيادة عساكره، و لم يبق له إلا الاسم، يذكر و لا يشكر، كل هذا تحت راية العدالة و الإصلاح، و حفظ الراحة و تقرير النظام، و لم يساقوا إليه إلا بباعث المحبة و الإخلاص (و لا يذكر هناك اسم التملك و الاستيلاء). نعم و لهم الحق في استبقاء اسم و السكوت عن آخر، فإن أمراء الشرقيين لا يبالون بما دلت عليه الأسماء، و إنما يهتمهم طنطنة الألفاظ و ضخامة الألقاب!!



إذا سلب الأمير الشرقي ملكه و ماله، و جرد من جميع حقوقه، و بقي له لقبه و لواحق لقبه، فهو في سكرة من لذة ما بقي له، و في ذهول عما سلب منه، هذه خلة عرفها الإنجليز في كل أمير شرقي، فلم لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء، بعد ما جردت عن معانيها، و أي داع يدعو رجال الإنجليز لإزعاج قلوب الأمراء بنزع هذه الألقاب؟ إن القلب الضخم حصن حصين، يسجن فيه الأمير الشرقي، أو جب عميق يلقي فيه، و هو يظنه جنة عرضها السموات و الأرض، فليعيش أمراء المشرق متمتعين بنعيم ألقابهم، و سعادة أسمائهم، و يكفيهم من المجد أن يقال لهم بين خدمهم و خاصتهم، في داخل دوائرهم «نواب صاحب» «راجا صاحب» «خديو صاحب» «سلطان صاحب». و اخجلتاه، هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح، و مجد شامخ، و شوكة قوية، و سطوة تخضع لها الشمم العوالي، فكيف طابت نفوس أمراء المشرق بقبولها عارية من كل شرف، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم و الحشم، و ما هم فيها بأحرار، بل لا بد أن يوافقوا فيها رضاء الأجانب.

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية في فن الحيلة، و أمهرهم في صناعة الخدعة و أطولهم باعا في النفاق، و أحذقهم في اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها، و أشهرهم في عدواة المسلمين، ذلك اللورد المحترم (نورث بروك). كان هذا الرجل البارع حاكما في الهند فأذاق أهاليه مر العذاب، في كئوس المحبة و الوداد. كم خرب بيوتًا، و قلب عروشًا، و كم خفض ربيعًا، و أذل عزيزًا، و هو في جميع سيئاته يبكي بكاء الشفقة، و يسكب دموع المرحمة على الهنديين، و يقول: إنني أول إنجليزي تهمة رفاهة أهل الهند، و إنني وحيد بين الإنجليز بمحبة الهنود، و السعي فيما يعود عليهم بالصلاح و النجاح، و إنني أستغفر الله إن كنت قصرت في عمل يؤمل بهم إلى الفلاح، و ينادي في الهنديين بقوله و أسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتموني، ولا أحطتم بما حواه ضميري، من إرادة الخير لكم، هذا هو الكاهن الحاذق في وعظه (و دونه في النفاق عبدالله بن أبي سلول رأس المنافقين في الإسلام).

إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدرة في براعته و معرفته بوجوه المكر، و خبرته

بأحوال الشرقيين، وسعة علمه بكيفيات التصرف في عقولهم و أهوائهم، و طرق أخذهم من حيث لا يشعرون، و اعترفت له حكومته يصدق الطوية في معاداة المسلمين، لأجل هذا قررت أن تبعثه إلى مصر، و عزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين و تأخذ عقولهم، فإن تسنى له النجاح، و رضي المصريون على أنفسهم عار الذل، و وصمة الضيم، فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة في جميع أعماله، يستخدمه لإدخال مصر في ملك الحكومة الإنجليزية يلقنه الأوامر السامية، و يلهمه الإدارات السنية، لتذليل أهل بلاده و سوق المصريين لقتل إخوانهم و فتح البلاد الثائرة و إقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن و تقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة و طلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيرًا لم يبلغ الرشد و استند في ذلك إلى الفرمانات السلطانية (يحترمونها إذا وافقت أغراضهم)، و جعل نوبار باشا ديواناً له (الديوان وزير يعينه الانجليز من طرفهم في الممالك التي تبقى في الهند تحت اسماء الامراء الذين لا يعرف فيهم الرشد ولا يجوز غرله إلا بأمر من الحكومة الانجليزية)، نوبار باشا لا يقصر في هذا العمل ولا يألوا جهداً في إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه، و لا هو مصري فيحتمي على وطنه، و لا هو عربي فتأخذه النفرة على جنسه، و بهذا الطريق ينال سلطة في القصر المصري مدة لا تنقص عن الباقي من عمره، و يكون في أمان من العزل، تحت ظل الحكومة الإنجليزية.

هذه مقاصد التي بلغتنا من مصدر يوثق به و لا نظنه ينجح فيها، فإن صلاح الأمر في مصر لا يقوم به إلا من هو أعرف بحال المصريين و أقرب إليهم من «نورث بروك» هذا اللورد يسلك في سيره على ما جرى عليه في الهند، إنا نذكر طرفاً من أعماله عبرة للمعتبرين، إن (چيرت ستك) كان راجاً على ممالك (جنبه) الواقعة في جنب (عنبر سر) من طرف (همالايا) فلما مات هذا الملك تولى ابنه (سر سينك) و هو ولده من الملكة ثم مات و تولى شقيقه (سوجت سنك) على طبق قانون الوثنيين،

فلما ذهب (نورث بروك) حاكماً في الهند قصد إلى تنفيذ حكمه في تلك المملكة و استملاك أراضيها حسب المألوف بين أمثاله من رجال حكومته، فطلب من (سوچت سنك) أن يتنازل عن الملك لأخيه (قوبال سنك) وكان وليداً من جارية ولا يجوز في قوانين الوثنيين أن يتولى الملك أبناء الإماء ما دام من أبناء الأحرار حي، فلما تمنع (سوچت سنك) من التنازل اعتماداً على قانون بلاده، أنزل بحكم اللورد جبراً بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد (لكونها زوجة الملك) و نهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن و التحف و الجواهر الثمينة و المخلفات القديمة (أنتيكات) التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة (فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملكية) ثم نصب بدله (كوبال سنك) و بعد مدة قصيرة عزل (كوبال سنك)، ونصب ولده الصغير (سيام سنك) ليكون الأمر و النهي حساً و معنى بيد أمراء الإنجليز، و تحت تصرف الديوان الذي أقاموه من طرفهم. هذا مثال لما يطول عده من أعمال اللورد نورث بروك في الهند.

ثم إن (سوچت سنك) المخلوع ظن أن نورث بروك وحده هو الظالم، وأنه لورفع أمره للحكومة العليا في لندن يجد لديها عدلاً و يصادف منها إنصافاً فجاء من مدة ست سنوات و عرض حاله عن الحكومة فإذا القلوب متشابهة، و النفوس متوافقة، و الآراء متألبة على سلب الحقوق، و الغلو في العدوان، و في خلال هذه المدة أنفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه، و المرافعة مع ظالمه. حتى أصبح صفر اليدين، لا يملك قوت يومه، و لا يجد له منصفاً، هذا الملك السيء الحظ مع ما كان له من رفعة الشأن، و ارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين، من نحو ألف سنة تراه الآن يتضور من الجوع في بلاد أوروبا رث الثياب حقيراً ذليلاً، هذا الذي احترمه اللورد نورث بروك الذي تريد حكومة إنجلترا أن ترمى به مصر، وهذا هو الإصلاح الذي يقصد إجراءه فيها، لكن رجاءنا في المسلمين و أملنا في المصريين، و قوة إيماننا بوعود الله، و صدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية، و تألب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية، و اضطرار الدولة العثمانية للدفاع عن مصر، كل هذا يبشرنا

بخيبة هذا الغادر في قصده، و الله لا يهدي كيد الخائنين.

### نكتة

عندما كان الشيخ محمد عبده يحدث أرباب السياسة في لندن كان أغلبهم يقول له كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين ينتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها، لكننا لنحلها محل الاعتبار، لما نعلم عن بعدهم عن الشعب المصري الحقيقي، أما أنت فلكونك عريقاً في المصرية، و عالماً من علماء المسلمين فنحب أن تبين أفكارك، و ما تعلمه من أحوال الأهالي المصريين، و شئون أمرائهم و استعداداتهم، و ما يليقون له، و ما يليق بهم، فإننا نرى ذلك منك حاكياً عن حقيقة الأمر فيهم، و كاشفاً عن أفكار أهالي مصر عموماً، و قد أشارت إلى هذا المعنى جريدة (البال مال چازيت).

### معارضة الإنجليز

تنبّهت أفكار الدول الأوروبية في هذه الأيام، إلى ما يمسها من إيغال الإنجليز في طمعهم، و أن ظفرهم في أعمالهم المشرقية لما يخمد أنفاس أوروبا و يسد عليها أبواب التجارة، و لو نجح الإنجليز في سيرهم إلى ما يطمحون إليه، لم يبق موضع قدم للتجارة الأوروبية، فيضرب الفقر في غالب أقطار أوروبا التي قوام معشيتها التجارة، و أن الدول لتعجز بعد هذا عن حاجاتها، هذا فرع ألّمت بدايته بنفوس الدول من صيحة الطبيعة، و زاد عليه ما خدش خواطرها من الإهانات المتتابة اللاحقة بها من غرور الإنجليز، دولة إنجلترا هي التي تركت الدول تأثر في الأستانة، و استبدت بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية، هذه الدولة هي التي دعت الدول العظام إلى مؤتمر للمداولة في مسألة مصر، معترفة بحقوقها فيها، فلما لم تجبها الدول إلى مطلبها الباطل، صرفت نوابهم، و انطلقت في أعمالها غير مبالية بهم، و عزمت على إرسال (اللورد نورث بروك)، و (الجنرال و لسلي)، في آن واحد إلى

مصر.

هذا كله حرك خواطر الدول، و صار من أعظم البواعث على اجتماع الأباطرة الثلاثة في شهر سبتمبر كما أنبأت الجرائد، و أكد أن موضوع المداولة بينهم هذه المسألة المهمة، لهذه المسألة كانت مدينة وارزين دار ندوة سياسية، و بها وجد البرنس بسمارك مجالاً واسعاً للسياسة، تلاقى الكونت كالنوكي مع البرنس بسمارك، و طالت مدة الاجتماع و لحق بهما مسيو دي جيرس وزير دولة روسيا، و كان البحث فيما ألم بالدول بعد مؤتمر لندن، ثم عقب ذلك سفر مسيو كورسيل سفير فرنسا في برلين إلى وارزين لملاقاة بسمارك (و إن أولت بعض الجرائد الإنجليزية حركة هذا السفير بمقصد آخر). فهذه الزيارات المتتالية بين هؤلاء الوزراء العظام، بعد خيبة المؤتمر تفتح للمتأمل باباً واسعاً من الفكر، و تشف عن أمور عظيمة سيكشفها الزمان عن قريب، هذا إلى جانب الأمر الجديد الذي صدر من دولة ألمانيا و هو تعيين وزير في سفارة مملكة لدى شاه إيران و في أعضاء سفارته بروكش باشا المشهور بعلم الخط المصري القديم، و هي أول مرة كان لهذه الدولة سفير عند الشاه، ثم ذهب ميرزا خان سفيراً خصوصياً من الدولة الفارسية إلى الدولة الروسية، و نيّله غاية التبحيل و التكريم.

كل هذا ينبئنا أن في كمين الغيب مصيبة كبرى ستقضى على دولة الإنجليز .. إن الأحقاد قد أخذت بقلوب الأمم الأوروبية و امتلأت الأفئدة غيظاً حتى طفحت، و لهذا لا ترى جريدة ألمانية أو نمساوية أو فرنسية أو روسية إلا و هي مشحونة بالطعن و التنديد، و الوعيد و التهديد، و الإنذار بسوء عاقبة حكومة الإنجليز، ليس ببعيد على عدل الله أن ينكس أعلام العاتين. الذين يعبثون في الأرض مفسدين و يسلبون ممالك العالم غيلة، و يهضمون حقوق الأمم بغيا و عدواناً، و يسيمونها عذاب الرق و العبودية عتوا و استكباراً، أظلم جو السياسة على سابلة الإنجليز، و زارت عليهم ضارية الويل من كل جانب، و لهم في هذه الأهوال حركة الخابط، إما ستراً لضعفهم، أو غروراً بآسهم، و يتعلقون بحبال الوسائل لامتلاك مصر و السودان، اللورد نورث

بروك و سميع الله خان الدهري يذهبان إلى مصر لتأليف القلوب، و جميع الخواطر على ولاء الحكومة الإنجليزية، و أن ولسلي بعدما نال من حسن الصيت بصرف الدنانير في التل الكبير، عزم على أن يفتح فتحًا آخر بمثل تلك الوسيلة، ولكننا لانظن في السودان مثل شهيد الخيانة وأبى سلطان باشا إضرابه، وهذا من جهة أخرى يسعون لإجبار الحكومة المصرية على إعلان الإفلاس و إشهار العجز عن القيام بنفقات الحكومة. ليجدوا في ذلك وسيلة لتقرير حمايتهم على القطر المصري، و تخفيض فائدة الدين و الاستبداد بشئون المملكة. إنهم نالوا في الحرب المصرية من الدولة العثمانية فرمانا سلطانيا بعصيان عرابي، فحقنوا به دماء رجالهم، و صانوا كثيرًا من أموالهم، و اليوم يسعى اللورد دوفرين بمواعيده العرقوبية، وإيماناته الكاذبة عند الباب العالي ليحمله على إرسال عشرة مدرعات إلى الإسكندرية، و سوق جيش إلى سواحل البحر الأحمر ليكون هذا بدل الفرمان بعصيان محمد أحمد، و يفوز الإنجليز بالتسلط على مصر و السودان، و يحلفون و هم الكاذبون، إنهم لا يمسون حقوق السلطان (هل أبقوا حقوقًا تمس) حتى إذا ثبتت أقدامهم تحت ظل العلم العثماني، قلبوا للعثمانيين ظهر المجن و أجابوهم بهز الرءوس و كشرة الأنياب، و لانظن أن الدولة العثمانية تغتر بوعود الإنجليز مرة ثانية، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، و قد جربت منهم حلاوة الوعد، و ذاقت في أخلافه مضاضات الإهانة، و مرارات التحقير. نعم هذا وقت يتسنى للدولة العثمانية أن تتفق مع سائر الدول لصون مصالحها، و لا يخطر ببال عثماني أن ينال خيرًا بالاتفاق مع الإنجليز، إن حكومة بريطانيا ما عاهدت عهدًا إلا و نقضته، بعدما جنت ثمرته، فربحها في العهود خاص بها، لا يشركها فيه غيرها، لم يخف على الدولة العثمانية أن الإنجليز تصرفوا في الأراضي المصرية تصرف المالكين بلا مشورتها، وهبوا قسما عظيما من السودان الشرقي للحبشة و أثاروا حربا صليبية بين الحبشيين و مسلمي السودان، نزعوا إلى الاستيلاء على زيلع و هررو و بربر، هل كان شيء من هذا بإذن الباب العالي؟ فعلى أي وجه تثق الدولة بإنجلترا، بعدما جربت من غدرها ما جربت و رأت من عدوانها ما رأت؟ لو

تساهلت الدولة مع الإنجليز في مسألة مصر فسنسمع عن قريب بأمر في الحجاز و سوريا و اليمن و البغداد و كلها من دسائس الإنجليز، أما لو أقدم العثمانيون بعزيمة ثابتة و أقبلوا على شأنهم في مصر، مع هيجان الأفغانيين و انفراد إنجلترا عن سائر الدول، لوجدوا لهم أنصارًا من جميع المسلمين في الشرق، و من المصريين و السودانيين، و لأرغموا الإنجليز، و استرجعوا ما فقدوه من المكانة أيام حرب روسيا، و لأعادوا عزتهم الأولى. هكذا ينبغي أن يساق الجيش العثماني لصدمة الإنجليز لا لخدمتهم فإن لم تفعل الدولة العثمانية، فعلي الدنيا العفا و على الإسلام السلام!!

و ليعلم المصريون من الفلاحين و العرب أن الإنجليز لا يقصدون إلا استعبادهم و استخدامهم كما يستخدم الأرقاء، و أول نير للذل يوضع على أعناق أمرائهم، فعليهم ألا يكونوا آلة في تمكين العدو من رقابهم، و أن لا يكون بعضهم فخا لصيد باقيهم، لعمر الله إنا لفي عجب من الذين يحفظون القلاع في السودان، و من المصريين الذين يحفظون لمقاتلة السودانيين، هل يعلمون أي أمة يخدمون؟! بلى إن حامية كسلا حافظت عليها حتى تسلمها للحبشة، و إن حماة القلاع في السودان يحفظونها حتى يسلموها لقواد الإنجليز إن استطاعوا، نعم كنا نحب أن نرى هذه الشهامة من العساكر المصرية، لكن إذا لم يكونوا في تصرف دولة أجنبية، أما اليوم فثباتهم هو العار بعينه، و الله لا أظن شخصًا في قلبه ذرة من الإيمان تسمح له نفسه بهذا العمل، فإن لم يسعوا في إخراج عدوهم من ديارهم، و الظن بهم أن يسعوا، فلا أقل أن يكفوا عن مساعدته في تملكها. ألا يعلم المصريون أن حركة خفيفة منهم في معارضة الإنجليز في هذا الوقت تجلب تدخل الدول و تكون سببا لإنقاذهم من هذا العدو الذي لا يكتفي بأكل لحومهم حتى يهشم من عظامهم؟ فليعلموا ذلك و ليعملوا، و الله لا يضيع أجر العاملين.

### الدهريون في الهند

دخل الإنجليز بلاد الهند و لعبوا بعقول أمرائها و ملوكها على نحو يضحك العقلاء

و يبكيهم، وكانوا يوغلون في أحشاء الهند و يتخطفون أراضيهم قطعة بعد قطعة، كلما سادوا في أرض أدلوا على سكانها وأظهروا الضجر والسامة من الإقامة بينهم قائلين: إن الإنجليز لا يشتغلون إلا بالأعمال التجارية، أما مقارفة الإدارة و السياسة فليست من شئونهم إنما يدعوهم إلى احتمال أثقالها الشفقة على الملوك و الأمراء العاجزين عن سياسة ممالكهم، و متى قدر الأمير أو الملك على ضبط بلاده فلا يبقى إنجليزي فيها لأن لهم أشغلاً مهمة أخرى تركوها لمحض المرحمة.

و بهذا سلب الإنجليز كل مالك ملك بحجة أن العمل في الملك ثقيل على النفس متعب للفكر و البدن فالأولى لصاحب الملك أن يستريح و أن يموت فقيراً ذليلاً تخلصاً من عناء التدبير، و ينادون بأنه متى سنحت الفرصة و جاء الوقت الذي لا يكون للأعمال المعاشية و لا المعادية تأثير على الأبدان و لا على الأفكار فإنهم مستعدون لترك البلاد (يوم الحشر)، و اليوم يقولون نفس الكلام بعينه في مصر!! و لما استقرت أقدامهم في الهند و ألقوا به عصاهم و محيت أثار السلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليوناً من المسلمين، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم، و هم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقاً و غرباً و شمالاً و جنوباً، و أحسوا أن المسلمين ماداموا على دينهم، و ما دام القرآن يتلى بينهم، فمحال أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبي عنهم، خصوصاً إن كان ذلك الأجنبي خطف الملك منهم بالخدعة و المكر تحت ستار المحبة و الصداقة، فطفقوا يتشبثون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامي و حملوا القسس و الرؤساء الروحانيين على كتب الكتب و نشر الرسائل محشوة بالطعن في الديانة الإسلامية، مفعمة بالشتم و السباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع مما تنفر منه الطباع، و لا يمكن معه لذي غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب، و أن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبي ذلك الإفك العظيم، و ما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين، و حملهم على التدين بمذهب الإنجليز، هذا من جهة، و من جهة أخذوا في تضيق سبل المعيشة



على المسلمين، و تشديد الوطأة عليهم و الإضرار بهم، من كل وجه، فضربوا على أيديهم في الأعمال العامة، و سلبوا أوقاف المساجد و المدارس، و نفوا علماءهم و عظماءهم إلى جزائر (أندومان) و (فلفلان) رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى في رد المسلمين عن دينهم، بإسقاطهم في أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم، فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين في الوسيلة الأولى، و طال عليهم الأمد في الاستفادة من الثانية نزعوا إلى تدبير آخر في إزالة الدين الإسلامي من أرض الهند أو إضعافه، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب و الحق المسلوب، فاتفق أن رجلا اسمه أحمدخان بهادور (لقب تعظيم في الهند) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم، فعرض نفسه عليهم و خطا بضع خطوات لخلع دينه و التدين بالمذهب الإنجليزي، و بدأ سيره بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة و الإنجيل ليسا محرفين و لا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم، ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول إنني نصراني، و أن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجراً جزيلًا، خصوصًا و قد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس و البطارقة و ما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصًا معدودة فأخذ طريقًا آخر في خدمة حكامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين و تبديد شملهم.

فظهر بمظهر الطبيعيين (الدهريين) و نادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء و ليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا الضلال المبين) و أن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع (نعوذ بالله) و لقب نفسه بالنيچري (الطبيعي) و أخذ يغري أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين، فمال إليه أشخاص منهم تملصًا من قيود الشرع الشريف، وسعيًا وراء الشهوات البهيمية، فراق لحكام الإنجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا في تعزيزه و تكريمه و ساعدوه على بناء مدرسة في (علي كده) و سموها مدرسة المحمديين، لتكون فخا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمدخان بهادور). و

كتب أحمدخان تفسيرًا على القرآن فحرف الكلم عن مواضعه، و بدل ما أنزل الله، و أنشأ جريدة باسم تهذيب الأخلاق لا ينشر فيها إلا ما يضل عقول المسلمين، و يوقع الشقاق بينهم، و يلقي العدوّة بين مسلمي الهند و غيرهم، خصوصًا بينهم و بين العثمانيين، و جهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) و نادى الطبيعة!! الطبيعة!! ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت في المدنية، و ما ارتقت في العلم و الصناعة، و ما فاقت في القوة و الاقتدار إلا بفرض الأديان، و الرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه و هو بيان مسالك الطبيعة، قد افترى على الله كذبًا). و لما كنا في الهند أحسنا من بعض ضعفاء العقول اغترارًا بترهات هذا الرجل و تلامذته فكتبنا رسالة في بيان مذهبهم الفاسد و ما ينشأ عنه من المفساد و أثبتنا أن الدين أساس المدنية و قوام العمران و طبعت رسالتنا في اللغتين الهندية و الفارسية. إن أحمدخان و من تبعه خلعوا لباس الدين و جهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين و طلبا لتفريق كلمتهم و زادوا على زيفهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند و سائر المسلمين، و كتبوا عدة كتب في معارضة الخلافة الإسلامية، هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين في أوروبا، فإن من ترك الدين في البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه و لا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديّات الأجانب، و يبذل في ترقيتها و المدافعة عنها نفائس أمواله، و يفدى مصلحتها بروحه، أما أحمدخان و أصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبد الدين يهولون عليهم مصالح أوطانهم و يسهلون على النفوس تحكّم الأجنبي فيها و يجهدون في محو آثار الغيرة الدينية و الجنسية و ينقبون على المصالح الوطنية التي ربما غفل الإنجليز عن سلبها لينبها الحكومة عليها فلا تدعها. يفعلون هذا، لا لأجر جزيل، و لا شرف رفيع، ولكن لعيش دنيء و نفع زهيد .. (هكذا يمتاز دهريو الشرق عن دهريو الغرب بالخسة و الدناءة بعد الكفر و الزندقة).

أحسن الإنجليز إلى أحمدخان بتوظيف ولده مولوي محمود عضوًا في مجلس قرية من قرى الهند لا تزيد عن (شبراخيت) في مديرية البحيرة، و من حباله لصيده

الضعفاء من المسلمين، أنه يعدهم و يمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم في وظائف الحكومة، بما له من الجاه عند جائزة الإنجليز. و حكومة الإنجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة أعضاء في مجالس القرى و لا يوجد وطني هندي في مثل هذه الوظائف سواهم، هذا هو المجد الذي ناله أحمدخان ثمنًا لدينه و وطنه، فهو كما قال صديق نواب حسن خان ملك بهوبال صاحب التصانيف المشهورة أن (أحمدخان) دجال آخر الزمان، نعم ساعده حكام الإنجليز على استخدام بعض من يقدمهم، لكن لا في الحكومة الإنجليزية الهندية و لا على الخزينة الإنجليزية وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقيين على صورة استقلالهم أن يوظفهم في بعض الوظائف الدانية.

راق هذا المشرب في أعين الحكام الإنجليز و ابتهجوا به وظنوه موصلًا إلى غايتهم من محو الدين الإسلامي من البلاد الهندية، هؤلاء الدهريون ساروا جيشًا للحكومة الإنجليزية في الهند يسلمون سيوفهم لقطع رقاب المسلمين، لكن مع البكاء عليهم و الصياح بهم، إنا لا نقتلكم إلا شفقة عليكم و رحمة بكم و طلبًا لإصلاحكم و رفاهة عيشتكم و رأى الإنجليز أن هذه أقرب الوسائل لنيل المقصود من ضعف الإسلام و المسلمين.

كان التلميذ الأرشد لأحمد خان و الوزير الأول و المدير له في جميع شؤنه رجالا اسمه سميع الله خان.

سميع الله خان هو أعظم الدهريين دهاء، و أشدهم اجتهادًا في تضليل المسلمين، و أدقهم حيلة و أقواهم مكرًا في إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين و تمكين الحكومة الإنجليزية في أرض الهند، يقوم هذا الخادع خطيئًا في محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه، و يأتي بغاية ما عنده من الفصاحة لهدم أركان الديانة الإسلامية، و إبطال عقائدها الأصلية، و يتجرأ على حضرة الألوهية، و يطعن في الرسالة و صاحبها، كل ذلك و هو ينتحب كأنما يرثي الدين و أهله.

إذا دخل في بلد من بلدان لأداء هذه الخدمة واطب أيامًا على دخول المساجد،

وحضور المحافل الدينية، واستدرج الناس بعذب الكلام، ولطف الوعد، وجذبهم إليه من حيث لا يشعرون، فإذا اجتمع عليه بعض من الناس اغترارًا بطلاوة ظاهره بدأ في دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين).

هذا العدو المبين للإسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه وظيفة قاض (في الشريعة الإنجليزية) في بلدة (أكره) وهي بلدة لا تزيد عن دسوق في مديرية الغربية، قالت جريدة التايمس بعد ما مدحت سميع الله خان بكل ما يمدح به: إن هذه الوظيفة (قاضي في بلد صغير) هي أعلى وظيفة ينالها هندي وطني (أحتاج لإثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا).

نورث بروك اللورد الإنجليزي الذي أشرنا إلى طرف من تاريخه في الهند في العدد الماضي، عرف سميع الله خان حق المعرفة عند ما كان حكامًا في الهند ووقف على أنه أصدق الناس في خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائها. ولهذا طلبه ذلك اللورد ليكون كاتم سره في مصر ليستعمله في تنفير المصريين من الدولة العثمانية، وفي إقناع المصريين بأن حكومة إنجلترا تريد بهم خيرًا، و يستعمله في استمالة قلوب العلماء لأنه واحد منهم (على دعواه) وقد يكون من نيته أن يدخل الجوامع ويعظ و يخطب و يروي عن عدل الإنجليز ما لا صحة له و ما تكذبه المشاهدة، ولكن رجاءنا في نباهة المصريين و صدق عقائدهم الدينية و شدة ارتباطهم بالدولة العثمانية أن لا ينخدعوا لهذا الراكس الهندي (الراكس بلسان السنسكريت الشيطان المريد)، لا نجح الله له مقصدًا و لا أناله مبتغى.

### جريدة الأهرام

اشتد غضب نوبار باشا على جريدة الأهرام فأصدر أمره بتعطيلها شهرا و قفل مطبعتها. و قيل في السبب إنها نشرت رسائل مدير الجريدة و هو في لندن على ما فيها من بيان بعض مساوئ السياسة الإنجليزية على خلاف رغبة سعادة الباشا!! و قيل إن السبب لنشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرم من أعيان البلاد دلالة على

استحسان مشرب الصحيفة (استقباح سياسة الإنجليز)، ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مست مصلحته الخاصة، فالسبب الحقيقي هو المنهج المستقيم الذي سلكته «الأهرام» دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا و شريف باشا مع وصفهما بالوطنية و علو الهمة و كمال الغيرة. نوبار باشا ساع إلى أمرهم و هو ما ذكرناه في العدد السابق و نشرته بعدنا جريدة (الديبا) و سائر الجرائد الإنجليزية و هو أن يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة و إطلاقا في الأمر و النهي. و علم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر و هي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن و لا دين و لا جنس في مصر، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا، و توفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات. إن قلت لا فلا، أو قلت نعم فنعم، فهو في غضبه و رضاه تابع لما يلقي إليه. فعلم نوبار باشا أن خديويا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعرو بتقديم هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصرا شاهقا. فكيف يطيب لنوبار باشا مع هذا السعي أن يسمع ذكر رياض باشا و شريف باشا مع وصفي الوطنية و علو الهمة. ربما الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه. إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن و الوطنيين، و نوبار باشا أبعد الناس عنهما لهذا أغضبه ذكرهما. كلما ذكر لفظ الوطن أو الملة أو الجنس أو الأمة، سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص، حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكما عليه و استهزاء به و لا عجب من نوبار باشا إن ظن ما ظن أو فعل ما فعل، فالرجل ليس بمصري و لا عربي و لا مسلم فإذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الراجح، لا خسر ملة و لا وطن و لا جنسا.

و قيل إن نوبار يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا و رياض باشا و كل ذي شهامة أو فكر في مصر مثل ما طلب للزبير و تكون الحكومة النوبرية حكومة هندية. و هل يبعد مثل هذا على من يسعى لخلع

الخديو؟! إن الذي يؤيد ما روي لنا في سبب تعطيل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه، وإلا فإن كان السبب ذكر الإسلام و المسلمين فيها فذلك ينذرنا بقفل الأزهر و بأمر نوبار باشا.

إنني أتعجب و كل ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين و الأتراك و الحجازيين و اليمنيين. ألا يوجد من بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده و يتقدم بصدره و يخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفقة و ينقض هذه البيعة و يكشف له و للمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية و يرفع الحجاب عن واجبات المليّة، لا حول و لا قوة إلا بالله.

إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في الذل، و يعيشون من خوف العبودية في العبودية، و يتجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفا من الموت، لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله، و لا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخر بني الإنسان!!

### لاهور

جاءتنا رسالة من لاهور باللغة الهندية (و رجاؤنا أن تكون المكاتبة فيما بعد باللغة الفارسية) فرأينا أن ننشر ملخصها: قال الكاتب:

إننا نسمع صاحب جريدة (أخبار عامة) اللاهورية ينادي من صميم قلبه بأن الإنجليز سلاطينا، خصوصا عند كلامه في الانتقاد على العروة الوثقى، و من غريب كلامه قوله إن غرض العروة أن تفصم رابطة الاتحاد بين الرعايا الهنديين و سلاطينهم الإنجليز. و لا يخجل من قوله إن سلاطينا الإنجليز هم الذين زينوا الهند بإصلاح طرقه و مد السكك الحديدية في أنحائه و وصل أرجائه بأسلاك التلغراف. كأنما الإنجليز من سلالة بكر (ماجيت) أو من جنس (الجهتري) أو من أحفاد (أكبر شاه الهندي). و إذا سمع سامع صوت هذه الجريدة على بعد يظن أن هذه الأعمال التي

زينوا بها الهند (على رأي الجريدة) ما قام بها الإنجليز إلا لمنفعة الهنديين و يتوهم أن الهنديين جنوا من ثمرتها شيئا و أن ضجرهم من سلطة الإنجليز و نزوعهم إلى التملص منها إنما هو من كفران النعمة، يا عجباً من هذا البانديت اللاهوري إنه يرى فقر أبناء وطنه و مسكنتهم و يشهد بعينه أنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم، و إن أسعد الناس منهم من يحصل عشر روبيات في الشهر بعد أن يبلغ درجة عالية من الكمال و من جملتهم نفس صاحب الجريدة. فكيف يطيل لسانه بشكر هذه الحكومة و يضع على ظهور الهنديين حملاً ثقيلاً من المنة لمد سكك الحديد و خطوط التلغراف. إن كانت حكومة الإنجليز تسوس الهند بالعدل فأين ذهبت ثروة أهاليه مع خصب الأرض و وفرة الثمرات؟! و لأي سبب ابتلي الناس بالفقر حتى لا يجدوا قوتاً؟!!

إن الجرائد الإنجليزية في الهند تنذر حكومتها بأنه لو استمرت الإدارة الهندية على حالها هذا فلا يمضي عشر سنوات إلا و تكون فتنة عمومية تأخذ بجميع أطراف الهند و يكون منشؤها الجوع. فإذا أنشئت الحكومة الإنجليزية سكك الحديد لنقل بضائعها و ترويج تجارتها و حمل العساكر لقتل أبناء البلاد و ليس عند الهنود الآن ما يباع و يشتري حتى يستفيدوا من سهولة نقله، فلا شيء تكون المنة على الهنود؟! و إذا مدت خطوط التلغراف لاستطلاع ما يجري في ممالكها و تسهيل المخابرة بين رجالها، فأى منفعة في هذا توجب مسرة الهنود؟!!

إن رجال الإنجليز بعد ما دخلوا البلاد على هيئة تجار و كانوا يخضعون للصغير و الكبير أزيد من قرن، بلغ من أمرهم الآن أن لا يعدوا الهنود من فصيلة البشر. إذا أراد الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلاد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة هيئوا مكاناً علياً يرتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع لتوضع عليه كراسي سادة الإنجليز و يجلس الهنود في منخفض من الأرض إظهاراً للامتياز، مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقي من جلودهم و امتصاص ثملة دمائهم. أي أمة متوحشة أو متمدنة تعامل أمة أخرى بهذه المعاملة؟! احلف بالله أن جنس الهندو (قوم برهما) حينما قدموا من إيران و فتحوا

الهند ما عاملوا السكنة القدماء بهذه العاملة مع أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم سماويين و ما أذلوا جنس (الباريا) بهذه الدرجة مع أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الآلهة. قبلوا جنس (التلنكان) في مصافهم و أشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوبا لهم، فتح المسلمون أرض الهند فعاملوا الوثنيين كمعاملتهم لبني ملتهم و ما حرموهم من الوظائف السامية، و ما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا كان له من الوثنيين عمال و وزراء، كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الإخوة حتى أوقع الإنجليز عمال و وزراء، كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الإخوة حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق في بنجاب و أطراف مدراس. يزعم الإنجليز أن المسلمين أولوا تعصب ديني يجور بهم عن العدل مع أننا نرى إلى الآن في الهند حكومات صغيرة يحكمهم راجوات و نوابون من أهل السنة و الشيعة و نرى للراجا الوثني وزيرا مسلما و عمالا مسلمين و للنواب المسلم وزيرا وثنيا و عمالا وثنيين، و هكذا السنيون مع الشيعة و الشيعيون مع أهل السنة و لا نرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالإنجليز رجلا هنديا في وظيفة شريفة. إن هذا البانديت (صاحب أخبار عام) لا يخجل من قوله إن الإنجليز سلاطيننا، إي سلطان يستكشف من شرف رعيته و يعدهم في عداد البهائم؟!!

إن اللورد ريبون لما صار حاكما على الهند و رأي أن روسيا وصلت إلى مرو و أحس بنفرة الهنود من الحكومة الإنجليزية و استعدادهم للثورة أراد أن يطيب قلوبهم بأمر حقير يسخر منه الأبله فضلا عن الحكيم و هو توظيف (رام جندر متر) و مولوي محمود بن أحمد خان في وظيفة القضاء ببلدة صغيرة، و هما ممن تعلم الشريعة الإنجليزية في بلاد الإنجليز (انظر كيف يطيب قلب أمة عظيمة مجروحة الأفئدة ساقطة في جحيم الشقاء بمثل هذه النكتة المضحكة) و هذا الالتفات من اللورد لكمال سياسته و حذقه، فماذا يكون موقع الهنود من نظره إذا كان يظن أن الأمم العظيمة المحترقة بنيران الظلم من أزمان تعترف بعدالة الإنجليز لمجرد توظيف شخصين وظيفة صغيرة؟!!



إن هذا مما عده اللورد الإنجليزي أمراً لازماً لصون سياسته مما عساه يطرأ عليها، ومع هذا قام الإنجليزي في الهند و رفعوا شكواهم إلى لندن من تصرف اللورد و لا يزالون يرفعون و يقولون كيف يجلس (كالا) أي الهندي الأسود على منصة القضاء و ربما يأتي وقت تقام فيه الدعوى بين يديه على إنجليزي فيصدر الحكم منه عليه (كيف يصدر الحكم من هندي على إنجليزي)، فلعتبر من يعتبر، إن الإنجليزي لا تسمح نفوسهم أن يعترفوا بإنسانية الهندي و لو للضرورة، أوجب البانديت اللاهوري أن يلقي غشاوة الغش على عينيه و أعين إخوانه و يفتری الكذب بقوله إن بين الهنديين و حكومتهم نوعاً من الالتئام؟! و هل مثل هذه الحكومة يلتئم معها ذو إحساس؟! إن البانديت يقول في جريدته و في أثناء انتقاده على العروة: إن سلالة الأمراء و أبناء العائلة التيمورية (ملوك الهند) عراة في الأسواق يتضورون جوعاً و لا يجدون خصاً يأوون إليه، فإذا كان هذا حال الأمراء باعترافه فكيف يكون حال سواهم و كيف طوعت له نفسه أن ينطق بكلمة تشعر بالرضاء عن حكومة الإنجليزي.

إنه يتملق للحكام ولكن لا أظنه ينال على التملق أكثر من عشر روبيات في الشهر فليس له أن يتعب لسانه و يجهد نفسه مجاناً. لا ينكر البانديت أن الإنجليزي إذا خاطبوا هندياً لا يكلمونه إلا بالعصا و إذا اعتدى إنجليزي على هندي فقتله حكم أطباء الإنجليزي بأن القتل مات بالسل المزمن أو داء الكبد أو بمرض عياء ورثه عن آبائه كيلاً يقاص إنجليزي بدم هندي، فيذهب دم الهندي هدراً. إن ظلم الإنجليزي وجورهم يظهر لكل قارئ من تلك الورقة الصغيرة (أخبار عام). و إنني أقول بلسان كل هندي - وثنياً أو مسلماً، سنياً أو شيعياً - إن البانديت لا يمكنه بورقته هذه أن يقطب جروح الهنديين و لا أن يطفئ لهيب أحشائهم مما يروونه كل يوم من سلب الأملاك و إهانة الأديان و تضييع الحقوق و حرمان الأهالي من خدمة أوطانهم و ليس في طاقة قلمه أن يرفع شيئاً من الواقع و لا أن يحدث خاطر محبة الإنجليزي في قلب هندي إلا من خربت ذمته و مرق من عهود دينه و وطنه، و إن البانديت يعرف هذا ولكنه يسعى لعله يحصل شيئاً زهيداً و يقنع به بعضاً منا و كثيراً من الشرقيين صارت حوصلتهم

كحوصلة العصفور يملؤها حبتان من الحنطة!! و سنكتب إليكم عن تفصيل الأعمال  
الإنجليزية عندنا إن شاء الله. اهـ

### الإنجليز والدول

ما للحكومة المصرية لاهية عن شأنها؟! ماذا تبتغي من سكونها و ميلها مع ربح  
الحكومة الإنجليزية؟! ماذا تنتظر الدولة العثمانية بعد انحلال المؤتمر على غير  
طائل؟! أظن الحكومة المصرية أن خضوعها لأوامر بريطانيا، و اهتمامها بخدمة  
عساكرها الزاحفة إلى السودان، مما يوجب الخجل لحكومة الإنجليز، فتستحي بعد  
ذلك أن تكفر نعمة الصداقة و ترعى سابقة الخدمة، فتترك مصر نقية الراحة، بريئة  
الذمة، و تمكن الأمر للحكومة المصرية، و تشيد الخديوية لتوفيق باشا؟! إن خطر هذا  
الوهم ببال الحكام في مصر فقد خرفوا، فليس يحوم مثل هذا الها جس في فكر إلا و  
قد مسه الخبل، و لا يختلج في صدر حتى يختم عليه بطابع العمى.

حكومة بريطانيا انتحلت لنفسها أسبابا للدخول في وادي النيل، و أنشأت له عللا  
فغايتها من كل أعمالها أن تكون لها سلطة ممتازة فيه سواء تأيد توفيق باشا أو تأوده،  
و لما أحس رجالها أن بحث المؤتمر ربما ينجر إلى ما يمس غايتهم هذه تملصوا منه  
و استبدوا بأعمالهم و أخذوا على أنفسهم تسكين عاصفة الثورة السودانية. فإن تم  
لهم ما أرادوا و استقلوا بالعمل في السودان فهل يرجى منهم أن يخلوا مصر بعدما  
فتحوا من ورائها ما فتحوا؟! إن هذا إلا خيال باطل. هل تهورت إنجلترا و أغاظت  
جميع الدول العظام و هيأت لنفسها خطر تألبهم عليها حبا في توفيق باشا و رغبة في  
حفظ مسنده؟! هذا مما لا يعقل. ربما تكون الدول العثمانية و الحكومة المصرية في  
رجاء أن الدول الأوروبية يستفزها الغضب فتندفع بقواها على دولة الإنجليز فتكبلها  
في سياستها و تلجئها للجلاء عن مصر فتتركها لأهلها و كفى الله المؤمنين القتال، إن  
كان ذلك سبب الفتور فهو ثقة في غير محلها و نوع من الطمع غريب. قد يكون اتفاق  
الدول على معاكسة الإنجليز متعلقا بجهاث أخرى و لا يكون إخلاء مصر من مواضع

الاتفاق كما أشار إليه كثير من الجرائد، حيث ذكرت أن من المقاصد التي يجتمع لها القياصرة الثلاث كف روسيا عن مطامعها في أوروبا وإطلاق العنان لها في آسيا والأقطار الهندية. أليس من الممكن أن مناوأة الدول للإنجليز تنتهي بسلب جزء أو أجزاء من أراضي المسلمين في مقابلة تمكن الإنجليز في أراضي مصر.

نبهت بعض الجرائد المهمة على شيء من هذا وصرحت بما لا ينطق اللسان بذكره. إن للدول اهتماما بنكاية الإنجليز ومن أعظم البواعث على اجتماع القياصرة خروج إنجلترا عن حدها في الاستئثار بالمنفعة على غيرها لكن أليس من الواجب على صاحب البيت أن يبدأ بعمل في الذود عن بيته قبل أن يساعده الجيران خصوصا إن كان للجيران أطماع متنوعة بعضها يمنع عن المساعدة وبعضها يحمل على التواني وتأجيل العمل لأوقات أخرى وما يدرينا لو حولنا الأمر إلى الجار لينقذ المغصوب من يد الغاصب لعله بعد استخلاصه يختص به لنفسه فما الذي جنيناه من ثمار مساعيه وأية فائدة حصلناها. لو شحت الحكومة المصرية بحياتها، و أبصرت أن بقاءها في إبائها، وترفعت عن هذا الخضوع البارد، وتجاغت عن تسهيل الطرق، و تمهيد السبل، لمسير العساكر الإنجليزية، ثم قامت الدولة العثمانية على المطالبة بحقوقها، و ذهبت في الطلب مذهب العمل، و لم تكتف بلوائح تسطر، و حجج تنشر، و لم تستند على سفرائها الذين ليس لهم خوض حقيقي إلا في ملاذهم و شهواتهم، لو كان كل هذا لشاركت الدولة العثمانية و معها حكومة مصر سائر الدول في معاكسة إنجلترا، و حيث إن للدولة العثمانية و الحكومة المصرية الحق الأول و الملكية الشرعية في تلك الأقطار فما يكون منهما من الأعمال يكسبهما تخليص البلاد، فإن الدول تكون في عونهما و لا حق لواحدة منها فيما بعد أن تستأثر عليهما. إن إقدام الدولة على العمل و عدول الحكومة المصرية عن مسلكها المضرب بها مما يقرب المسافة و يقصر المدة و يقوي حجة الدول في مطاردة إنجلترا - لو تساهلت الدولة العثمانية و اطمأنت الحكومة المصرية لحالتها الحاضرة فبأي وجه تؤمل الحكومتان نفعا من مطاردة الدول؟! على فرض لو استخلصت مصر من أيدي

الإنجليز ماذا يبعث الدول على مقارعة دولة عظيمة كدولة بريطانيا لتسلبها ملكا عظيما ثم تسلمه للدولة العثمانية أو الحكومة المصرية. لا نتحاشى أن نقول إن الدولة العثمانية و الحكومة المصرية واقعتان بين خطرين عظيمين، إن فاز الإنجليز في السودان فقد ضاع القطر المصري، و استقر فيه السلطان لحكومة إنجلترا، سواء عارضت الدول أم لم تعارض، و ضياع القطر المصري هو ضياع الكل كما أشرنا إليه مرارا و كما يشهد به موقع البلاد المصرية من سائر بلاد المسلمين، و إن خاب الإنجليز في منازلة الثائرين فليس يخفى على عقل عاقل ما يترتب على هذه الخيبة و ما ينشأ عن غلبة محمد أحمد و أتباعه و انهزام العساكر الإنجليزية، و ربما كان هذا الأمر الثاني، سببا لمداخلات أجنبية في جميع أقطارنا.

ليس من الصعب على الدولة العثمانية و لا على الحكومة المصرية أن تظهر شيئا من الشدة و تأخذا بجانب من القوة، و تقفا على قدم الثبات و دولة إنجلترا في تخبط مع الدول و ارتباط بالسودان، و المسلمون من جميع الأقطار في هياج شديد، لو قامتا بما يسهل عليهما لحفظ لهما الوجود ورد المفقود، و سدت أبواب المطامع، و أخذت الدولة العثمانية مكاناً من القوة تخشع له قلوب الجبارين، و لازدادت بذلك ثقة المسلمين و انبعثت آمالهم. سلكت جريدتنا مذهب الصدق في بيان حال الإنجليز مع الدولة العثمانية و أثبتت عن بصيرة و كمال خبرة أن الإنجليز يهابون منافرة الدولة و يخشون سوء مغبتها. جريدتنا تنادي بذلك من يوم صدورها بينا أن للدولة سلطة معنوية في الهند لم تبلغها حكومة الإنجليز بعد إفراغ جهدها. هذه حقيقة الأمر و مع ذلك لا ندري سر هذه السياسة اللينة التي لا نرى لها أثراً إلا في الأوراق و تحت أسنة الأقلام و الإنجليز يقاتلون و يملكون و تزداد أقدامهم رسوخاً يوماً بعد يوم و انطلق بهم الغي إلى أن أطالوا أيديهم إلى الأوقاف المصرية يطلبون التصرف في خزينتها و القيام على إدارتها، نعيد الكلام مرة أخرى و نقول إن جميع المسلمين في الأقطار الهندية و ما يتاخمها قائلون على قدم و ساق متهينون لمواثبة أعدائهم و سالبين حقوقهم فبشبات ما من الدولة العثمانية مظهر له أثر عظيم يضطر

الحكومة الإنجليزية الى ترك مصر، وليس للدولة أن تضيع هذه الفرصة فقلما يأتي الزمان بمثلها، الدول متألبة على الإنجليز وروسيا مشرفة على الهند، و الهنديون في هياج، و خطب السودان غير يسير، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز في هذا الوقت، فمتى؟!

### تعظيم توفيق باشا لنورث بروك!

ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورث بروك إليها و تمت المقابلة الرسمية بينه و بين توفيق باشا و قدم إليه رسالة من اللورد جرانفيل يخوله فيها (نورث بروك) وكيلا للحكومة الإنجليزية في القطر المصري و يطلب من الحكومة المصرية أن تساعد في حل المشكلات الحالية خصوصا المالية. فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة و أكد له خلوص الوداد و كمال الرضا بجميع مطالبه. اهـ

و يظهر أن توفيق سر بقدم اللورد نورث بروك، و إن لم يكن بينه و بينه معرفة شخصية و لا له سابقة علم بأحواله و لا بما يريد أن يعلمه في بلاده، هذا يمكن، و ليت شعري ماذا يجنى هذا الخديو الشاب من مرضاة هذا الخادع؟! و ماذا يصيبه من سهام حيله؟! و لقد بينا في الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد و طرفا من أعماله في الهند و نذكر الآن عملا آخر منها. طلب و هو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية في مملكة (كابورتال) و هي مملكة واسعة تتاخم (لاهور) و (بتيالة) فادعى على مهراجها (ملكها) أنه مجنون و هو في رشاد عقله و اعتدال مزاجه و خلعه بهذه الدعوى و سجنه في (بكسو) حتى مات حتف أنفه و قيل بالسّم و كان هذا الملك المخلوع ابن (راندهير سنك) و نصب بدله ولدا صغيرا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول في حوزة الحكومة الإنجليزية و كانت الحكومة الإنجليزية، قد تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد فكان لأولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد نورث بروك حاكما في

الهند رآها كثيرا عليهم فنزعها من أيديهم و حرّمهم من هذه المنفعة الزهيدة. هذا هو اللورد الذي طلب سميع الله خان الدهري ليكون معينا له في مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز و هو الذي أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا في أراضي الدولة العثمانية أيام الحرب المصرية كما أخبرنا الثقة الصادق من لندن ولكن العرب قتلوا رسوله هذا و شقّ به أشخاص من مصر بلا جرم. هذا اللورد هو الذي يبتهج توفيق باشا بقدمه!! صان الله الأراضي المصرية المقدسة من شر هذا المحتال و من شر صاحبه سميع الله خان الدهري.

## فرنسا و ألمانيا

جزمت جريدة (نوقيل بريس ليدر) أن الباعث على سفر البارون كورسل (سفير فرنسا في برلين) إلى وارزين هو أهم حدث سياسي، و في ظلها أن الحديث بينه وبين البرنس بسمارك انتقل إلى موضوع الحرب الصينية و مسألة الكونغو. قالت الجريدة: إن بسمارك قد غير منهجه السياسي الذي سلكه من سنة ١٨٧٠. كان مضطرا لإبعاد فرنسا عن سائر الدول اليوم وجه عزيمته لإبعاد إنجلترا. و لما اجتمع الأباطرة الثلاثة في سنة ١٨٧٢ اضطربت خواطر الفرنسيين و كان كل منهم يحدث نفسه: هل ينتظر اتفاق بين الأباطرة على مناوأة الجمهورية؟ أما إذا اجتمعوا في هذا العام فلا يخالط الريب قلب فرنساوي بل تكون النفوس ساكنة مطمئنة. ولا يوجد في دولة أوروبية ما يوجب حدوث قلق في باريس بأي وجه كان، بل يوجد ما يثبت المطمأنينة، فإن من نية الرنس (بسمارك) في وارزين أن يقرب فرنسا إلى سائر الدول البرية، و إن زيارة البارون كورسل للبرنس تعد أكبر شاهد على ما نقول. اهـ

## كيد الإنجليز في مصر

أرسل الإنجليز مراكبهم إلى ثغر الإسكندرية سنة ١٨٨٢ بلا سبب أو لقصد تهيج الخواطر الساكنة، ثم أطلقوا نيران مدافعهم على ذلك الثغر فكان عملهم الأول و الثاني سببا في خسارات جسيمة نكب بها سكان البلاد ثم كان الضمان عليهم هذا إما سوء حظ المصريين أو لضعف الحكومة أو خرقها، لا ريب أن خزانة الحكومة المصرية في عجز عن أداء هذه الغرامة الثقيلة التي هي في الحقيقة قصاص بلا جنائية. ولكن مع ذلك للمصايين حق في المطالبة بخسائهم و ليس لهم صبر على الإمهال فيها، فحدثت ربكة و حكومة الإنجليز كالصياد الماهر لا يطلب السمك إلا عند تعكير الماء!! رأت أن تصيد صيدا أو تخطو خطوة أخرى إلى مقصدها في مصر بعد خطواتها السابقة أو تمكن مخالبتها في أحشاء مصر، بل يصح أن نقول إن الحكومة الإنجليزية بحيلتها التي أشرفت على تميمها تريد أن تبقض على زمام

البلاد المصرية فتكون بأسرها في تصرفها.

من المعلوم أن عمار المساجد و المدارس الدينية إنما هو بالأوقاف التي أنشأها صلحاء الملة من أزمان مديدة و لا يزال ينشئها المقتفون لآثارهم، و قيام الدين الإسلامي إنما هو بعمار المساجد و المدارس الدينية. فالأوقاف عماد عظيم يقوم عليه عرش الديانة الإسلامية. فقصد رجال الحكومة الإنجليزية بكيدهم أن يجعلوا العلماء الذين يعمرن مساجد الله و معاهد العلوم الشرعية خاضعين لأحكامهم، مرتبطين بعمالهم حتى يستعملوهم، (و إن طلبوا محالاً) في جلب قلوب الأهالي إليهم و تأليفها على ولائهم و ربما نالوا بهم حجة عند دول أوروبا، يثبتون بها رغبة المصريين في بقائهم تحت سلطة الحكومة الإنجليزية و اطمئنانهم إلى ما تقتضي به فيهم.

هكذا رأى اللورد نورث بروك أن يحل مسألة التعويضات بأن تدفع الحكومة الإنجليزية قرضاً للخزينة المصرية تؤدي به تعويضات الخسائر التي حدثت من ضرب الإسكندرية على شرط أن تكون الأوقاف العمومية كافلة للقرض و فوائدة و تكون إدارة الأوقاف في تصرف الإنجليز.

ألا أيها النائمون تيقظوا، ألا أيها الغافلون تنبهوا، يا أهل الشرف و الناموس، و يا أرباب المروءة و النخوة، و يا أولي الغيرة الدينية، و الحمية الإسلامية، ارفعوا رءوسكم، تروا بلاء منصبا على أوطانكم، و ما أنتم ببعيد منه، و لا بمعزل عنه، إن لم يكن أصابكم اليوم، فسيصيبكم غدا، تساهلتم في الذود عن حقوقكم المقدسة، و لهوتم عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة و التذليل، و سوم الخسف و تعللتم بالأوهام. فتنتم أنفسكم و تربصتم و ارتبتم و غرتكم الأمانى، حتى جاء أمر الله و غركم بالله الغرور. أصبحتم على شفا جرف المذلة، و يخشى أن يقذف بكم قليل في جحيم العبودية.

إلا أن وقت التدارك ما فات، فالأرواح في الأجساد، و العقول في الرءوس، و الهمم في النفوس، و إقدام العدو في زلل، و شئونه في خلل، فاثبتوا و لا تهنوا، و لا



تحنزنوا وأنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين، لا ترضوا بالدنية، خوفاً من المنية، واعلموا أن ثباتاً قليلاً وإقداماً خفيفاً في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش العرموم، نعم فإن الدول متفقة على معاكسة الإنجليز، والإنجليز في شغل شاغل بالمسألة السودانية، وقلوب رعاياهم في الشرق خصوصاً المسلمين، منحرفة عنهم، وكوامن الأحقاد متهينة للوثبة عليهم، فعمل صغير في مناوأتهم من أهل مصر يوجب بعون الله سقوطهم و تنكيس أعلامهم، و رجوعهم بالخيبة خاسرين، فالثبات الثبات وحذار حذار من التوافي والتقاعد، هذا وقت يقرب فيه المؤمنين الى ربهم بأفضل عمل شرعي، هذا وقت تنال فيه سعادة الدارين، للعامل فيه خير الدنيا و له في الآخرة الحسنى و زيادة، هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعده ربه، هذا وقت يشكر فيه العامل على بسيط الأرض، و يحمد له عمله فوق سبع سموات، إلا أن الشيطان يخوف اوليائه، فلا تخافوا أعدادكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الدنيا على الآخرة، إن الله تعالى قد جعل من علامات الإيمان حب الموت اختيار لرضاه وإعلاء لكلمته، كونوا مع الله في نصره ينصركم و يثبت أقدامكم، ثقوا بوعده الله فلن يخلف الله وعده، إن أخلصتم له في العمل سلوا قلوبكم، و امتحنوا إيمانكم، و لا ترتابوا في وعود ربكم، فلن يرتاب فيها إلا القوم الكافرون.

### الصراع بين إنجلترا و فرنسا

أظهرت جريدة استندارد عند كلامها على السياسة الفرنسية حدة زائدة و قالت إنا و إن كنا لا ننصح حكومتنا (الإنجليزية) بمعاداة دولة فرنسا ولكن علينا أن ننهج الطريق الذي يوافقنا بدون أن نتنظر فضلاً من الأمة الفرنسية و لا أن نخشى غائلتها فإن كل عمل لا يبنى على هذا الأساس لا تكون غايته إلا الخيبة و لا عاقبة له إلا الخسارة و أن تباين المصالح بين فرنسا و إنجلترا في درجة لا يمكن معها و فاق بين الدولتين. اهـ

و لم تنفرد جريدة استندارد بهذا القول ولكن على شاكلتها جميع الجرائد

الإنجليزية المهمة و ليست جرائد فرنسا بأقل حدة من جرائد إنجلترا في تسوئة السياسة الإنجليزية، و هذا مما يرشد إلى تمكن النفرة بين الدولتين، و ربما ذهب بهما التباغض الذي يزداد يوما بعد يوم إلى مقارعة أشد من مقارعة الكلام، و السياسيون في إنجلترا يرون أنهم يخسرون في ذلك اليوم أكثر مما تخسر حكومة فرنسا، فإن انفرادهم عن الدول وضعفهم في القوى العسكرية، و جفول أمتهم من الحرب خارج بلادهم، إذا امتد زمنها أو كان المنازل فيها أمة قوية حربية، كل هذا سيوقعهم في فشل لا يسهل عليهم النجاة من عواقبه، نسأل الله تحقيق ما يخافون.

### نكاية الإنجليز

حركات العقلاء على حسب المقاصد و مقدرة نقدره و أولادها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شئون الممالك على قواعد العقل و أصول الفكر.

و على رعاة الأمم في كل دولة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية و بمرقب للنظر في غايتها و البحث عما بعث عليها. رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة و تضطرب لها الروابط العامة بين أمة و أمة. فليس لمحنك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده و يرد كل حادث سياسي إلى ما رسم في مخيلته و اعتقده موافقاً لمصلحته فيضل عن الرشد بالقصور و يغيب عن الصواب بالغرور، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الإمكان و يتلوها في صفحات المنافع و المضار التي يحمل على جلبها أن يدعوا إلى دفعها طبائع الأمم و لوازم مليتهم و مواقع بلدانهم و علائقهم مع سواهم حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب و الدوافع حافظاً لمداره، واقياً لنظام سيره، يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر، يضرب بسفينة عروض البحار، في أمن من الأخطار، يستفيد حتى من العواصف، و ينجو حتى من القواصف.

كانت حكومة فرنسا أشد الدول في دفع إنجلترا عن مطالبها المالية و بهذه الشدة سقط المؤتمر، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة

فاجتمعوا في (اسكيار نيافيس)، ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخاطبة و معهم وزرائهم، ورجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي و بعد الغاية. هل كان هذا التلاقي لإطفاء لوعة الشوق و إجابة داعي المحبة الشخصية؟! هل كان كما ذكرته الصحف للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين؟! كيف يكون هذا و ليس أعوان الفوضى إلا كالمصوص تقمعهم السطوة الداخلية و يكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخابرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية. إن ما تقوله الجرائد من هذا القبيل إنما يقصد به التعمية و صرف الأذهان عن النظر في الحقيقة - أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع؟! - لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فإن حكم المنافسة محى فضيلة الإيثار. قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الإمبراطوري أن يجعل لفرنسا ركناً شديداً في معارضة إنجلترا حتى يستحكم الشقاق و يفضي إلى حرب توهي القوة الفرنسية و يصيب منها ما يحب، هذه فائدة خاصة بدولة الألمان لو قدرت على نيلها فماذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها. أو يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا و تقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصفاة بينها و بين ألمانيا و تنسي الأحقاد بينهما غاية لا تطلب و الشأن فيها كسابقتها، يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الإهانة التي لحقته في المؤتمر. إن كان هذا، فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة. هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك و الفتوح في الشرق و إلى هذا القصد تنتهي؟! أصبح أن يكون ذلك الأمر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير. على أن إنجلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة و أجدر بأن يميل إليها البرنس و يتحالف معها لنيل هذه البغية؟!

هل أراد البرنس روسيا و يلهي فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الأعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك و بوسنة إلى ماشاء الله و وسعت القوة، في غير موضع وصناعة في محل القطيعة. هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات،

فبعدما فتح للنمسا بابا في الشرق من جهة هرسك رسم لروسيا طريق هراة و قندهار، و مدلفرنسا خطا في حدود تونس و هو قرير العين بما يرى و يسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها و إن لم تعد من ذلك فائدة على الأمة الألمانية.

شيء لا يأتي عليه الفكر و لا يصيبه النظر. هذا و لا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة و اهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الإنجليز عن مصر و إبقاء فائدة الدين و مبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه، و حفظ قانون المالية المصرية كما ظن مراسل (التان البرليني) قال إن في عزم البرنس بسمارك تأييد الحجة الفرنسية بثبات شديد و إرادة صحيحة، و سيكون مع فرنسا يدا واحدة في إبقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، و في زعم المراسل أن هذا كان باعثا لسياسي إنجلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين ألمانيا و النمسا و فرنسا. فإن المسألة المصرية بمجرد ما يدعو إلى حملة عمومية.

إنني أرى تحت هذا النفع جحافل أهوال، و وراء هذا الغيم و ابلاات أرزاء، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافيا في السياسية، و تغييرا عظيما في الخطط الدولية، و انقلابا في هيئة الروابط العمومية، نعم قد يكون من المبادئ الأولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فإنه لم يجد خيرا في مناوأتها زمنا طويلا. و كلما رام الوضع منها زادت علوا و ارتفاعا فيرد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها، و أن يدفع البرنس دولة روسيا إلى آسيا فهو أسلم للدولتين الألمانيةين، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها و فيما تخلفه ورائها فائدة البرنس المالية، - أرسل البرنس ولده الكونت هيربرت بسمارك سفيرا في لندن ليكون حفيظا لسره أمينا على عمله، حتى إذا ما فاته ما يرجو من العزيمة الأولى، لم يخجل من الانقلاب عنها إلى الأخرى، و ربما يرى الارتباك الذي يؤدي به إلى ما يريد إنما يكون بعقد مؤتمر جديد باسم المسألة المصرية، و يقال إنه سيثبت على شدته في هذه المسألة إلى حد، كما روته الجرائد المهمة - و قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية و الحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعلية

التيقظ التام، و الاحتراس الشديد كي لا تكون خسارتهما في استفادة غيرهما. إذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها و صانت بقية ممالكها، الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة و إلا خرق الغافل عرضه لكل خطر. الدولة تطلب نكاية الإنجليز من كل وجه فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام و هي أقدرهن على الإضرار بهم فإنهم في بلادها، يعبثون فيها مفسدين و سكان البلاد لا ينتظرون إلا خطوة من دولتهم إليهم فيقيمون القيامة عليهم.

### أسف...

أنبأت الأخبار الأخيرة بحدوث ثورة في دارسين من بلاد أرمنستان قصد الإخلال بالسلطة العثمانية في تلك الأقطار، و مهب ريح هذه الثورة من جمعية الأرامنة في تفليس، و الأسلحة و الذخائر تنهال على الثائرين من تلك الجمعية. هذه هي الأمم الخاملة التي لم يكن لها في الكون مكان، و لا على صفحة الوجود أثر، و لا في صفوف الأمم العظام قدم، أصبحت يطلب اسما رسميا و شأنًا عليا، تنفق أموالاً، و تبذل أرواحاً، و لا تبالي بأغوال المنايا، فما بال المسلمين في بعض الأقطار و قد كانوا هامة العالم، نراهم اليوم في قنوط و يأس، تتخطف الدول الأجنبية ممالكهم، و هم في سكون يكتفون بأسف العجائز، و تحسر الزمنى، مع أن لهم دولا عظاما، و عددهم يتجاوز مائتي مليون من النفوس. إن هذا لشيء عجيب حقاً!!

### إسماعيل باشا يحن إلى مصر!

عظم على الخديو السابق أمر ما نزل بمصر، و عز عليه اشتداد الأزمة في داخليتها، و عسر ماليتها، و اكتنافها بالفتن الخارجية، و ارتباكها في المشكلات السياسية، فحن إليها (و له أن يحن). و أراد أن لا يدع للإنجليز موضعاً للتعلل (في تأمين الدين و أطفأ الثورة) فأظهر من سريره ما ذكرته جريدة (الروبيليك فرانسز) و هو أنه يتبرع بالتزام أداء ما يطلبه حاملوا الأوراق المصرية مع استعداده لأن يقود

جيشاً لمغالبة محمد أحمد!!

و رأينا في جريدة الماتان أن مسيو كورسيل سفير فرنسا في برلين أخبر حكومته بوجه رسمي أن القياصرة الثلاثة استقر عزمهم أن يبعثوا إلى الخديو (توفيق باشا) بلائحة مقتضاها أن منصبه سيكون في خطر إذا استمر زمنا طويلا على الركون لإنجلترا في الدسائس المالية بالقطر المصري، وأن السعي في عودة إسماعيل باشا إلى مصر سيكون مؤيدا من وزارات برلين وستراسبورج و قيينا و باريس، وأن مسيو هربرت بسمارك يأخذ على نفسه أن يشهر الدوائر السياسية بلندن ما يترتب على عودة الخديو السابق من الفوائد حيث يعلن رسميا أن عودة إسماعيل باشا هي أفضل في نظر الدول من الأعمال التي تصدر من إنجلترا متعلقة بمصالح أوروبا و منافعها في البلاد المصرية. اهـ

إننا نعلم أن إسماعيل باشا لو رجع إلى مصر لا يكتفي بتخفيض سلطة الإنجليز في وادي النيل، بل يبذل جهده في محو النفوذ الإنجليزي بالمرّة، و ربما مد حباله إلى سائر البلاد المشرقية الداخلة في سلطة الإنجليز ليحبط أعمالهم فيها، و يهدم أركان سلطتهم عليها، لأنه يعلم أن الدولة الإنجليزية هي السبب في كل مصاب نزل به، و كأن الإنجليز أحسوا بذلك منه على ما روته بعض الجرائد فدفعوه عن نيل مقصده و لا يزالون يدفعونه، لكن لو اتفقت بقية الدول مع الدولة العثمانية على إرجاعه لم يبعد وقوعه، غير أن إحدى الجرائد ذكرت مانعا قويا و عائقا شديدا يحول دون نجاح هذا المقصد و هو امتناع الذات الشاهانية عن إصدار الفرمان لإسماعيل باشا بخديوية مصر، أيا كانت الحال. و استعظام هذا المانع مبني على ما تراءى للسلطان من أن إسماعيل باشا وهو في أوروبا اعزل فاقد السطوة لاحول ولا قوة كان مهتما للتشويش على الخلافات العثمانية ومعارضة الذات الشاهانية، وأن الرسائل الكثيرة والمقالات المتعددة المطبوعة بالألسن المختلفة المشحونة بما يمس الخلافة، وقد وصل إلى علم السلطان أن الحامل على تحريرها هو إسماعيل باشا، فهذا الظن هو الذي يمنع السلطان من تسهيل الطريق لعودته لحسابانه أنه لو صار له نفوذ و سلطة

في مصر فربما صدرت عنه أعمال لا توافق مصلحة الدولة. فعلى رأي صاحب الجريدة إن عود إسماعيل باشا إلى مصر بعد اليأس من إنجلترا لا يكون إلا بإصلاح الصلة مع السلطان و استمالة سائر الدول - هل يمكن هذا؟ ربما يمكن إذا وثق السلطان بما يطمئن به و وضح للدول ما يصح الركون إليه. هذا إذا لم تراعى الدول ولا الدولة العثمانية حركة الأفكار العمومية في مصر فإن جعلت هذا أساس العمل زادت المسألة صعوبة فإن الرأي العام في هذه الأيام مختلف بالديار المصرية. فمن الناس من سبقه ميله لتوفيق باشا و منهم من قام يدعو إلى حلیم باشا و يطلب من الناس أن يوقعوا على محضر بطلبه كما جاءنا به خبر الثقة، و منهم من هو ممسك عن الرأي صامت عن القول، و سنأتي على بيان هذه المسألة فيما بعد إذا دعت الحوادث حقيقة للكلام فيها.

### الفرصة

إذا تليت سطور الحوادث الأخيرة و أعطيت حقها من الاعتبار و لوحظ ما وصلت إليه هيئة السياسة في أوروبا لهذا العهد القريب و ما يشف عنه اجتماع القياصرة الثلاثة و ما يرشد إليه تداول الزيارات بين البارون دي كورسيل سفير فرنسا في برلين، و بين البرنس بسمارك. و لو تبصر متأمل فيما يتبع ذلك لصح له الحكم بخطر هذه الحالة في مصر على إنجلترا و أنه لم يبق لتخليصها من يديها إلا شيء واحد هو قيام العثمانيين على حقوقهم و اشتدادهم في طلبها و عدم اطمئنانهم لأعمال وكلاء الإنجليز في الأستانة، خصوصا في هذا الوقت الذي همت فيه الدول بتخفيض السلطة الإنجليزية و نزع مصر من يد إنجلترا. و يرى السياسيون أنه لا شيء أشد تأثيرا و أجمل عائدا في تلطيف المسألة المصرية من مداخله الدولة العثمانية.

و أخبر مراسل صحيفة التان في قينا بناء على ما وصل إليه من مصدر موثوق به أن دولة ألمانيا و النمسا و روسيا من رأيهم أن تداخل الدولة العثمانية و تجديد سلطة السلطان في وادي النيل يوجب تعديل الحالة السياسية، و ليس الغرض من هذا إلا

كف أيدي الإنجليز عن تلك الاقطار. فليس من ابرأى أن تصغى الدولة العثمانية لنصائح الإنجليز و وكلائها و هي ترى أن جرائد الإنجليز تنادي بلسان الأمة الإنجليزية على حكومة بريطانيا طالبة منها إعلان الحماية على مصر، بل و التمكين في الخرطوم بعد رفع الحصار عنها و تنصحها بمد سكة الحديد من سواكن إلى مدينة الخرطوم. فلو تساهلت الدولة في هذا، فقد فرطت في جزء عظيم من ممالكها، و أضاعت حقاً ثابتاً، و أي دولة سواها تهتم بإخراج الإنجليز من مصر، فهي صاحبة الحق فيها فلا يكون للدولة نصيب من ملكها إذا أضاعته بالتفريط.

اللورد نورث بروك و زبانيته يسعون لجلب قلوب الأهالي بتزيين الأماني و تخييل الآمال.

«يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» [النساء: ١٢٠]، ليتخذوا من ميل المصريين حجة يجادلون بها الدول و يثبتون لأنفسهم حقاً قانونياً في الإقامة بمصر، ثم من جهة أخرى يحشدون قوة عظيمة إلى مصر استعداداً لتلقي الحوادث المنتظرة لكن تحت اسم إنقاذ چوردون، فلو وجد الإنجليز برهاناً من الحيلة و منعة بالقوة و حملهم الغرور و الكبرياء على مشاورة الدول اعتماداً على عدم الاتصال في البر و تمكنهم من المراكز الحربية في البحر كمالطة و قبرص، و أن تحارب الدولة العثمانية، فهم أقدر الناس على محاربتها من جهة العريش و في عموم السواحل، فماذا تكون العاقبة؟ هل تكظم الدول غيها و تترك الإنجليز و شأنهم. لانظن ذلك ولكن إذا حالت الموانع دون نكاية الإنجليز في مصر عمدت الدول إلى نكايتهم بالحصول على غنيمة تعادل مصر و لا تكون إلا تكون في بلاد المسلمين، فتساهل أصحاب الحق الشرعي في وادي النيل يضيع لهم حقوقاً أخرى في غيره.

إن الدولة العثمانية أولى من سائر الدول بالعمل في المسألة المصرية و أجدرهم بالاهتمام بها، و من الواجب أن تكون أشد حرصاً على الظفر بالإنجليز فيها. إن الدولة في مقام المدافع عن حياته و هو بحكم الطبع أقوى باعثاً و أدنى للعمل من طلب الفائدة، إن شرا يقع أولى بالتلافي من شر يتوقع، و إن خطرًا عاجلاً أخرى بالانفقات



من وهم باطل نفوس المصريين في هياج فإن ما أفسد قلوبهم على الإنجليز من سوء التصرف في الحكومة و استلام إداراتها وإبطال الحقوق الوطنية و حشد الجيوش إلى البلاد لقصد التمكن فيها، كل هذه سهام خرقت شغاف القلوب و زاد الجراح نغراً ما اعترفت به جريدة التايمس من اشتداد الارتباك و تعطل أسباب المعيشة و وقوف دولاب التجارة و إشراف العائلات الكبيرة على الافتضاح خصوصاً الذين كانوا في خدمة أو طانهم و حرموا منها. فلو أحس المصريون و هم في هذه الحالة بحركة خفيفة من دولتهم (العثمانية) لكفوها شر الإنجليز و قليل من العمل فيه الكفاية. و اليوم يتوجه الإنجليز إلى السودان، فلو لمحو ثباتاً من العثمانيين لوقفوا وقفة الحائر بل سقطوا فيما لا منجى لهم منه. إن الخطر كل الخطر في سكوت العثمانيين. عن طلب حقوقهم، و ليس من الرأي أن يخاطروا بأنفسهم ثقة بمواعيد الإنجليز و في عملهم أن لا وفاء لها. فهذا هو الوقت الذي يتمكنون فيه من إعادة سلطتهم على القطر المصري إلى أعالي السودان. و في ذلك صيانة ممالكهم من العدوان و لا يرضى بفوات هذه الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت و ألقى بها إلى التهلكة. هذا ما يثبت العيان و لا يختلف عليه اثنان، فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فإنما يضل عليها و ما أنا عليكم بوكيل.

### جلادستون

قامت الدول الأوروبية كافة على المطالبة بحقوقها و إعانت الإنجليز في مصر خصوصاً دولتي فرنسا و ألمانيا و جميعهم يطالبون إنجلترا بإنجاز و عودها و يقيمون الحجة عليها في أعمالها على كفيات مختلفة و من وجوه متعددة.

و محمد أحمد و أتباعه قد فرغوا من أعمالهم الزراعية و أحرزوا غلتهم و هيئوا مؤنهم و جندوا الجنود الكثيفة و قصدوا أطراف دو صد و بربر، و في الأخبار الأخيرة أنهم سيروا جيشين على طريقين أحدهما يزحف من الصحراء و الآخر على خط النيل. و القلق و الاضطراب و ضيق الحال و اختلال الأمن يزداد في مصر كل يوم

حتى صار يخشى من فتنة عامة، خصوصًا بعد ما أحس الناس بسوء نية الإنجليز، و يمد هذه الأفكار ما فشي بين العساكر و العامة من أن السلطان غير راض عن أعمال الإنجليز في مصر و لا هو مرتاح لزعفهم على السودان، و بوده لو يصادفون مقاومة لا يخطون بها خطوة، و نزول ماء النيل و فقدان وسائل النقل و وعر الطريق و بعد المسافة، كل هذا أطفأ تلك الحرارة، التي كانت تطير بالعساكر الإنجليزية إلى الخرطوم بأسرع من حركة البخار لإنقاذ چوردون كما يزعمون أو تملك الخرطوم كما هو حقيقة القصد. و انقلاب قلوب الهنديين على حكاهم الإنجليز و ظهور تلك الضغائن مع العجز عن سترها خصوصًا من النوابين و الرجوات الذين يتوجسون الشر من و ثبات الحكومة الإنجليزية عليهم و هم الآن في ضجر شديد من تضيقها و تشديدها في مراقبة أعمالهم و هم على صورة الاستقلال، حتى إن بعضها منهم و من أعيان الأهالي الهنديين بعثوا بأناس إلى سرخس و مرو و آشقاباد على ما بلغنا ليعرضوا إخلاصهم و يتبينوا يوم خلاصهم، ذلك كله أحدث قلقًا و اضطرابًا في أفكار سياسيي الإنجليز و تخبطًا في سيرهم. فمن جهة يريدون ستر خجلهم من الأعمال المصرية مع قضاء بعض أو طارهم فيطلبون إلى الدول تشكيل مراقبة عمومية و ترك مصر و شأنها مع بقاء شردمة من عساكرهم في وادي حلفا لصيانة الحدود المصرية بعد طرد الجند الوطني (كما صانوا سائر الممالك الهندية بأمثال هذه الشردمات!) و يتوهمون أنهم يلهون الدول بهذه الأضحوة، و من جهة أخرى يبتغون إقناع أنفسهم و إقناع الأمة الإنجليزية بأوهام خيالية و ترهات صبيانية يجعلونها أساسًا لسياستهم في الممالك الهندية. من ذلك ما اعتمده اللورد دوفرين (ذلك السياسي المشهور الذي أفسد شئون مصر) قاعدة متينة لصون الممالك الهندية. بعد أن عين حكامدارًا عليها، قال في مقال ألقاه في (بال فاست): أنه يعد نفسه سعيدًا بمعرفته الخصوصية لمسيو چيرس وزير خارجية روسيا، ثم أثنى عليه بحدة تنبىء عن الإخلاص، و قال: إنني أرى لمسيو چيرس رغبة صادقة في حصول المصافات بين روسيا و الإنجليز و رفع الشقاق بينهما، و بالغ في القول حتى قالت جريدة (الميموريال دبلوماسيك) بعد

ذكر تهنئة روسيا للورد دوفرين على الوظيفة الجديدة: إن اللورد مكلف بعقد وفاق تعين به مهلة لتلاطم الدولتين المتنازعتين في آسيا الوسطى بعد تحديد تخوم أفغانستان من طرف الشمال. هذا ما اندفع إليه جناب اللورد بقوة الاضطراب و شدة الشغف بتسكين خواطر الشعب الإنجليزي و تغيير العقول في الهند و إرضاء القلوب عن سياسة الحكومة و ربما إرضاء نفسه أيضاً، و القارىء يعلم من هذه الحالة مقدار العجز الملم بسياسي بريطاني حيث طفقوا يجعلون من مباني سياستهم في الشرق معرفة شخصية بين حاكمهم في الهند و بين وزير روسيا الذى لم يخط خطوة فى الشرق إلا و غايتها الهند و لم تتقدم قدماً إليه إلا بعد عهد ينكث و ميثاق ينقض. فإن حلف وزير روسيا للورد هذه المرة لا يختلف هذا اليمين عن اليمين السابقة، على أن المحبة الشخصية لا قيمة لها في السياسات الكلية و ما سرور الإنجليز بها إلا من آثار الدهول و سر سأم العقول.

و أعجب من هذا أن جلادستون يرفع صوته بين شعبه بقوله: إن من ضعف العقل أن يظن الوهن في إمبراطورية الإنجليز أو يترقب بها الضعف في المستقبل و إن بسطة الدول مما يوجب بسطة إنجلترا. عجباً!! فإذا انبسطت روسيا إلى الهند فإلى أين تنبسط إنجلترا، أظنها تنقبض، لا تنبسط، و يقول: إن يوماً تشعرون فيه بالخوف لبعيد و ليس بقريب. سبحان الله. روسيا وضعت يدها على باب الهند (سرخس) و شهرتها عمت أنحاءه، و قلوب أهاليه ميالة إليها و هي لا تهاب الإنجليز و لا تتوانى في سيرها، فأى يوم يشعر فيه بالخوف بعد يومه هذا؟! كأن الوزير لا يحس الخطر حتى تحل روسيا في بنجاب أو تصل إلى نهر السند.

لا جرم أن الارتباك يضل بالإنسان عن رشده، و من المضحكات ما ذهبت إليه جريدة البال مال جازيت من أن هذا الكلام من جلادستون يدل على ثقة جديدة منه بالدول بعد مفاوضات حل بها المشكلات، و أن من له أدنى إلمام بحال الإنجليز في ممالك الهند و ضعف عسكريتهم و توزع أساطيلهم لحفظ سائر أملاكهم و نفرة الرعايا الشرقيين منهم مع تألب الدول عليهم و تقدم روسيا إلى الهند يوماً يحكم

بأن قد حل أجلهم و قرب يوم يهدم فيه سلطانهم و ينقلص ظل سلطتهم في المشرق و يهزأ بما يقول جلاستون: «إن إمبراطورية إنجلترا تزداد قدرتها بتجدد الأيام». و من رأي العقلاء أنه لو تقدم محمد أحمد و ساعده أهل الشهامة من الصعيد و الشرقية و البحيرة في مصر و خاب أمل الإنجليز في حملتهم و قامت الفتنة في الهند و تقدمت روسيا و خلصت النفوس من رق العبودية و قضى الأمر و قيل بعداً للقوم الظالمين.

### عماء بعض الناس في مصر

#### أو تعاميمهم عن مقاصد الإنجليز فيها

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما في وسعها لوقف دفع الاستهلاك و تنقيص فائدة الدين المصري و يعترضها في ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة. هل الدولة الإنجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عموماً و على المصريين خصوصاً فدعتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصداً لراحة المصريين و تخفيفاً لثقل الدين على الخزينة المصرية و توصلاً لرفاهة الأهالي و توسيع دائرة ثروتهم؟! أو أن الدولة لم تبالغ في الشفقة و هي على حد الاعتدال في الحكم، ولكن الدول تجاوزوا القسط في القسوة خشونة و غشمة أو لعداوة خصوصية بينهم و بين المصريين، لهذا لا يريدون تخفيف شيء من أثقالهم؟! أو أنها اطلعت على أحوال المصريين و كشف حقيقة ما هم عليه و علمت عجزهم عن الوفاء مما عليهم و خفيت هذه الحقيقة على سائر الدول فرأت حكومة بريطانيا أن تخبر الدول بما وقفت عليه قياماً بخدمة الصديق و إنما يعارضها من سواها جهلاً بواقع الأمر؟! لا ... لا ... ليس شيء من ذلك. من ساح في المستعمرات الإنجليزية كالبلاد الهندية و نحوها تبين له أن الأهالي في تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب و أوقار الرسوم الدائمة و المؤقتة ما لا يعرف له غاية و لا يؤخذ فيه بقياس حتى سقطوا في مهواة من الفقر لا يجدون منها خلاصاً. و يوجد ملايين من أهل الهند يقتاتون بالأعشاب البرية لفقدان أقوات البشر

مع خصوبة أراضيهم وجودة منابثهم، فهل يصح لعاقل أن يظن بعد هذا أن الإنجليز ضنوا برحمتهم على رعاياهم الهنديين و أفاضوا فيضها على المصريين؟! أي رابطة بين المصريين و الجنس البريطاني تدعوا إلى هذا الاختصاص؟! هل يصح أن يقال إن الأمة الفرنسية مع ما لها من سابق الآثار في مصر تعادي المصريين و تقسوا عليهم و تطلب تنكيلهم حقاً و انتقاماً؟! و هذا هو ما يحملها على المعارضة في تخفيف الفوائد و توفيق الاستهلاك قصد الإضرار بالمصريين و وافقتها على ذلك الدول الباقية. هذا مما لا يعقل، فإن في مصر ما يستميل الدول إليها لا ما يبعثها على الانتقام منها كما لا يعقل، أو أن وكلاء السياسة في مصر و مديري خزينة الدين من رجال الدول العظام قد خفي عليهم حال المصريين و شئون ماليتهم و تفرد الإنجليز بعلمها من بين سائر الأمم، على أن من يزعم أن أرض مصر فقيرة في ثروتها قاصرة عن أداء ما أوجبه عليها عهد الدول، فقد افترى كذباً، فإن مصر قد قامت بوفاء ما طلب منها أيام وزارة رياض باشا أحسن قيام مع غاية السعة و ارتياح الأهالي إلى تأدية الضرائب بأنواعها و مسرتهم التامة من تقسيم المطلوبات على حسب المواسم الزراعية، و هكذا استمر الحال بعد رياض باشا على الأساس الذي وضع في عهده إلى أن زحفت إنجلترا بجيش من دسائسها على تلك النفوس المطمئنة فأقلقتها، و تلك الأرواح الساكنة فأنارتها، فما تبغى إنجلترا الآن من الإلحاح على تنقيح قانون التصفية و تنقيص الفوائد، و ماذا بعث الدول على معارضتها؟!

تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر و تستعبد أهلها و ترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة فلا يكون حظ الخزينة الإنجليزية الخاصة من ثروة مصر وافر، و لهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستملاك بالسعي في تخفيض فائدة الدين لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضل به الآن على المصريين، فهي تسعى لفائدتها الخاصة ليس إلا، هذا قصدها لم يخف على الدول فقامت بمعارضتها و أصرت حرصاً على مصالحها لا تهدر فداء لحظوظ الإنجليز و قضاء لشهواتهم. يهم الدول جلاء الإنجليز عن مصر

عاجلاً أو آجلاً لهذا تهتم بسد أبواب الحيل عليهم وإقامة العقبات الصعبة في كل خطوة يخطونها إلى مآربهم.

و ظهرت مقاصد الإنجليز و انشكفت مضمراتهم لعموم أوروبا و لم يبق فيها ريبة عند دولة من الدول الأوروبية، و إن كان بعض الغفل في تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب في طريقه ذاهب إلى مقصده يتزلف للإنجليز بكل يمكنه لينال بوساطتهم ما أشرنا إليه مراراً)، تسول لهم أنفسهم، إما جهلاً وإما طمعاً أن يميلوا مع ريح الحكومة الإنجليزية و يظنوا أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً، فإذا فاض الخير في البلاد و شملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها و رجعوا إلى بلادهم فرحين بأنهم أدوا فرائض الذمة و حقوق الإنسانية!!

و العجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك؟! يتجول في البلاد المصرية و يستدعي إليه العمدة و المشايخ و يذاكرهم فيما يريد، طوراً سرا و طوراً آخر علانية، و يجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفي هذا السير لإدراك الحقيقة؟! فبم يعلل الغافلون أنفسهم و أي أوهام تخيل لهم ما يظنون؟! ألم يكشف الغطاء عن نية سوء بسؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر و مفتي القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: «ماذا تعلم من أفكار الأهالي لو أردنا نحن الإنجليز أن نديم الإقامة في البلاد؟!»، فلو لم يكن لدولة الإنجليز عزم على تملك وادي النيل فكيف كان هذا السياسي الداهية يتندر شيخاً من أجل المشايخ و أعلاهم مقاماً في القطر المصري بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون و إحداث الريب إجابة حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنجليز في احتلال مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء ولكن كان استدراكه مناقضاً لما دل عليه أول سؤاله و ما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلاً عن الراشدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكن مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير

إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد في وجهه باب حاول قرع باب آخر.

أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم و يمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أي إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرياً و محو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟! إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصري بأعوان الشرطة و الخفر المسمى بالضابطة، ما هذا الاهتمام؟ إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟! هذا سبيل سلكته الإنجليز في جميع فتوحاتها كما نبهنا مراراً، و إن هذا الداهية الإنجليز لا يحيد عنه بعدما سلكه أسلافه من قبله و قفاهم عليه عندما كان حكممدار الهند و جنوا ثماره. يجتهد بما في وسعه لطرد العساكر المصرية و إبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنجليزية أو الهندية تعللاً بفساد أخلاق المصريين و عدم أهليتهم للخدم النظامية و عجزهم عن القيام بوظائف الضبط و صيانة الراحة و بذلك يجرد الحكومة من جميع قواها و تكون السلطة الإنجليزية سائدة في جميع الجهات بلامعارض لها من طرف الحكومة المحلية. كل هذا يجريه قبل إعلان السيادة و الاستملاك كما فعل سابقوه في الهند مع كل نواب و راجا و لا يزال يفعل خلفهم من بعدهم.

يزعم الإنجليز أن تدخلهم في مصر إنما كان لتسكين الاضطراب وإزالة العصيان و تقرير الراحة. ارتفع العصيان و سجن عرابي و رؤساء حزبه و تبددت جموعهم و لم يبق أثر لما سموه عصيائاً و ألزمت دولة بريطانيا حكومة مصر بالتنازل عن السودان من مدة طويلة. فماذا تريد من إرسال الجيوش إلى مصر الآن، ألمجرد إرسال چوردون كما يدعى رجال الإنجليز؟ إنهم يقولون إن چوردون يسوق مراكبه في كل وقت لمحاربة الثائرين و تشهد الجرائد الإنجليزية نفسها بأنه يستطيع الخلاص بأي وجه متى شاء، فليس هناك حاجة إلى تجريد الجيوش و سوقها إلى الأراضي

المصرية تحت هذه التعلّة. هل تريد حكومة بريطانيا بتوقية<sup>(١)</sup> جيوشها أن ترفع الخلل الداخلي و تكف أيدي الناهيين و قطاع الطريق؟! هذا خلل ما حدث إلا بوجود الجيوش الأجنبية و النفرة من السلطة الغربية فكيف يمكن محو الشيء بتوقية علل وجوده؟! هذا الخلل يرتفع و يمحى أثره إذا انجلى جيش العدو عن الديار و لم يبق لها فيها رءوس و لا أذنان، نعم هذه كلها تعلات يزعمها الإنجليز حجابا لما يسعون إليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر و حط الرجال في سهولها و حزونها<sup>(٢)</sup>.

فلم يبق بعد هذا سوى أن ينتبه الغافل، و يلتفت صاحب الأمر إلى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم، و لا يعين الإنجليز على مقاصدهم جهلا منه أو اغترارًا بما يخيّلون له من نفع يعود على شخصه أو بلاده، سبحانه الله، هل كان مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه؟! هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق، لا تفيدهم التجارب، و لا تريبهم المحن و لا تعلمهم الحوادث، و لا تدربهم النوازل، و تناوب الرزايا و المصائب. من له أدنى خبرة بسير الإنجليز في ماضيهم أو حاضريهم يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدي سكانها و يقتلون أمراءها بسيفوف أنفهمسم. يرى هذا الأمير الشرقي في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهوا عنها و لا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره. مثلهم مثل الأغنام سوق القصاب منها واحدًا بعد واحد إلى المذبحة و سائر القطيع في غفلة عما يجري على أحاده يرمى و يرتع آمنًا مطمئنًا حتى يفنى. لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة و أكثر سوادًا و قهرتها بقوة السلاح و إنما العار الذي لا يمحوه كره الدهور و لا ينسيه تطاول الأزمان، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدي العدو من نواصبيهم، إما غفلة عن شئونهم، و إما رغبة في نفع وقتي و جزاء نقدي على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم. علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، و نحمل عوامل الشهامة الإسلامية، و نوقد

١. يقصد الأفغاني بكلمة توقية: وقاية أو حراسة ...

٢. حزونها: المناطق الوعرة ..



نيران الغيرة الوطنية، لتخيب آمال الإنجليز و نرد كيدهم في نحورهم و نقذف بأولئك المغفلين الذي يميلون إليهم خارج تخوم هذه الديار ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم و يذوقوا عذاب الهوان بما كانوا يكسبون. هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم و رجوعهم إلى الحق و الصدق في محبة الأوطان و رعاية مصالحها. فإن تابوا و أصلحوا و أنابوا كان الحق ظهيرهم، و كان الله وليهم و نصيرهم، و هو نعم المولى و نعم النصير.